رسائل من مصر

أحمد خاكى

حياة لوسى دف جوردون فى مصر (١٨٦٢ - ١٨٦٩)



الهيئة المصرية العامة للكتاب

رسائل من مصر

حياة لوسى دف جوردون فى مصر

١٨٦٢ - ١٨٦٩

بقلم
أحمد خاكى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٧٦

محتويات الكتاب



لوسى دف جوردون ـ اسمها هنرى و • فيليبس سنة ١٨٥٢



سارة أوستن ، والدة لوسي دف جوردون ، رسمت سنة ١٨٣٩

مشيئة الله

كانت الأستار قد أسدلت على سفينة رست على شاطىء حلوان ، وكان الظلام يخيم عليها ، على الرغم من أن موسم الصيف كان فى ابانه . وكان فى احدى مقصورات السفينة سيدة أخذ منها النحول حتى لتكاد تكون خيالا ، وكانت فى تلك الليالى تحاول النوم لكنها ظلت مسهدة تغالب داء طالما أقض مضجعها هو داء السلال .

وكان بحارو السفينة يجيئون ويذهبون يدعون الله أن يسوق لها الشفاء ، بعضهم ذبح فدية لحياتها ، وبعضهم الآخر نذر نذرا لأهل الله ، وبعضهم قرأ القرآن الكريم ترتيلا حتى تتنزل عليها بركة الله . وكان الى جوارها خادم أمين اسمه

« عمر » كرس حياته لخدمتها والقيام على صحتها . وقد جاءت السفينة الى حلوان لعل هواءها الطيب يرد اليها بعض ما فقدت. ولكن لا الدعوات الصالحات أجدت ولا عناية الخدم أفادت، فقد طالما غالبت الداء بقـوة دفاعة فى نفسها ، لكنهـا الساعة لا تستطيع الا أن تتوقع النهاية المحتومة . كان زوجها وابنتهـا الكبرى فى انجلترا يعدان العدة للمجىء اليها لكنها كانت تتنبأ بأنها سوف تقضى نحبها ، وآثرت أن تموت قبل أن ترى زوجها حتى لا يكون توديعها الأخير مؤلما لنفسه . وتكاثرت كل هذه المعانى والأفكار والذكريات فى نفسها ، وتحاملت على أصابعها الدقيقة الناحلة ، وكتبت له رسالة وداع هى آخر الرسـائل العديدة التى كتبتها من مصر .

ففى التاسع من يولية سنة ١٨٦٩ كتبت الى زوجهـا هذا الخطـاب :

« لا تبتئس ولا ترسل الى ممرضة . لقـد ظهر أن مس ماثيـوز شخصية ممتازة . وأنا ألقى من التمريض ما هو فى الامكان ، والريسان « رمضان » و « يوسف » قويان وعطوفان، أما « عمر » فهو كما كان دائما . لقد بلغ بى الألم الجثمـانى مالا أود أن يشهده الآخرون ، وأسوأ مافى الأمر أننى أشعر بالقوة بعض أحيان ـ وقد مثلت مـوتى منذ يومين كما يقوم

المثلون بتجربة أدوارهم ، فغبت عن الوعى ليلة بأكملها لكننى أفقت فى الصباح » .

« ومرة أخرى أقول انه لا يمكن أن يعتنى بى فى أى مكان آخر مثل ما يعتنى بى بحارتى . أبلغ ولدنا « موريس » أنهم بكوا لفراقه ، وأن « عبد الحليم » قد أقلع عن تعاطى الخمر والحشيش ، وأنه الآن رجل صالح .. أما الريسان فلا أحد يدانيهما » .

« بارك الله فيك يا أعز الأحباء جميعا . كم هو من المؤسف أنك لم تقم بما كنت عزمت عليه من قدومك الى على صفحة نهر النيل ! »

« قبل لى كل أحبائى و « تشارلى » العزيزة ! اننى أشفق على عينيها ! أظن أننى لا أستطيع أن أجيد الكتابة ــ فخطى ردىء ــ فأنا مجهدة مسـهدة فارقنى النوم ، وأختنق اختناقا لا يقف عند حد » .

« اغفرلى أخطائى ان كنت قد أسأت اليك . كم وددت لو أننى رأيت وجهك العزيز مرة أخرى ــ لكنى لست أود ذلك الآن . لست أريدك الآن هنا بأية حال من الأحوال » .

وتعاقبت بعـد ذلك ليال خمس وجاءت ليلة الثالث عشر من

يولية ، وألقت بظلها الثقيل على السفينة الراسية الى جانب حلوان . ولم يكن قد تسلم الزوج رسالة المريضة ، ودبت في روحها أثارة من حياة ، وسألت فتاتها مس « ماثيوز » أن تحضر لها استمارة تلغراف ، كتبت فيها الى زوجها نعيها بنفسها ، وتركت فراغا بين الكلمات يكتب فيه تاريخ الوفاة . وقالت انها لن تقوى على البقاء الى اليوم التالى . انها ظلت اثنى عشر يوما مؤرقة لا تأوى الى فراشها ، لما كان ينتابها من ألم السعال والاختناق ، بل لبثت متكئة على مقعد ذى مسندين .

وقرأت ثانية خطابا أخيرا من ابنتها الطفلة « رينى » فبكت بكاء مرا ! اذ ذكرت أنها لن تراها مرة أخرى ، لكنها قالت بعد ذلك انه من الخطأ أن يشكو الانسان من مشيئة الله ، أو أن يكون سببا فى تألم الآخرين . وكان «عمر» و «دارفور» وكل البحارة ساهرين على ظهر المركب : يصلون من أجلها فى ظلام الليل ، بينما كانت « اما ماثيوز » جالسة الى جانبها » .

وعند منتصف الليل قالت انها كانت تحس ببرد شديد جدا ، فأحضرت لها بطانيات ، ولكن لم يجد ذلك نفعا . وفى الساعة الثانية من الصباح طلبت قهوة باللبن ، وحين أحضرت لها قالت : ما أجمل رائحتها ! انكم تعلمون ما سوف يأتى . لا تخافوا . ودخل « عمر » وبحارتها الى مقصورتها ، وكان قد بقى لها من القوة ما أتاح لها أن تباركهم وأن تحتضنهم واحدا

واحدا ... وتشكر لهم ما قدموه من أجلها من حب وعطف ، وقال واحد منهم : انه يرجو أن تتحسن . فأجابت : ليس من الرحمة بي أن يطول بي هذا الألم . انما أصلي من أجل نهايتي ، ووقف الجميع وقد حطم الأسى قلوبهم بينما كان الفجر يلقى بأشعته الأولى على النهر ، وجثا « عمر » الى جانب فراشها وقد تملكه اليأس عاجزا الآن عن أن يمد لها يد المعونة .

وكتبت تابعتها مس « ماثيوز » تقول : « كانت رغبتها أن ترى زوجها . ولكن حين تبينت أن ذلك لن يكون استسلمت لأمر الله قائلة : « لتكن مشيئتك » وتوفيت وقد قربت الساعة من السابعة من صباح اليوم الرابع عشر من يولية في سن الثامنة والأربعين . ووصلت برقيتها الى زوجها وابنتها في اللحظة التي كانا فيها يعدان السفر اليها في مصر » .

وكذلك تزايل الفكر الذي عاشت من أجله ، والخيال الذي عاشت به فأصبح كلاهما هامدا خامدا في هذه الرفات . كانت في الثامنة والأربعين حينما أسلمت الروح . وكان قد دب النحول الى جسدها ، وتقوس ظهرها ، وتساقط شعرها ، فلم يبق من ملاحتها أيام صباها وشبابها الا أطلال . لكن معارف وجهها كانت ماتزال تنطق بالعطف ، وهي تعلم أنها مسافرة عن هذا العالم الى أبدية آمنت بها . ولعله ان كان كل ذلك ينسى لولا أنها درجت على كتابة رسائل من « مصر » اهتم بها الناس حينما نشر بعضها

في حياتها ، واهتم بها بعض بنى وطنهـا لا لسـبب الا لحب الاستطلاع .

لكن هذه الرسائل لقيت أخيرا غير قليل من العناية ــ فقد قيض لها سليل من أحفادها هو مستر « جوردون ووتر فيلد » فأخرج هذه الرسائل في مجلد أنيق في سنة ١٩٦٩ ذكرى للمائة عام التى مرت على وفاة جدته .. وكأنما كان هذا المجلد كنزا عثر عليه الباحث ليقرأ تاريخا لفترة من حياة الصعيد فى مطلع حكم « اسـماعيل » . لقد سمع الباحث عنها وعن جهودها . ولكنه لم يكن يدور بخلده أنها لقيت شيئا من العذاب حين قضت سبع سنوات فى « مصر » من سنة ١٨٦٢ الى سنة ١٨٦٩ ، ولم يكن يعلم ان سيدة انجليزية من الطبقات العليا تستطيع أن تعيش فى غمار الفلاحين العرب والنوبيين والبدو كما عاشت ولا أن تندمج فى حياتهم كما اندمجت . ولم يكن داء السل وحده هو الأصل فى قلقها وأنما كان يقلقها أيضا حياتها فى وسط كان غرضا للظلم والعسف والجور .

يذكر الباحث انهـا ولدت فى الرابع والعشرين من يونية ١٨٢١ وانها شبت فى مهاد النعمة . ويتأمل صورها الأولى فيرى فيها فتاة رشيقة القوام ، خمرية اللون ، ناضرة الوجه ، ذات شعر مسدل على كتفيها . ويرى فى عينيها السوداوين لمحة من الذكاء الخاطف ويحس فى ملامح وجهها أنها تستطيع أن تكون

صاحية دعابة • وقيل انها فى سن الصبا كانت لا تهتم بالمظاهر التى كان يتمسك بها أهل الطبقة العليا ، فلم تكن تعنى بثيابها ولا كانت تتخذ شيئا من أساليب الزينـة وكانت تسـكن الى أنواع برية من الحيوان وتستأنس ثعبانا تخفيه فى صدرها ، وتلفه على رأسـها بعض أحيـان • ولم تذهب الى المدارس الا قليلا ، ولكنها قرأت كل ما كان يمكن قراءته فى زمانها •

ورثت الجمال عن أمها فقد كانت والدتها فتنة المجتمع ، ومحط أنظار الناس من حولها ــ ولكن الفقيدة حين قصدت « مصر » سنة ١٨٦٢ كانت قد ذهب عنها بهاؤها ، ونحل جسدها •• وكانت دائما تنتظر أمرا ــ ذلك ان داءها كان شبحا مايزال يساورها ؛ لكنها كانت تطارده مستعينة بالصبر الجميل وبارادة الحياة •

تلك كانت « لوسى دف جوردون » ، أو « لوسى أوستن » كما سميت عند ولادتها ، أو « ليدى دف جوردون » كما تسمى فى بعض كتب التاريخ ، أو « نور على نور » و « البشوشة »؛ و « الشيخة » و « الست » كما كان يسميها بعض من اختلطت بهم من أهل الصعيد •

رسائل من مصر

عن سنة ١٨٦٢ الى سنة ١٨٦٩

الكتاب فى نفسه ليس الا مجموعة للرسائل التى أرسلتها « لوسى دف جوردون » الى زوجها ووالدتها أثناء وجودها فى « مصر » فى الفترة ما بين ١٩٦٢ ، ١٨٦٩ ، واسم الكتاب فى الأصل « رسائل من مصر » . والذى أشرف على اعادة نشر هذا الكتاب فى سنة ١٩٦٩ حفيد من أحفادها هو مستر « جوردون ووترفيلد » . وهو صحافى عاش فى «مصر » فى العشرينات من هذا القرن وكان رئيسا لتحرير « الأجبشيان جازيت » وكتب

* Letters from Egypt (1862-1869) by Lady Duff Gordan — Enlarged Centenary Edition — by Gordan Waterfield — Routledge and Kegan Paul, London.

كتابا عن الحركة القومية فى « مصر » • وقد رأى ان يقدم للكتاب وينشره فى تلك السنة ذكرى للعام المائة لوفاة والدة جدته ، اذ أنها توفيت فى « القاهرة » فى فجر الرابع عشر من يوليو ١٨٦٩ •

والكتاب عندنا وثيقة قيمة للتـاريخ الاجتماعى فى تلك الفترة ، بل هو من بعض نواحيه يمكن أن يعتبر وثيقة دينية وسياسية جدير بالباحثين فى التاريخ آن يعيروها دراسة دقيقة • ذلك أننا قد درجنا فى كتابة تاريخ بلادنا على أن نهتم بالنواحى السياسية العليا ، وأن ندرس الشرائع والقوانين ، وأن نتدبر أمور الحرب وشئون السلم ، وأن نقدر أصول الحكم ، وأن نحقق التواريخ نفسها ، وكل هذا جميـل • ولكن عندنا أن دراسة المجتمع نفسه واحساسات أعضائه وتصرفاتهم من ألزم ما يكون للمؤرخ • ولم ينل المجتمع المصرى فيما نعلم ؛ ما هـو جدير به من دراسة فى مختلف عصوره • وكان من حسن الطالع آن يكتب الجبرتى يومياته وحولياته ففتح نافذة على المجتمع المصرى فى مصر وبخاصة بين سنتى ١٧٩٨ و ١٨٢٢ ، وكان من حسن الحظ أيضا آن أتيح لكاتب مثل « ادوارد وليم لين » آن يمكث فى مصر حقبة من عصر محمد على استطاع آن يصف فيها المجتمع المصرى بدقة فى كتابه « المصريون المحدثون : شمائلهم

وعاداتهم » . وعندنا أن كتابا مثل هذا أو ذاك ينبغي أن ينظر اليه كوثيقة تاريخية تؤرخ للمجتمع الذى كتب عنه .

« رسائل لوسى دف جوردون » كتاب من هذا النوع أى أنه يعتبر فى نظرنا وثيقة تاريخية تصف قطعة من حياة الريف المصرى بين سنتى ١٨٦٢ و ١٨٦٩ ، وقد كتب : « ادوارد وليم لين » عن حياة القاهرة فى الفترة التى عاش فيها بين القاهريين ، وكتب شيئا عن الريف المصرى ، لكن « ادوارد وليم لين » كان يكتب فى أيام محمد على ، ولكتابه السبق فى وصف تصرفات القاهريين : ما يأخذون به وما يدعون ، أما كتاب « لوسى دف جوردون » فهو مجموعة رسائل كانت تكتبها فى الحين بعد الحين تصف فيها ما يحدث فى قرية صغيرة هى « الأقصر » ، وتتناول فيه بالحديث الأحداث الصغيرة التى كانت تقع فى هذه القرية . وكانت دائبة على أن تتجول فيما حولها من القرى ، وأن تستمع الى ما يلقيه عليها القوم من قصص فتكتبها الى زوجها أو الى والدتها ، أو الى ابنتها بعض أحيان . وباحث التاريخ يستطيع أن يجد أنه كان هناك تفاعل بين الحكومة المركزية فى القاهرة وبين هـذه القرى القصية مثل الأقصر والمطاعنة والبلينا واسنا وأسوان . فقد كان الأهلون متأثرين بسياسة الحكم ، وكانت سياسة الحكم هو ما نطلق عليه عصر اسماعيل فى بدايته أى من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٦٩ . انها وثيقة سياسة اجتماعية تعرض

خبرات شخصية مباشرة ، فهى تتحدث عن قطعة فى أعماق الصعيد ، وهى وثيقة دينية لأنها تتحدث عن أثر الاسلام — ولكن وراء هذا الأثر ما تأصل فى ثقافة المجتمع من أثر التاريخ الفرعونى ومعتقدات الفراعنة .

وقبل أن نمضى فى الحديث عن نظراتنا الى كل ذلك ، ينبغى أن نرجع الى مولدها ونشأتها وثقافتها قبل أن تلجئها العلة الى المجىء الى مصر . فقد ولدت كما ذكرنا فى سنة ١٨٢١ فى أسرة ارستقراطية : كان أبوها « جون أوستن » أحد الباحثين من رجال الفقه القانونى . قضى فترة طويلة يحاضر فى جامعة لندن ، ولكن لم ينل حظا كبيرا فى السلك الجامعى ، فقد انصرف عنه الطلبة ، وأغلب الظن أنه كان صارما قليل الأصحاب ، ولم يكن من لين الجانب بحيث يرتاح اليه أصدقاؤه ومخالطوه . وعلى الرغم من ذلك فاننا ندرك أنه كان لثقافته القانونية أثر كبير فى نشأة « لوسى » وحياتها ، فقد طبعت على حب العدل مهما كان من أمر ، ونظرت الى كل أمر من الأمور بالقسطاس المستقيم الذى يمثل أهل العدل فى جميع الأمم والعصور . وتوفى والدها بين يديها بعد أن كانت قد نضجت عقلا وروحا . أما أمها فقد كانت صنفا نادرا من النساء . كانت جميلة جمالا باهرا ، وكانت بهجة مرحة تميل الى الاختلاط بطبقات المجتمع العالية ، وكانت مثقفة ثقافة عالية جدا ، أتقنت

اللغات الأجنبية وبخاصة الألمانية ، واشتركت اشتراكا فعليا فى حركات الاصلاح الاجتماعى والسياسى • وكانت تجمع حولها حلقات من أبرز الكتاب والأدباء والمفكرين الانجليز فى النصف الأول من القرن التاسع عشر • وكان هؤلاء هم المسئولين عن حركات التقدم الاجتماعى فى انجلترا : منهم « جيمس مل » ــ وكان يسكن الى جوارهم وكان ابنه « جون ستيورت مل » صبيا يلعب مع « لوسى » ــ وكان منهم « تشـارلز دكنز » و « توماس كارليل » و « لورد ماكولى » و « جورج ميريدث » و « بيلى » •

وتزوجت « لوسى » من سير « ألكسندر دف جوردون » سنة ١٨٤٠ وانتقل أهلها الى « بولون » فى فرنسا أيام « لويس نابليون » • وكان يؤم ناديهم « كوسان » وهو من أكبر المربين والقانونيين فى عصره • ولى منصب وزارة التربية فى فرنسا لكنه لم يطق العمل فى حكومة « لويس نابليون » ، وكان منهم « تيير » مؤرخ الثورة الفرنسية الأول • وكانت « لوسى » تزور والديها فى هذه الحقبة ــ وكذلك ترى أنها ورثت عن والدتها « سارة أوستن » اتقان اللغات الأجنبية فقد تمكنت من اللغتين الألمانية والفرنسية ، كما ورثت عنها التسامح ، والشجاعة فى ابداء الرأى ، والصراحة المطلقة مهما كانت العقبات • وحينما تزوجت « الكسندر دف جوردون » استمرت تواصل هــــذه

الحياة الفكرية ، فقد ترجمت « لوسى » ــ اتباعا لأمها ــ مؤلفات ضخمة من اللغة الألمانية ، واتصلت بالأديب الألمانى « هين » الذى توفى وهو يذكرها . وكانت متسامحة فى النواحى الدينية حتى اتهمها بعضهم بالخروج عن الدين المسيحى . ويقول قوم انها ورثت هذه الحرية الدينية من أهل والدتها : فقد كان هؤلاء « وحدويين » والعقيدة الوحدوية المسيحية تخالف فى بعض أصولها سائر المذاهب المسيحية .

وفى سنة ١٨٥٢ ــ وهى تعمل مجدة فى شئون الترجمة ، وتنقد النظم السياسية والاجتماعية فى ألمانيا وفرنسا وانجلترا ، تثاقل عليها ألم كانت تحس به من قبل : ذلك هو داء السل !! نقول انها كانت تحس به وهو يسرى فى جثمانها ، وقد كانت جميلة هيفاء : فى تلك السن التى ينضج فيها النساء . ولم يكن قد اكتشف بعد علاج لهذا الداء العضال فيما عدا الاحتراس من البرد ، وتعاطى الأدوية المقوية . وفى العشر السنوات التالية جربت هذا وذاك لكن هذا الداء الوبيل لم يرحمها . وفى سنة ١٨٦١ نصحها الأطباء أن تسافر الى جنوب أفريقيا حتى تجد جوا مناسبا معتدلا دافئا يلائم صحتها .

وأمضت سنة فى « كيب تاون » تستشفى : ولكن علاجها هناك لم يكن ميسورا .. وعادت الى انجلترا ، فنصحها الأطباء أن تذهب الى مصر لتمضى فيها فصل الشتاء . وارتحلت الى

مصر فى أكتوبر سنة ١٨٦٢ ، ووصلت الاسكندرية فى السابع والعشرين من هذا الشهر • وقضت سبع سنوات فى مصر بعد هذا التاريخ حتى الرابع عشر من يوليه سنة ١٨٦٩ ، ولـكن لا تحسب أنهـا لم تر انجلترا خـلال هذه المـدة • فقـد كانت تمضى معظـم أيام الصـيف فى بلدها ، وتعـود الى مصر حين يحل الشـتاء • كان داء السـل يقضى عليها بطيئـا لكنها تحولت الى روح من الثقافة فى رسائل كتبتها من « كيب تاون » ثم فى رسائل كتبتها من مصر ، ففى هذه وتلك كانت روحا تكاد تنفصل عن الجسـد • كتبتها الى والدتها أو الى زوجها « الكسندر دف جوردون » ثم هناك رسالة أو رسالتان كتبتهما لابنتيها •

ليس لنا فى هذا الحديث أن نخوض فى حياة « لوسى دف جوردون » أكثر مما ألمنا به • فاننا نريد أن نختص حديثنا عنها بحياتها فى مصر • وقد أحبت مصر ، وماتت ولسانها يلهج بالثناء على أهل مصر ، بل لقد بلغ بها الخيال أنها تحدثت عن نفسها كمصرية عربية ، واعتبرت فيما اعتبرته أنها مسلمة ، وأخذت فى كل الأمور بوجهة النظر العربية • ولم يطل بقاؤها فى القاهرة نفسها بل ظلت بها الى شتاء سنة ١٨٦٢ ، ولم يحل الحول حتى كانت قد استقرت فى الأقصر • ففى ١٢ يناير سنة ١٨٦٤ استقرت « لوسى » فى بيت اسمه « بيت فرنسا » على كوم من الأتربة

والرمال يرتفع الى أكثر من خمسين قدما ويغطى معبد الأقصر نفسه . كان « بيت فرنسا » مقاما على هذه الربوة المصطنعة يقابل مسجد « أبى الحجاج » من ناحية ، ويطل على النيل من الناحية الأخرى . ونعرف من تاريخه أنه كان قد بناه قنصل انجليزى مهرب للآثار اسمه « هنرى صولت » ، وعاش فيه « بلزيونى » أكبر مهربى الآثار المصرية — حين كلفه « صولت » نفسه أن يستولى على قاعدة تمثالى « ممنون » التى لا تزال الى اليوم فى المتحف البريطانى . وعاش فيه « شمبوليون » سنة ١٨٢٩ ، وأقام فيه الضباط البحريون الذين أرسلتهم فرنسا ليستولوا على المسلة المصرية التى لا زالت الى اليوم قائمة فى ميدان « الكونكورد » بباريس . ولم يكن معبد الأقصر قد استكشف بعد اذ أنه لم يكشف الا فى سنة ١٨٨٤ حين نجح « ماسبيرو » فى رفع الأنقاض عنه .

وفى هذا البيت الضخم المتداعى استقرت « لوسى دف جوردون » بسيطة كل البساطة ، تتعرف بالناس من حولها ، وتشفق على الفقراء والمساكين ، وتداوى المرضى ، وتبادل الأحاديث مع العلماء والجهال منهم ، وتشارك الناس أفراحهم وأتراحهم ، وتحس بالظلم الذى يقع عليهم ، ولبثت على هذا العهد ست سنين .

ان الذى يميز فى نظرنا رسائل « لوسى دف جوردون » ،

هو أنها كانت تكشف عن ثقافة تجمع بين القديم والحديث : ثقافة واسعة . ويدل على هذه الثقـافة الرحبة المحاولاتها فى الترجمة التى بدأتها فى سنة ١٨٤٤ أى وهى فى سـن الثالثة والعشرين . والفـاحص لكتبها المترجمة يجد أنها كانت تعنى بترجمة الأساطير اليونانية وبتاريخ بروسيا على وجه الخصوص ، وبتاريخ ألمانيا وفرنسا على وجه العموم . فقد ترجمت للمؤرخ « فون رانكه » كتابه فى تاريخ بروسيا فى ثلاثة مجلـدات . وترجمت لـ « فرنياخ » مختارات من المحـاكمات الجنـائية. وترجمت ا « فون مولتكه » تاريخ «الحرب الروسية التركية» . ولم تأت سنة ١٨٥٠ حتى كان مجموع ما ترجمته من الكتب الألمانية والفرنســية الى لغتها الانجليزية ثمـانية كتب ضخمة وكانت لما تبلغ الثلاثين .

ولك أن تقدر مقـدار الجهد الذى أضناها وهى تترجم وتكتب ، ولك أن تتبين السبب فى ازدياد المرض عليها ، وأن تدرك موقفها حين كانت تجـد وهى لاهية عما قد يصيبها من أضرار . ولكن لم تكتف « لوسى دف جوردون » بهذا الجهد الثقافى ، بل تدل رسائلها أيضا على أنها كانت قد قرأت الانجيل قراءة واعية ، وكان لها من المقدرة ما تستطيع به أن تصور فى خيالها قصصه ومناظره وأشخاصه من أنبياء وقديسين . ثم لقد قرأت التـاريخ القديم وعرفت « هيرودوتس » أبا التـاريخ ،

وتشيعت بآرائه ، ثم لقد قرأت « ألف ليلة وليلة » وحققت الصور المتألقة التى تروح وتغدو فى حكاياته وأساطيره • وكانت آيات الانجيل وتاريخ « هيرودوتس » وقصص «ألف ليلة وليلة» مجالا واسعا للمقارنات • ثم زاد على ذلك أنها درست بعض ما كتب عن الاسلام والمسلمين لا لتتبع المستشرقين والقسيسين فى آرائهم ، ولكن لتعد نفسها للتجارب التى كانت عازمة على أن تمارسها ، أو لعلها قرأت مقال « توماس كارليل » عن النبى محمد وصورته بطلا بين الأنبياء •• كل هذه هى حصيلة الثقافة التى كانت قد كسبتها قبل أن تزمع المجىء الى مصر ، فهى تتمثل نفسها فى مكان « روث » : احدى شخصيات التوراة، أو « ايزيس » الهة المصريين « القدامى » أو « شهر زاد » فى « ألف ليلة وليلة » ــ وتتمثل الآخرين فى هيئات الأنبياء والقديسين ، أو فى أشكال « أوزيريس » أو فى أثواب « نور الدين » فيما تقصه علينا حكايات ألف ليلة وليلة •

فى ضوء كل ذلك ، نستطيع أن نتابع الحديث عن «لوسى» حين لبثت شهرا وبعض شهر فى القاهرة ، ثم حين استقر بها المقام فى « بيت فرنسا » فى الأقصر التى تأبى فى مبدأ الأمر الا أن تسميها « طيبة » : انها عقلية متفتحة حرة أشد ما يكون التفتح والحرية • عالجت كل القضايا القديمة والحديثة فى حوارها مع قادة الفكر فى بلدها وفى ألمانيا وفرنسا ، وحصلت

على ذخيرة من المعرفة أتاحت لها أن ترى الوجه الآخر من كل قضية من القضايا ، ولكن لا يفوتنا أن نذكر نقطتين فى تاريخ حياتها جديرتين بالاعتبار . أما أولاهما فهى أنها كانت قد قضت سنة أو بعض سنة من ١٧ سبتمبر سنة ١٨٦١ الى يوليو سنة ١٨٦٢ فى « كيب تاون » ، وأما ثانيتهما فهى أنها قضت شهر نوفمبر سنة ١٨٦٢ فى القاهرة نفسها أى فى مقر السلطة الحاكمة . وكلتا المرحلتين كان لها أشد التأثير فى اتجاهاتها : فقد ثبتت فى نفسها بعض المفاهيم التى لم تكن لتدركها الا بالخبرة والتجربة المباشرة .

وحين مقامها فى جنوب افريقيا شهدت أخلاطا من الأجناس لم يكن الانجليز فى نظرها أفضلها . اذ كان هؤلاء يكونون الطبقة الحاكمة المنعزلة . شهدت الجنس الزنجى وعرفت منهم رجالا يمتازون بقوة الجسد وطيبة النفس . ورأت ما يسميهم الغربيون « الكفرة » فقالت عنهم : « لا شىء يشبه « الكافر » فى القوة وكرم النفس . أما وجهه فهو على الرغم من ملامحه الافريقية يمتاز بالعظمة التى لا تراها على وجه الزنجى . و « الكفرة » يمتازون بالنظافة وباتقان الخدمة . فهم يتعلمون طهو الطعام فى وقت قصير جدا ، فاذا توافر لهم مال ، واستطاعوا أن يشتروا ماشية رجعوا الى بلادهم وقد خلعوا ماعليهم من الثياب، وعاشوا عراة منعمين فى رغد من حياة العرى» (ص ٣٦) .

وشهدت وهى في « كيب تاون » ظاهرة اجتماعية سوف نلاحقها في مصر . تلك كانت تتعلق بقضية الرق والأرقاء . كان من سكان جنوب افريقيا ، وأحسب أن ذراريهم لا زالوا هناك ، طبقة من الهولنديين المستعمرين ، وكان هؤلاء في أول مقدمهم يستخدمون رقيقا يجلبونه من «الملايا» وكان العبيد « الملايون» هم الذين يقيمون المساكن ويفلحون الأرض ويعمرون المدن. ولكن حين زارت « لوسى » « كيب تاون » كان قد تحرر هؤلاء ففقد المستعمرون القوة العاملة التى كانوا يسخرونها في التعمير، وشهدت ما خلفوه من آيات العمران وهى تتداعى ، ولحظت كسل الهولنديين واستكانهم للدعة وخفض العيش . وكذلك رأت قسوة الاستعباد من ناحية ، وفضل هؤلاء الأرقاء من ناحية أخرى ، وستعود الى الكتابة عن الرقيق في مصر باسهاب في بعض رسائلها .

أما النقطة الثانية التى نريد أن نقف عندها فهى لقاؤها بأرمنى فاضل اسمه « هككيان بك » وهو من أسرة كبيرة خدمت « محمد على » . ولعله ابن « يوسف هككيان » الذى كان عضوا في بعثة زراعية أيام « محمد على » . وينسب اليه البرتقال اليوسفى : يوسف أفندى . وكان « هككيان بك » عند مقدم « لوسى » الى الاسكندرية ناظرا لمدرسة الفنون والصنائع : تخرج في انجلترا ، ويبدو في أحاديثه مع « لوسى » أنه كان

يتعاطف تعاطفا تاما مع المصريين • عرفه بها « نلسو سينيور » أحد الاقتصاديين الذين استخدمهم ديلسبس سنة ١٨٥٥ لتحديد مسير السفن في قناة السويس • وكان « سينيور » قد كتب كتابا قيما عنوانه « محادثات ويوميات في مصر ومالطة » لم يتح له أن ينشر الا سنة ١٨٨٢ بعد وفاة مؤلفه • والذى يهمنا هنا أن محادثات « سينيور » مع « هككيان بك » كانت تبين عن عاطفة شريفة نحو مصر والمصريين •

وفى أحاديثها مع «هككيان» وتجوالها معه زارت «لوسى» الكثير من معالم القاهرة وعرفت الكثير من الأوضاع • فهو الذى عنى بصحتها عندما استقبلها في الاسكندرية ، وهو الذى زار معها المساجد عند قدومها الى القاهرة ، ثم بين هذا وذاك تحدث اليها عن الفجوة العميقة بين المصريين كعرب وبين حكامهم من المماليك والأتراك ، ثم هو الذى أفضى اليها بوصف البؤس الذى يعانيه الفلاحون ، وما ينتظر منهم من ثورة لا بد قادمة اذا ظل الحال على ذلك المنوال • كانت هذه الأحاديث شتى : ولعل بعضا منها تناوله بالافاضة «هككيان» فيما بعد استقرارها بالأقصر ، ولكن البدايات الأولى كانت قد غرست فى لقائهما الأول •

ثم كانت الأقصر أوقل « طيبة » ــ كما كانت تؤثر أن تسميها ــ مكانا « استراتيجيا » من الوجهة الاجتماعية والدينية

والسياسية فى تلك الأيام . فهى لم تكن الا قرية لا يزيد عدد سكانها على ألفين بين ذكر وأنثى ، لو انها تركت وحدها لكانت بيئة طيبة : يعطف فيها الكبير على الصغير ، والعالم على الجاهل، والغنى على الفقير . لقد كانت مجتمعا مثاليا راضيا الرضاء كله فى نهاية سنة ١٨٦٢ ، أى فى أواخر عهد « سعيد باشا » . وبهذا كانت جديرة بأن تتخذها « لوسى دف جوردون » مثالا للجماعة المحددة مثل ما يفعل أصحاب «الانثروبولوجيا» حينما يتعرضون لبحث الجمـــاعات . ثم كانت ملتقى لـكثير من الأوروبيين والأمريكيين : أكثرهم من السياح الذين ذهبوا اليها ليروا آثار الفراعنة ، ومنهم علماء فى الآثار مثل «شمبليون» و «ماريت» سكنوا بيت فرنسا نفسه . ومنهم أفاقون مثل « بلزيونى » جاءوا ليسرقوا هــذه الآثار ، ومنهم مبشرون جاءوا ليحولوا الأقبــاط عن مذهبهم الأورثوذكسي ، ومنهم كتــاب ومؤلفون ضربوا فى بعض نواحى الأرض ومنها مصر وبلاد النوبة . لذلك حاولت « لوسى » فى كل ما كتبته أن تبحث الأصول الاجتماعية الأولى لهذه القطعة من المجتمع المصرى ، ثم حاولت أن تنقد هؤلاء وهؤلاء وأولئك ، وتدل أهلها على مواطن الضعف فى العلاقات بين الثقافة الغربية والثقافة المصرية .

وفى هذه المحاولات كانت تدرك أن «هذه الجماعة الآمنة» فى هذه القرية الطيبة تتعرض لكثير من الحيف والجور ، وان

سلطة الحكومة هي التي تبدد هذا الشعور بالأمن . وعندها أنه لو ترك الناس وشأنهم ، واستقاموا على طريقة الشريعة ، وتعلموا بعد جهل ، وأمنوا بعد خوف ، لعادوا الى ثقافة أصيلة ورثوها عن آبائهم الأولين . أما الدين عندها فلم يكن الا أثرا من آثار المجتمع المصرى . وقد ذكرت التسامح فى الاسلام ، وبرهنت عليه ، وساقت عليه الشواهد أكثر من سبعين مرة . ولا شك أن هذا المجتمع الذى كان يضم الأقباط والمسلمين ، والظلم الذى لم يفرق بين أولئك وهؤلاء ، لا شك أن ذلك كان مما أنشأ هذا التسامح .

لكل ذلك قلنا ان الأقصر بموضعها كانت فى ذلك الحين تمثل مركزا « استراتيجيا » يطوع للباحث الاجتماعى أن يتم بحوثه على ما يرضى . وكانت « لوسى دف جوردون » هى الباحثة التى حاولت أن تتعمق البحث فى النواحى التى عددنا .. وقد توفيت وهى ترجو أن تكتب كتابا عن عقائد المصريين وشمائلهم . وكانت تأمل أن تلتقى ببعض علماء الأزهر فى القاهرة حتى يتم لها ذلك . ولكنها توفيت عن هذه الرسائل التى نريد أن نستخرج منها بعض ما كانت تصبو الى شرحه .

لقد حاولنا أن نتابع « لوسى دف جوردون » فى رسائلها واتخذنا الى ذلك منهجا أقرب الى الأدب : أدب القصة ، وان لم يخل من الدراسة التاريخية . وسنكتفى فى هذا الكتاب

بمنهج بين التاريخ والأدب تلم فيه بنقاط مما أخذناه من بحوثنا في رسائلها ، ومما استطعنا أن نجريه من موازنات بين ما ذكرت من ناحية وبين ما ذكره كتاب آخرون من الناحية الأخرى . اننا نعتبر أن السنوات السبع من سنة ١٨٦٢ الى سنة ١٨٦٩ وحدة زمنية في ذاتها ، ونعتبر أن الأقصر وما يحيط بها من قرى وبلاد وحدة مكانية ، ونعتبر أن الناحيتين الزمنية والمكانية تقع في وحدة واحدة نريد أن نقوم « بتلحيظها » وأن نعالج الموضوع من نواح شتى على أساسها :

١ ـ فماذا كانت الطبيعة في مصر وماذا كان عليه المصريون في نظر « لوسى جوردون » وكيف كانت الأوضاع الاجتماعية ومنها الدين أساسا لهذا المجتمع ؟

٢ ـ فالى أى حد يعتبر ما جاء في هذه الرسائل من وصف تصويرا صادقا للحالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في « مصر » جميعها ؟ وهل كانت « الأقصر » وما حولها عينة صحيحة لما يجرى في سائر أنحاء البلاد ؟ . أم هل فاتها الكثير مما كانت تنمو به الثقافة المصرية سياسيا وفكريا وعمرانيا ؟

٣ ـ وماذا كانت عليه سياسة الحكم في « القاهرة » وهل حفلت بهذا المجتمع الريفى ، وأمدته بما ييسر للناس معاشهم ؟ أم كانت حكومة « القاهرة » حربا على أهل الريف في استنزاف

اتـــاجهم واستثمار جهودهم لصـــالح فرد حاكم أو طبقة من الحكام ؟ .

٤ ــ ثم ما هى طبيعة المصرى اذا هو واجه الظلم والعسف ؟ هل يخضع أم يثور ؟ .

٥ ــ وماذا كان موقف الأوروبيين من الحالة فى « مصر » ؟ وكيف كان التقرب الى أوروبا ذا حدين : أحدهما يقيم التعمير الذى بدأه « اسماعيل » وثانيهما هو هذا الخراب الذى حل بالبلاد نتيجة لسياسة « اسماعيل » .

فاذا نحن استطعنا أن نلقى بعض الضوء على كل هذه الأمور الخمسة فى حديثنا عن حياة « لوسى دف جوردون » وتجاربها فى مصر بلغنا الغاية مما نرجو من عرض هذه الرسائل . ترجمنا أهمها وعلقنا على ما اخترناه منها ، ووصـــلناها بعضها ببعض حسب الحوادث البـــارزة فى تاريخ حياتها ، وتعقبنا الصلة بين حياتها وبين أحداث مصر نفسها . حتى نعـــرض على القارىء صورة حية لتاريخها الفكرى والعاطفى بل والجثمانى فيما سلم لنا من دراسة هذه الرسائل (١) .

---

(١) أنظر محاضرة عن قيمة الرسائل التاريخية التى القيت فى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية فبراير ١٩٧٥ نشرت فى دورية تصدر عن الجمعية . « الموسم الثقافى للجمعية ١٩٧٤ ــ ١٩٧٥ » .

١ - الأرض والناس

أحبت للوهلة الأولى العرب والثقافة العربية ، بما فيها من فن ، فهى تكتب عن « القاهرة » ولما يمض على وصولها اليها غير أيام • أنها قد انغمرت فى ألف ليلة وليلة الحقيقية ، وأن الحياة فى « القاهرة » ماهى الا حياة ذهبية بلغت الحد الأقصى من التسامى والشعر – بل الوجود فيها ليس الا خليطا من التعاطف والأدب الجم ، وجالت جولتها بين مساجد القاهرة فزارت ابن طولون ، وعمرو بن العاص ، والسلطان حسن ، وأعجبت بفن المعمار العربى كل الاعجاب ، فهى كانت تفضله على الفن القوطى • (خطاب الى الكسندر دف جوردون فى ١١/١١/٦٢) •

واستقر بها المقام فى « قصر طيبة » أى فى بيت فرنسا ، فكتبت الى زوجها تصف هذا المكان المتداعى فى أحسن الصور فتقول : « انه يزداد جمالا فى عينى يوما بعد يوم . اننى أسفة لأنك لست معى الآن حتى تنعم بما أنعم به . ان البيت متسع الأرجاء جدا ، وجدرانه سميكة ، اعتصم فيها من ريح هوجاء ما زالت تهب علينا . فهو دافىء من الداخل وفيه بعض النوافذ والأبواب المزججة . انه مسكن جميل تهفو اليه النفس . وهناك بومتان مضحكتان : كل منهما فى حجم قبضة يدى : تعيشان فى جدار تحت نافذتى .. تحسبهما قد ردت اليهما الروح فبعثتا من كتابة « هيروغليفية » .

(خطاب الى الكسندر فى ١٣/١/٦٤) .

ثم يدفعها حبها للطبيعة المصرية أن تتحدث عن المنظر الذى تراه من شرفة هذا المنزل فتقول : « كثير من الابل تنام فى الفناء الذى تطل عليه شرفة منزلى . وهى جميلة زكية الرائحة ، ولكنها تزوم وتتشاجر بالليل بطريقة تثير الاشمئزاز . بودى لو استطعت أن أرسم لك مزرعة مصرية : رجالها ونساءها وابلها ، ولكن الذى يعجز أى فنان عن رسمه انما هو ذلك اللون العنبرى الذى يجمع بين التوهج والنعومة . لا يبلغ ذلك على الاطلاق ما ينجلى فى شروق الشمس الماسى الذى تراه فى « كيب تاون » ، ولكنه

يساويه فى الجمال لولا أنه يمتاز عنه بأنه أكثر حرارة وأقل وهجا » (١٩٦٤/٣/٢٨) ٠

واختلطت بأهل القرية فدعاها بعض القوم الى مزرعته ، فاذا هى لا تفتأ تكتب تحت تأثير هذه العاطفة الرومانتيكية فتصف الأضواء والألوان ونور القمر ٠ فهى تكتب فى ذلك : « جلسنا فى جوسق مقام فى حديقة من الخضروات ، وشربنا لبنا طازجا جديدا ، والجوسق نظيف مصنوع من عراجين النخل ٠ وشهدنا القمر وهو يرتفع وراء الجبال فيغشى نوره كل شىء كأنما هو شمس أكثر نعومة ٠ وهنا ترى كل الألوان فى ضوء القمر : كأنما أنت فى رائعة النهار ٠٠ ان الليل هنا ليبدو كما لو كان نهارا رخوا مكبوتا موحشا ، يلفه السحر من كل نواحيه حتى كأنك فى حلم من الأحلام » ٠

(رسالة الى الكسندر فى ٦٤/٣/٢٨ ص ١٤٩) ٠

وفى آخر أبريل سنة ١٨٦٤ ترحل الى أسوان مصعدة فى نهر النيل تريد أن تشهد معبد فيله ٠ ولكنها تشعر بحرارة الجو القاسية فتصف ذلك وتقول : « صمت الظهيرة ، والحرارة البيضاء حين يمس وهجها سطح النيل ، والنيل ينساب ماؤه وئيدا كما لو كان قصديرا مذابا ، انه صمت التفت به القوارب النوبية

الخشبية ، وهى تطفو منثالة من غير أن تخفق على جوانبها موجة واحدة : كان كل ذلك منظرا يبعث الرهبة فى النفس • ليس هناك من ريح ونحن رقود فى كنف هذا الشاطىء الشامخ ، وليس النيل منخفضا كعهدى به ، فهو يختلف بعض الشىء عما كان عليه السنة الماضية » (ص ١٦١) •

وتصل الى أسوان وتبلغ معبد فيله فتصف ليلة قضتها نائمة على سطح هذا المعبد : « كانت الغرفة شديدة الحرارة فلم أستطع النوم فيها ، والتفعت بعباءة وذهبت لأرقد على أحد أبراج المعبد يا لها من ليلة ! وياله من منظر جميل ! • كانت النجوم تشع من الضوء بمقدار ما يشعه القمر فى أوروبا ، وكل شىء حـــول المعبد كان صامتا كالموت ؟ يكاد يتوهج من الحـــرارة ، وبدت النخيل أكثر رشاقة ، وأبعث الى الأحلام عما كانت من قبل •• »

« وأسفر الصبح عن لون قرمزى داكن • ونزلت الى النيل فغصت فيه ، ورأيت الفتيات على الشاطىء المقابل وهن فى ازياء الصيف : وقد ضربن حول أردافهن الدقيقة بأحزمة من الجلد رشيقة الى درجة القداسة • وكن يحملن على رءوسهن الصغيرة السامقة سلالا على شكل الأطباق ملأى بالأذرة ، ودلفت الى بهو الأعمدة ، فجلست عند نهايته وصعدت النظر نحـــو اثيوبيا ، وراودتنى أحلام رأيت فيها ذلك الذى لا ينام فى فيله ــ أى

أوزيريس • وغفوت قليلا ، ولم أصح الا حين قبلنى آمون رع على وجنتى اليسرى » • (ص ١٦٥) •

وكذلك ترى أنها وجـــدت الجمال فى كل المشاهد التى طالعتها وأنها أحبت هذه الأرض • وهنا يذكر النفسيون الولاء دائما الذى ينضج بين الأرض وساكنيها : حتى ولو ولد هؤلاء أغرابا عنها • هذا الحب الذى ربا ونما بين «لوسى دف جوردون» وبين أرض مصر : هوائها وقمرها وشمسها ومائها وزرعها • فهذه تألفتها هذه النفس التى أقبلت على مصر والمصريين بعد تجوالها فى بعض مطـارح الأرض •

★ ★ ★

وناحية أخرى نريد أن نلم بها فى هذا القسم من حديثنـا أى فى علاقتها مع الأرض والناس • ذلك أنها رأت فى مصـر صنفا آخر من الناس لم يكن لها بهم عهد • لقد جاء فيما قرأته من « هيرودوتس » أنه زار مصر من أغسطس الى آخر سبتمبر سنة ٤٥٠ ق•م• وجاء فى الجزء الثانى من تاريخه : كما أن المناخ فى مصر يختلف عن المناخ فى كل البلاد الأخرى ، وكما أن النيل يختلف عن سائر الأنهار ، فكذلك كانت عادات المصريين وقوانينهم على عكس ما عليه الآخرون من معظم النواحى » • وكانت تنتظر حتى قبل قدومها الى القـاهرة ، أن ترى مجتمعا يختلف عن

المجتمعات التى مارست المعيشة فيها . ثم لما قدمت الى الأقصر أقبلت على قوم رحبوا بها ، وأنزلوها منزلة التكريم بل التقديس ذلك أنها كانت عطوفة عليهم ، تبش فى وجوههم فسموها « البشوشة » ، وتشترك فيما يأخذون به من احتفالات بموالد أولياء الله فسموها « الشيخة » ، وواست المرضى وقامت على علاجهم فسموها « نور على نور » . وهذا التعاطف بينها وبين الناس هو الذى نقم منه بعض مواطنيها . وهى لا تخفى ذلك فتقول : « ان (أيس) على حق اذ تقول اننى وقعت فى غرام عادات العرب ، وقد استطعت أن أرى وأعرف الكثير عن حياتهم العائلية ــ أكثر مما يعلمه بعض الأوروبيين الذين عاشوا هنا بضع سنين » (ص ٧٨) . ثم تقول فى رسالة أخرى وهى تدافع عن العرب أمام الأوروبيين : « اننى أتعاطف مع العرب وهممتعاطفون معى ، وأميل الى أن أرى فضائلهم تسامحا منى وكرما ، بل اننى عمياء عن سيئاتهم مع أنها قد تبدو واضحة كل الوضوح لأقل المسافرين حظا من الخبرة » .

(ص ١٧٢) .

وقد رأت بعد أن عاشت معهم ردحا غير طويل من الزمن أن الصدق والشرف عند الناس حولها : من خلقهم الأصيل وأن اتجاهاتهم نحو الحياة هى الاتجاهات الخالصة ، وأنها تختلف اختلافا بينا عما يسميه الأوربيون « صدقا وشرفا » فهى تمضى

فى رسالتها السابقة فتكتب : « ان كل الذى تتلوه عليهم من حيث الشرف والصدق ، الى غير ذلك مما يتشدق به المتشدقون كما يتشدق به صبيان المدارس ، انما يقع فى أسماعهم كما يقع الكلام المكرر المملول ، فهم يضيقون به ذرعا . وقد يخدع مثل هذا الهراء الكاذب الباشوات والبكوات فيأخذون به .. »

والآن فلنلق بنظرة فاحصة على نماذج من المصريين من عرب ونوبيين ومن بعض الذين انحدروا من سلالات تركية أو شركسية ، بودنا لولا ضيق المقام ، أن نعالج أولئك وهؤلاء جميعا كما يعالج نقدة المسرح الشخوص المسرحية ، ذلك أننا نعتقد أن « لوسى دف جوردون » كانت « تشخص » الأفراد الذين تتصل بهم أو يتصلون بها . كان كل فرد منهم له ذاتية خاصة به ، وهى فى ذلك تخالف ما درج عليه بعض الكتاب العابرين من اعتبار كل المصريين طائفة واحدة ، فجاءت صور الأشخاص الذين صوروهم كما تبدو « خيالات الظل » أو كما تبدو الأشباح الهلامية لا ذاتية لها ولا شخصية . أما هؤلاء الذين صورتهم «لوسى» فى رسائلها فهم قوم يحسون ويشعرون ويفكرون . كان كل المصريين عند رحالة القرن الثامن عشر فقراء ومرضى ومتعصبين ، ولم يكن لأى واحد من التراجمة الذين عاشروهم شخصية بذاتها ــ حتى مصر نفسها لم يكن لها هذه الشخصية العامة فذابت شخصية مصر والمصريين فى كتاباتهم .

وأول من نريد أن ننقل اليك صورته شخص اسمه « عمر أبو حلاوة » • وتقدمه لنا « لوسى دف جوردون » مثالا لابن الوجه البحرى • فقد ولد فى « المحلة » وكان أبوه يتقن طهو الحلوى ولذلك سمى « أبو الحلاوة » وقد خدم عمر فى الجيش أيام «سعيد باشا» واشتغل ترجمانا فى الاسكندرية • وحينما التحق بخدمة « لوسى » صاحبها السنوات السبع ، يقوم بخدمتها وتمريضها ، ويدبر لها أسباب الراحة من كل ناحية • وكان وفيا لها يقضى الليل ساهرا حتى يناولها الدواء ، ثم يتحدث اليها عن كل ما يعتمل فى نفس طبقته من المصريين : من حيث الخزعبلات والخرافات التى علقت بأخيلتهم ، ومن حيث العادات والشمائل التى عاش عليها العامة ، ومن حيث التمسك بالشهامة التى تتصل بمعاملة النساء • ثم لقد اغتفرت له سقطة من سقطاته حين تبين لها أنه صاحب خادمتها الانجليزية ، وأنجبت هذه منه ولدا اعترف به ••

وكان لشخصية أخرى أثر كبير فى تفكير « لوسى » : تلك هى شخصية الشيخ يوسف أبى الحجاج • ونعلم من حديثها عنه وعن ذكرها له المتكرر ــ وبخاصة فى السنوات الأربع الأولى من مقامها ــ أنه كان من أسرة أبي الحجاج الذى أقيم ضريحه على قمة معبد الأقصر ، ويبدو أن الشيخ يوسف كان دارسا من مجاورى الأزهر ، وأنه قدم بعد دراسته ليعمل فى مسقط رأسه ،

كاتبا للقنصلية الانجليزية ، وفقيها يشاوره القوم فى أمور الشرع والدين ، ومعلما للقرآن الكريم • ولكنه وراء كل ذلك كان عالما متفتحا تأثر تأثرا شديدا بالشيخ الباجورى • ولعـــل الشيخ الباجورى بما نقل عنه ، وما أثر عن آرائه أن يكون رائدا مجتهدا فى تفسير القرآن الكريم والسنة الشريفة • اجتهد فى بعض النواحى القليلة وتأثر به جلة من العلماء • والتقت « لوسى » بالشيخ يوسف، فاستقت عنه كل العقائد والآراء التى سلمت له من دراساته فكان له رأى فى الفرق بين التوكل والتواكل ، وفى التسامح الدينى، وفى أصول المعاملات الشرعية• وكان كل ذلك مما اتجه بها الى التفكير الأصيل فى العقائد الاسلامية وفى أصول الاسلام من حيث العبادات والمعاملات •

ولم يمض شهر على وصولها الى الأقصر حتى كتبت عنــه لزوجها : « أنه رجل لم يبلغ بعد الثلاثين يحفظ القرآن الكريم، وأظن أنه أحلى مخلوق رأيته سواء من حيث الهيئة أو الأدب ــ انه بلغ الذروة من حيث الرقة والبساطة ، وفى مشيته رشـاقة الغزال » • وتقول لوالدتها فى رسالة أخرى « ان زوجته قـــد توفيت منذ ستة أشهر ، وقد تزوج بأخرى وله فتاة • وهو لايقرأ ألف ليلة وليلة ولا يحترم ما جاء فيه ويعتبره لغوا من القصص ، وهو كغيره من العلماء يعرف ما فى التوراة والانجيل ، ويعتبــر

أن الخلق جميعا لا فرق بين صاحب مذهب وصاحب مذهب آخر ولا بين دين ودين .

(١٢٩ - ١٣٠ - ١٣١) .

وتقول لوالدتها عنه فى رسالة أخرى : « بودى لو ترين بعينيك معلمى الشيخ يوسف . لم أر فى حياتى شخصا طيبا محبوبا مثله، وهو الى جانب ذلك حسن المنظر، أما ضحكاته فهى من أحلى الضحكات وأكثرها مرحا . انه من العجب أن ترى فى هذا الرجل خليطا من العلم ببعض الأشياء والجهل المطبق بأشياء أخرى ، وقدرا عظيما من الخزعبلات الى جانب علو التربية وجمال الخلق .. لقد عرضت عليه أربعة جنيهات لقاء تعليمه اياى ثلاثة شهور بغير انقطاع وحاولت محاولة عنيفة أن أرغمه على قبولها » (ص ١٥٤) .

★★★

ثم شخصية أخرى تبدع « لوسى دف جوردون » فى وصفها : تلك هى شخصية شيخ البلد . ويكون شيخ البلد هنا وجيها من وجهاء القوم اسمه « مصطفى آغا » ويدلك على وجاهته ما تحكيه عنه « لوسى » من الاسراف فى الكرم ، فهو يمد الموائد لعلية القوم ، وهو موضع احترام الجميع ، ثم هو فى منزله يولم الولائم للقرويين جميعا ويجتمع عليها الآلاتية

والراقصات وأهل الأذكار • ثم انه لا يعرف فى تصرفاته شيئا عن الادخار من أجل المستقبل ، فهو يصرف ما فى يده ابتغاء الوجاهة التى طبع عليها ، ويقع فى أزمات يضطر فيها أن يكون شحيحا على نفسه • والى جانب كل ذلك فهو قنصل انجلترا فى الأقصر • يقابل القادمين والرائحين من الانجليز ، ويمهد لهم أسباب الراحة فى حلهم وترحالهم • وهو لا يفيد من ذلك كله الا حسن الذكر ، اذ أنه لا يتقاضى على جهوده تلك الا هدايا قليلة قد يمنحها أياه بعضهم ، وهذه الصورة فى نظر « لوسى دف جوردون» هى صورة شيخ البلد الذى يسيطر على الناس بوجاهته وجاهه وبسطة يده •

ثم صورت شخصية أخرى هى شخصية عبد الرحمن أخى مصطفى آغا ، فتذكر كيف دعاها أحد الفلاحين من أتباع مصطفى أغا الى منزله فى مأدبة ذكر فيها اسم الله ، وقرىء القرآن الكريم وحينما فرغت من كل ذلك رجعت الى الصور التى علقت بذهنها من قراءة التوراة والانجيل • فوصفت رحلتها الى قرية مصطفى أغا كأنما هى صفحة من التوراة ، وتقول فى وصف عبد الرحمن « سار معنا عبد الرحمن أخو مصطفى ، وهو رجل تبدو عليه مظاهر النبل : طويل القامة ، معتدل ، وقور ونشيط ، أشيب الشعر ، قاسى ملامح الوجه ، وله عينان صغيرتان يشع منهما بريق ، وكان قويا فى مشيته يزدرى كل وسائل النقل الا على

قدميه » • ثم تضيف الى ذلك أنها قد تخيلت ماجاء فى الانجيل وعندها أنه لا يشبه الفلاح المصرى الغنى الا شخصيات مستخرجة من التوراة والانجيل • (ص ١٢٩) •

★ ★ ★

ثم ماذا كانت الصورة الذاتية التى صورتها للمتعلم المصرى •• نحن نقع على وصف لها للمتعلم المصرى فى شخص الدكتور عثمان ابراهيم ، ويتبين لنا أن الدكتور عثمان أحد أفراد البعثة الطبية الأخيرة التى أرسلها « محمد على » الى فرنسا • وقد زارها فى « بيت فرنسا » فقالت عنه فى رسالة كتبتها الى ابنتها « جانيت » فى ٥ ديسمبر سنة ١٨٦٦ : « الدكتور عثمان محاضر فى مدرسة الطب بالقاهرة ، وهو شريف ـ أى من نسل النبى ـ ومهذب يتحلى بأسمى مكارم الأخلاق • ولقد جاء فى باخرة من بواخر الركاب ، وزارنى وقضى معى كل أوقات فراغه ـ كان قد ألم بما سار به الناس من ذكرى ، فدهش لذلك ، وسر به سرورا عظيما • قال لى بالفرنسية : « لك الله يا مدام ! انهم يحبونك كما لو كنت أختا لهم ، ويخدمونك كما لو كنت ملكة عليهم • انه يملأ قلوب الشرفاء سرورا أن يروا كيف ينسى التحامل هكذا وتزول البغضاء • وكان بيننا حديث طويل لا يكاد ينتهى • وعثمان هو العربى الوحيد ممن أعرفهم الذى قرأ كثيرا فى الأدب والتاريخ الأوروبيين » •

وتمضى فى رسالتها تلك فتقول عن الدكتور عثمان : « انه ككل عربى أحسنت تربيته يفيض رقة وأدبا ، وانه مستفيض عذب الحديث يميل الى الخيال ، وتشبهه بدون كيخوته الذى صوره « سرفا نتيز » : « ولكنه دون كيخوته من غير أن يفسده الاحساس الخادع أو العقل الشارد • فهو كالفارس الأسبانى لولا أنه فى تمام عقله وكامل حواسه » • وذلك عندها ــ فيما يبدو ــ صورة للمتعلم المصرى • وهذه الصورة نفسها هى التى لم يقدرها الأوروبيون ــ وما كان ينبغى لهم أن يقدروها ماداموا عاشوا فى مصر وساحوا فيها وهم فى معزل عن المصريين المتعلمين• وما دامت قد شبهت الدكتور عثمان فى هذه الصورة فقد شبهت أولئك الأوروبيين بمن كان يستهزىء بالفارس الأسبانى من الأوغاد • فأولئك وهؤلاء لم يكونوا يدركون الأمثلة العليا التى تخيلها دون كيخوته ولا تلك التى كان يسهب فى بيانها الدكتور عثمان ابراهيم •

وتلك عندها نقطة الخلاف بين عقلية العرب وعقلية أهل الغرب • (ص ٢٩٣) •

* * *

لو أننا استرسلنا فى ايراد الصور التى صورتها « لوسى دف جوردون» للشخصيات المصرية لضاق بنا المقام• لكنها وصفت

قاضي القرية ، والمشرف على الأمن فيها ــ سليم أفندى ، وعــلى أفندى الحكيم ــ أى طبيب قنا ، والشيخ عبـــد الوارث امام الجامع ، وواصف القبطى ، ولكنها لا تكتفى بوصف هــؤلاء لأن هؤلاء كانوا يطفون على سطح المجتمع • انما غاصت هى الى قاع المجتمع نفسه فوصفت الفـــلاحين الذين يزرعون الأرض • ويبذرون القمح ، والبحارة الذين يسيرون القوارب وغلمـــان النوبيين الذين يسبحون فى النيل كأسماك البحر ، والجهد الذى يبذله المصرى العادى فى جميع مواقفه ــ وكــان ذلك جميعه هو أساس التعاطف بينها وبين مجموعة المصريين الذين تسـميهم عربا فى بعض أحيان ، لكنها لم تدرك أنهم يكونون شعبا واحدا أو قومية واحدة لأن ذلك كان بعيدا عنها •

ودخلت هى فى العلاقات الدقيقة التى تؤلف هذا المجتمع فوجدت أن هناك عرفا يحكمهم ، وأوضاعا اطمأنوا اليها • ويبدو أنها أدركت أن الذى يربط الجميع هو ما يسميه أهل الاجتماع: العلاقات « الاجتماعية الأسرية » • أو ما نسـميه نحن بعض أحيان « الرباط الأسرى » ، وكان من الملحوظ أنه اذا اتبعت هذه الأوضاع الاسرية ، واذا غفلت الحكومة عنها ، فان الأمور تجرى الى مستقرها • وأدركت أنه بالعلم والوفرة وتمام الصـــحة يمكن أن يدرك هؤلاء البشر أقصى ما يمكن ادراكه من البشر • وكان يزعجها أن سياسة الحكم لم تكن تعاملهم كبشر ؛ فان الظلم

والعسف وازدراءهم من جانب الحـــكام الأتــراك ومن جانب الأوروبيين كان يقضى على أوضاعهم الأصيلة الأولى ولا يستبدلها بما هو أفضل منها .

٢ - الدين فى حياة المجتمع المصرى

«ما من شىء يدهشنى أكثر من أن أتذكر «هيرودوتس» على الدوام . ان المسيحية والاسلام فى هذا البلد يمتلئان بالعبادة القديمة . أما الحيوانات المقدسة فقد أصبحت خداما لأوليـــاء الله . فأحد هؤلاء الأولياء يسيطر على التماسيح فى المنيا ، وقد رأيت بعينى رأسى على جبل الشيخ هريدى الحجر الذى يأوى اليه ثعبان « اسكيولايتس » ، وكما فعل « هيرودوتس » أطعمت بيدى جوارح الطير التى كانت تمزق جوانب القوارب التى تمتنع عن اطعامها ، ولم تزل الى اليوم تأتى زرافات على سطح القارب، ولا يستطيع ريس أن يمنع عنها الطعام . ولا تزال قطط بوبسطة تجد طعامها مما تبذل لها الحكومة فى حوش بيت القاضى بالقاهرة

وهى تتحلى بكثير من الأدب والوقار حين يقوم خادمها باطعامها »

« وليس مار جرجس فى الواقع الا آمون رع : اله الشمس وقاتل الثعبان ، ولا يزال موضع التقديس عند الجميع ، أما السيد البدوى فمن المؤكد أنه صورة أخرى لأوزوريس • وفى أعياده التى يقيمونها مرتين كل سنة فى طنطا ، يتجلى أنه الخلاق الأعظم الذى خلق كل شىء • فكل شىء هنا على هذا المثال • فالنساء عند موتهن لا يبدين الا كالتماثيل المنحوتة على الآثار القديمة وهن يقدمن قربانا للنيل • والنساء المصريات الى اليوم يطفن بالتماثيل القديمة حتى ينجبن أطفالا وليست حفلات الموالد ولا الجنازات من الاسلام فى شىء بل هى مصرية قديمة • فكل هذه الاحتفالات وثنية قد تشمئز منها نفس هندى مسلم ، كما يشمئز عربى اذا رأى مسلما هنديا يمتنع عن تناول الطعام مع مسيحى • ويبدو تاريخ مصر كما تكون الرقعة التى نقشت عليها كتابات قديمة محيث الواحدة بعد الأخرى واختلطت آثارها بعضها فوق بعض ، فقد كتب الانجيل فوق هيرودوتس ، وكتب القرآن فوقهما ، وترى القرآن واضحا فى المدينة ، ولكنك لاترى فى الريف الا هيرودوتس » (ص ٦٥) •

ذلك ما كتبت فى فبراير سنة ١٨٦٣ فى الشهور الأولى من اقامتها بمصر • وقد كان لها من التجارب بعد ذلك ما حقق فى نفسها هذا العرض • كانت — على حد قولها — لا ترى فى

الدين الا أساسا تاريخيا : ثم هى كانت تتغاضى عن النقائض التى تراها فى الاحتفالات الدينية لأنها عادات وأوضاع موروثة •
ولعل أول تجربة مرت بها مما تشمئز لها النفس كانت تجابهها فى «البلينا» حين شاهدت طرفا من التدليس الدينى اغتفرته لصاحبها واغتفرت للمؤمنين بها ايمانهم السقيم •

كان ذلك فى مارس سنة ١٨٦٣ ، وكانت فى طـــريقها الى الأقصر ، وكانت قد جاوزت سفينتها « البلينا » حين دعاها عمر الى الوقوف ساعة لزيارة أحد أولياء الله • وحينما ذهبت مع عمر لزيارة هذا الشيخ هالها أنه رجل بشع الهيئة عار كما ولدته أمه ، وله جلد كجلد الكركدن : يظل شاخصا ببصره ليل نهار، ويحج اليه الغادون والرائحون يقدمون له الهدايا ، ودهشـــت اذ رأت العاملين على المركب مع فريق تعداده ثلاثون ، يتحلقون حوله ويسألونه البركة • أما هو فلم يتحول عن النظر اليهـــا • وقد اشمأزت اشمئزازا تاما بهذا المنظر النكر • وقيل لها أنـــه لا يؤدى الصلاة ولا يصوم ولا يقوم بما فرض الله من عبارات، وانه يعلم الغيب وما تخفى الصدور • بل لقد أكد لها عمـــر أن الشيخ يستطيع أن يكون فى مكانين فى آن واحد ، وأنه قـــد يطوف بمكة وبغداد ومراكش فى ساعة أو بعض ساعة • وأنـــه قد ثبت عند أهل الذكر أنه يفعل ذلك • ولم تكن تلك التجـــربة

الا مجموعة أخرى من الخزعبلات والخرافات التى ملأت أوهام العامة . لكنها كما أسلفنا اغتفرتها لهم (ص ٧٠) .

ولكن أين يقع الشيخ يوسف أبو الحجاج من كل ذلك ؟. يبدو لنا أن هذا الشيخ الفاضل كان يتحلى بكثير من الحكمة والتفكير السليم . فقد ذكرت أمامه أن الأطفال المسيحيين يجب أن يعمدوا حتى لا يذهبوا الى الجحيم اذا جاءهم الموت . فقال مندهشا « ان الأطفال حين يموتون يذهبون الى جواره ، فهو الذى خلقهم واليه مرجعهم » ثم يزيد اعجابها بالشيخ يوسف : أو قل الحكمة التى تتلقاها عنه ، وتفكر فى أفواج المبشرين الذين نزلوا أسيوط بقصد تنصير المسلمين ، أو تحويل الأقباط من الأورثوذكسية فتنتهى الى أن المحاولة الأولى فاشلة ، وأما المحاولة الثانية فانها قد تجدى .

« وانما أقول — كما يقول الذين لا يؤمنون بالمسيحية — ان محاولة تحويل المسلمين عن دينهم محاولة سخيفة ، بل وقد أضيف الى ذلك أنها محاولة خاطئة . انما يراد هنا أن تنشر المعرفة فى عمومها ، وأن تتقدم التربية ، وسوف يتفتح الدين بعد ذلك .. وينمو بنفسه . فعناصره الأولى هى نفس عناصر المسيحية : تعوقه نفس الصعاب التى كانت تعوقها : وهى العزوف عن الدنيا والتعصب. ولكن العقيدة من وجهها الآخر عقيدة بسيطة وليس يسيطر عليها رجال الدين كما يفعل القسيسون عندنا ،

وهذا مما يميز هذا الدين على وجه اليقين • وفى نظرى أن هذه العقيدة قد ظلت تقوم على العقل بدرجة عملية ، اذا ذكرنا أن الذين يعتنقونها لايزالون فى جهالة عمياء » (ص ١٣٣) •

ونرجع ثانية الى ما قدمنا به حديثنا عن « لوسى دف جرودون » حين قلنا انها كانت تتمتع بخيال يستطيع أن يجمع بين العقائد جميعا ، وأن يسوى بينها ، وأن تعبر عن ذلك فى انفعالاتها • فهى تنساق وراء خيالها فتتحدث عن العنصرالهومرى فى العقيدة الاسلامية التى كان يعبر عنها المسلمون من حولها• فبهذا الخيال كانت تشترك فى موالد أبى الحجاج ، وكانت تعجب بالأذكار ، وكانت تستمع الى الأناشيد ، وكانت تصاحب المتصوفين ، وكانت تناقش بعض الذين قابلتهم من العابرين من مسلمى الهند والمغرب • وعلى الرغم من أنه لم يتح لها مناقشة العلماء المصريين فانها قد تأثرت ــ كما قلنا ــ تأثرا شديدابالشيخ يوسف أبى الحجاج •

هذا الخيال هو الذىأتاح لها أنتكتب مايلى : «فى الدين هنا عنصر هومرى هام • فالنبى بطل مثل أكليز ، وهو يحارب ويصلى ويعلم ويتخذ نساء : فهو فى الواقع بشر ، وليس معنى مجردا •• « وباختصار فقد خلف محمد فى الدين الطابع الرومانتيكى أو قل ان ذلك طبيعى فى دم هؤلاء الناس • وعلى الرغم من أن القرآن يستند على الفهم الصحيح اذا قورن

بالتوراة ، فقد كنت أحسب أن العرب بلداء الفهم الى حد بعيد حتى استطعت أن أفهم شيئا من لغتهم ، والآن فانني أستطيع أن أتأثر أصل دون كيخوته فأراه سليلا من سلالة شيخ من شيوخ العـــرب » •

★ ★ ★

وكانت «لوسي» تعطف على المرضى وتعد لهم الدواء، كان في خزانتها شيء من المواد التي كان يعرفها الطب حينذاك من زيت السمك والروباب ، وكانت تنصح المرضى بالنظافةوالراحة• واشتهرت بين القوم بأن على يديها الشفاء • فقدس العـــامة اسمها : حتى اذا جـــاء طبيب الحكومة ليعالجهم أخفوا عنـــه أمراضهم لأنهم لم يكونوا يثقون بالحكومة ولا بحكمائها : حتى على أفندى طبيب الحكومة عرف ذلك ، فتعـــرف بها وبادلها الحديث في الطب وفي غير ذلك من الأمور• ثم كان بيتها مفتوحا للجميع يؤمه الفقراء والمساكين ، ويغشاه أبناء السبيل والاماء والعبيد • حتى الراقصات كن يجدن فيه الراحة وحسن اللقاء •

ويتحدث اليها الشيخ عبد الوارث فقيه القرية وصــاحبها الشيخ يوسف أبو الحجاج فيعبران عن اعجابهما بها ــ وتقول هي في ذلك : « يعتبر الشيخ عبد الوارث ، والشيخ يوسف أن احساني الى الناس في بلوائهم يدل على أنني اهتديت ، وأنني من النصارى الذين نقل عن سيدنا محمد سلام الله عليه أنهم

يتحلون بالتواضع ، وأنهم لا يتنافسون الا فى صالح الأعمال ، وأن الله سيضاعف لهم الجزاء. وليس هذا تفكيرا رجعيا يريدون به أن أتحول عن دينى ، ولكن المسلمين يعتقدون أن الحسنات يذهبن السيئات » (ص ١٥٩) .

ونمر ببعض تجارب بعد ذلك تؤيد نظراتها الى أصول الاسلام . وتبرز أمامها فى يوم من الأيام قضية تواكل المسلمين. فيكون حوار بين الشيخ يوسف من ناحية وبين سليمان الجناينى وكان قبطيا . فهى كانت تنصح سليمان أن يطعم ابنه ضد مرض الجدرى فقال لها ان المرض « من الله » ، أى أنه لا جدوى من التطعيم ما دام ذلك من أمر الله . فسمع بذلك الشيخ يوسف فنهر الرجل قائلا : « لم يأمر الله بأن يكف العبد عن العمل . فهب أنك أردت أن تبنى بيتا، أفتعد الأخشاب والحجارة فى كومة ثم تعتمد على المقادير التى تبنى لك البيت ؟ أم يجب عليك أن تشغل عقلك ويديك التى وهبها لك الله ثم تسأله البركة ؟ » . وقد كان هذا درسا فهمته «لوسى» نور على نور ــ وعرفت بعد ذلك الفرق بين التوكل والتواكل . وتكرر نفس هذا الموقف حين رفضت خادم لها أن تطعم وتكرر موقف الشيخ يوسف من هذه القضية . (ص ١٧١) .

وأثر فى اتجاهها نحو الاسلام أيضا ، أن الناس فى الأقصر كانوا يذكرون بالخير الشيخ « ستانلى » . ولم يكن الشيخ

« ستانلى » فى الواقع الا قسيسا من رجال الدين ، كان يعمل أستاذا لتاريخ التربية فى جامعة اكسفورد ، وكان فى نفس الوقت عميدا لدير وستمنستر اختارته الملكة « فكتوريا » ليصحب ابنها ولى العهد فى رحلته الى صعيد مصر فى سنة ١٨٦٢ • ولم يكن يذكره القوم الا بأنه الشيخ « أرثر ستانلى » الذى كان حكيما متزنا أصيلا فى تصرفاته ، فلم يكونوا يفرقون بينه وبين أى شيخ مسلم من علماء الأزهر لولا أنه كان يتحدث بالانجليزية •

وهكذا نرى أن تجاربها الشخصية قد نمت فأنبتت عندها عقيدتها الأولى من حيث التسامح الدينى ، وكانت ترى أنه « لا يختلف المسلمون والأقباط فى معتقداتهم الا فى قليل من المذاهب ، ولكن الخلاف الحقيقى هو بين أهل الشرق وأهل الغرب» ثم تقول بعد ذلك : «أستطيع أن أكتب مجلدات عن أوجه هذا الخلاف ، فأيهما أسوأ وأيهما أفضل ؟ أظن أنه لا أولئك ولا هؤلاء • لكننى لا أستطيع أن أقف على الحياد فى ذلك • فأنا أميل الى الشرقيين كل الميل » (ص ١٧١) •

ثم تكتب فى رسالة أخرى : « لا يمكن أن يقوم تفاهم بين الشرقيين وبين المسيحيين الغربيين الا اذا تعرفنا على الايمان المشترك بين الجانبين • ان الخلاف الوحيد لا يوجد الا فى الخواطر والمشاعر ــ وهذه ولا شك ذات خطر كبير • وانما

انحدرت الينا نحن من اليونان والرومان ، ولا وجود لهذه الآثار النفسية هنا على الاطلاق » (ص ١٧٣) .

★★★

وتجربة أخرى كانت أشد وقعا عليها لا من ناحية الآثار الشخصية فقط بل من حيث مستقبل العرب والمسلمين . ففى رسالة منها فى ١٣ أغسطس سنة ١٨٦٤ تتحدث عن أنها التقت بعالم عربى يرتدى ملابس العلماء المسلمين لكنه يتحدث بالفرنسية بطلاقة . ويباديها بقوله : « سيدتى ! ان كل الذى قيل عنك يمتلىء مديحا بقلبك الكبير وروحك الطاهرة حتى أننى أعد نفسى سعيدا بمعرفتك » . وأفضى اليها أنها لا بد أن تكون فى موقف حرج بين هؤلاء العرب لأنهم « متوحشون » متعصبون الى أبعد حد ، ويرجوها أن تغتفر لهم ذلك : ولكنها أجابته « ان أهل الأقصر هم اخوتى » . ونقل هذا الحديث الى بعض أهل الحى فقال له عمدتهم : «أنت على حق اذ تقول ان الفلاحين قد يكونون كالثيران ، لكنهم ليسوا بالخنازير حتى يهينوا دين سيدة مثل هذه خدمت الله فيهم . لقد مر كل يوم عليها وهى تعرض روحها للخطر » . وأضاف رجل الدين العظيم: «لو أنها توفيت لاتخذت مقعدها بين شهداء الله ، فقد أظهرت كيف يكون الجود بالنفس فى سبيل الآخرين » .

وطفقت تقول فى رسالتها : « والآن فاذا كان هذا لغوا فقد

قيل باللغة العربية أمام ثمانية أو عشرة من الرجال ــ وكان قائل هذا رجلا يعتبر حجة فى أمور الدين » (ص ١٨٢) •

وكان العالم المغربى ذا ثقافة فرنسية خاصة ، وكانت هى نفسها قد سمعت عن الأمير عبد القادر الذى قام بالجهاد فى سبيل الجزائر وكتب كتابا فلسفيا عالج فيه نهضة المسلمين ترجمه الى الفرنسية وطبع سنة ١٨٥٨ • وعلى الرغم من أنها لم تقرأ هذا الكتاب الا بعد لقائها مع الامام المغربى الا أن أفكاره ــ وكانت مختلطة بثقافته الفرنسية ــ كانت توطئة لعقيدتها فى وحدة الفكر الاسلامى ، ونهضة المسلمين • وتسترسل فى نفس الرسالة التى اقتبسنا منها ما أسلفنا فتقول : « اننى أعتقد أن تغيرا عظيما يحدث الآن بين العلماء • فالاسلام لن يكون مجرد لواء يلم حوله جميع الأحزاب ، بل سيكون كما حدث للمسيحية، وسوف ينال الجانب الخلقى القسط الأكبر من التوكيد يوما بعد يوم • وقال لى ذلك العالم العظيم أيضا اننى أنا قد مارست العمل بالمبادىء التى جاء بها القرآن ، ثم ضحك قائلا « أظن أنه كان الأولى أن أقول التى جاء بها الانجيل • ولكن ماذا يهم فى ذلك ؟! ان الحق واحد سواء نطق به سيدنا عيسى أو سيدنا محمد » (ص ١٨٢) •

ثم لعل الذى أثر فيها أثرا معنويا دقيقا ، كان معاملة أهل القرية للأوروبيين القلائل الذين كانوا يعيشون بينهم • وفى يناير

سنة ١٨٦٥ تعرض صورتين لجنازتين : أما الجنازة الأولى فكانت لترجمان اسمه « الرشيدى » قام فيها اخوانه بما يجب عليهم نحو رجل مصرى غريب عنهم ـ من حيث تلاوة القرآن الكريم ، والصلاة عليه بما نعرفه نحن من عاداتنا فى مثل هذه الجنازات ، وأما الجنازة الثانية فتلك كانت موضـعا للتعقيب ، وللاشادة بعطف المصريين واحساسهم الوافر ، فقد وصفتها فى رسالة لها فى ٢ يناير سنة ١٨٦٥ فيما يلى :

« مرض رجل انجليزى صغير السن وتوفى ودفن فى أول رمضان حيث يدفن الأجانب ، فى مكان كان أصله موقعا لكنيسة قبطية قديمة • وصلى عليه الأرتشديكون مور • وقد لففنا ـ عمر وأنا ـ نعشه فى علمى القديم • وتعاون المسلمون والأقباط فى حمل الغريب المسكين • وكان منظرا يدعو الى أشد ما تكون الروعة : كان الأوروبيون ـ وكلهم أغراب عن الفقيد ـ يشعرون بالحزن العميق • وسار فى الجنازة التراجمة بملابسهم البراقة ، وعدد من الفلاحين فى قمصانهم السمر ، وجمع كثيف من أطفال العبايدة عراة كما ولدتهم أمهاتهم ـ ولكنهم كانوا يظهرون الأدب الجم • وقـد حركت ملامح وجـوههم التى تنبىء عن الأسى ما بنفسى من الشجن أكثر ما حركت • وقام « عمر » وملاحو المركب وهم مسلمون ـ بحمل الفقيد ودفنه فى مقبرته • وبينما كانت الصلاة تتلى بالانجليزية كانت الشمس تلقى فيضا فاخرا

من الضوء على ضفة النيل وهى تهبط على مدى النظر فى الأفق الغربى • وسألتنى امرأة من العبايدة : « أما زالت أمه على قيد الحياة ؟ فهو صغير » • قالت ذلك والدموع تنهمر من عينيها • وقد أخذت بيدى وضمتها الى جناحها • فيالها من أم تعطف على أم أخرى تعيش بعيدا عنها ويختلف جنس هذه عن جنس تلك كل الاختلاف » (ص ١٩٩) •

ان رسائل « لوسى دف جوردون » لتزخر بوصف هذه المواقف الأخاذة التى تمس القلب والمشاعر، وليست هذه الا قصة قصيرة تبين لك مقدار العطف الذى يحسه أبناء آدم اذا ألمت بأحــدهم مصيبة • فلن يقــوم دون تعاطفهم مــذهب ولا دين ولا عقيدة ولا جنس فانهم جميعا أبناء آدم •

ثم انها قد اعتادت الأساليب والأوضاع والخصائص التى يتخذها المسلمون فى حياتهم • وقد دهشت أول مرة حين هم الشيخ يوسف أن يملأ محبرة بمداد فيقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » وتسأله «لماذا يقول ذلك» فيجيبها : « ألا ترين أن المداد ربما انسكب فى الأرض لولا بركة الله ! » ثم اذا هى بعد أن لبثت شهورا فى هذا المجتمع تبسمل عندما تبدأ فى عمل شىء ، وتقول : « ان شاء الله » اذا هى عزمت على عمل شىء • وتحمد الله اذا هى تمتعت ببعض العافية ، وتقول ما شاء الله اذا هى أعجبت بشىء • هذا الى ما كانت تعجب به حين يقــرأون لها

الفاتحة ، أو حين كانوا يذبحون الأضاحى من أجلها • بل لقد سمعت بالدوسة التى كان بعض مشايخ الطرق يزاولونها فى مولد النبى بالقاهرة فأعجبت بها ، وانتقدت الحكومة فى أنها ألغت هذا النظام ، فى حين أن الشيخ محمد عبده ــ بعد ذلك بعشر سنين ــ كان يحيى وزارة الأوقاف لأنها استطاعت أن تلغى نظام الدوسة •

وتندمج اندماجا تاما فى أعياد القوم الدينية حتى تصبح واحدة منهم • وكانت لها سفينة اسمها « أورانيا » ، وكانت قد قامت بالانفاق عليها لاصلاحها ــ وبعد أن تم هذا الاصــلاح وفى ٤ أغســطس سنة ١٨٦٦ تتحدث عن مولد النبى ، وقطع الخليج • لكنها تقول فى منظر سفينتها عند انزالها الى النيل • وعندنا ان كل ما جاء فى هذه الرســالة يدل على أن تفكيرها أصبح جزءا من الخيال الذى كانت تؤمن به ايمانا شعريا :

« انى أنوى أن أكتب مقالا عن أعياد الأقباط والمسلمين وعاداتهم • ولكنى أنتظر حتى أحضر عيد أبو سيفين بالقرب من الأقصر وهو قديس مسيحى عظيم حيث يحج اليه الجميع من أقباط ومسلمين ليشفيهم اذا كان بهم مس من الجنون ، ويؤمه كل المجانين • لقد أقام الوالى حربا شــعواء على كل من هذه الاحتفالات • أما المحمل فقد أخفى أمره هــذه الســنة • وأما احتفالات طنطا فقد منعت • وقد أفسد الأوروبيون كل شىء

ولا يحضر العرب قطع الخليج ولا الدوسة • وبدلا من ذلك فان العربات المطهمة تجرى جيئة وذهابا كأنما هى فى يوم من أيام سباق الدربى (فى انجلترا) • ولم يبق من الماضى الا القليل فى قلب الريف » •

« غدا سنذبح خروفى الأسود المسكين لنبارك ما أصلحنا من سفينتى ـ سيذبح على مقدمها الجديد ويسيل دمه على جوانبها، وسيصبح لحمه مشبعا بالدسم يلذ لآكليه من العمال حتى يحميها من شر عيون الحاسدين • وفى اليوم الذى تنساب فيه الى الماء سيقرأ بعض الفقهاء القرآن فى غرفتى بها ، وسيعدون فى ذلك اليوم أيضا ثريدا من الخبز واللحم المسلوق • والمعلمون المسيحيون يقيمون هذا الاحتفال كما يفعل الآخرون : بل هم يفعلون ذلك تبركا حين يقيمون منزلا جديدا أو قاربا أو طاحونا أو ساقية أو غير ذلك من المنشآت » • (ص ٢٧١) •

وهكذا نرى الى أى حد تندمج « لوسى دف جوردون » رويدا رويدا فى المجتمع الدينى الذى أقبلت عليه وعاشت فيه • ألم تقل أنها كانت عمياء عن نقائص المسلمين تغتفر لهم سيئاتهم فما بالك بحسناتهم !

٣ـ الرقيق والمرأة

كانت « لوسى دف جوردون » تتقبل نظـام الرق ونظام الحريم فى حياة المصريين فى تلك الحقبة ، ولا تكاد تعترض على نظام الرق الا شفقة بالرقيق الأسود الذى كان يتخطفه النخاسون من شواطىء افريقيا الشرقية . وقد رأينا كيف أنها أشادت بأعمال الرقيق فى جنوب افريقيا ، وكيف كانوا أكثر انتاجا فى سبيل العمران عن سادتهم . والواقع أنها نشأت فى بيت كان فيه عبد اسمه « حسن البكيت » ولعله كان اسمه فى الأصل « حسن البخيت » أو « حسن بخيت » فقد كان وهو صبى عبدا اشتراه طبيب ايطالى فى لندن . ولكن دب الرمد فى عينى « حسن »

فانتهى الى منزل « لوسى دف جوردون » • وعنيت به «لوسى» وحسن حاله ، وأصبح هو نفسه رئيس الخدم ، وكان يلاعب ابنتها « جانيت » وهى طفلة ، وارتبطت حياته بحياة العائلة لولا ان عاجلته المنية : وتدل الصورة التى رسمها فنان لـ « حسن البكيت » على مقدار العناية بالمظهر التى كان يتحلى بها ، وتحكى هى عن خلقه الكريم وعن نظامه الحازم مع الخدم •

وكان الوالى سعيد باشا قد أصدر قرارا بمنع دخول الرقيق الى حدود مصر ، بل ما أشرفت سنة ١٨٥٥ على الانتهاء حتى كان قد أصدر قرارا آخر يلزم كل سيد أن يحرر عبيده اذا طلب العبد أن يتحرر ، لكن قليلا جدا من هؤلاء طلبوا فك رقابهم ، فقد خشوا ألا يجدوا لهم موردا آخر للرزق ، وكان الكثير منهم قد أصبح « عضوا » فى بيت السيد ولم يؤخذ الأمر مأخذ الجد • أما من حيث الجوارى فقد احتفظت أغلب البيوت بمن فيها من الحريم • ويقال ان أم الوالى نفسه كانت تهديه بجارية شركسية كل عام ـ على أننا وهذا رأى « هككيان بك » أيضا ـ نعتقد ان معاملة الرقيق فى مصر بوجه عام لم تكن من القسوة مثل ما كانت معاملة الرقيق فى أمريكا أو جزر الهند الغربية • ويقول لنا التاريخ أن المماليك ـ وهم من الرقيق ـ حكموا مصر بضعة قرون ، وأن أغلب الأعيان والعظماء فى هذه

البلاد كانت أمهاتهم من الجوارى ، بل لقد كانت أمهات الولاة أنفسهم من الجوارى أيضا . (ص ٧٣) .

وحين هبطت « لوسى » الأقصر فى يناير سنة ١٨٦٤ وجدت أن النظام الاجتماعى نفسه قائم على الرق ــ ولا بد أنها كانت قد عرفت ذلك من كتب « ادوارد وليم لين » لكنها هى نفسها اشترت جارية اسمها « زينب » رجاء أن تقوم بخدمتها ، ثم ضاقت بها ذرعا وباعتها . وفى رسائلها تذكر أربعة من الصبية كانوا كلهم من الرقيق الأسود ، ووصفها اياهم يفيض رقة وبهجة وعذوبة . كانت تحنو عليهم حنوها على أولادها الصغار ، وتعلمهم كيف يقومون بالخدمة . وخدمها كل واحد منهم ردحا من الزمن ؛ لكن اثنين منهم تسهب الحديث عنهما هما « مبروك » و « دارفور » . أما « مبروك » فقد كان عبدا لمبشر انجليزى اسمه « جيفورد بلجريف » . وأما ثانيهما فقد أسلم اليها وهو لما يبلغ الثامنة . وكانت فى الثلاث السنوات الأولى دائبة الذكر لمبروك . تريد أن تصطفيه لنفسها دون « بلجريف » . وينقطع حديثها عنه فى السنتين الأخيرتين . لكن « دارفور » كان عبدها المفضل الذى ظل الى جانبها ، وشهد وفاتها .

ففى رسالة لها فى ٣ فبراير سنة ١٨٦٧ تصف « مبروك » فتقول انه ثقيل الحركة ، ضخم الجثة ، لا يريد أن يترك «الست»

الى « بلجريف » • وهو يقول انه مسلم ابن مسلم ، ويأتمر هو وعبد آخر اسمه «أحمد» بأوامر «عمر» ويسميانه «عم عمر» • وحينما يغيب « عمر » عن المنزل فانهما يضحـكان ويلعبـان ويعبثان ، وربما أشركاها فى نكاتهم وألاعيبهم •

وغادرها « أحمد » الى الاسكندرية حينما شهد مباهجها ، ولكن « مبروك » تمسك بها وآثرها على « بلجريف » ــ وقد دافعت للاحتفاظ به خير دفاع وعرضت على « بلجريف » ثمنا له غير بخس • وكتبت لأمها بعد ذلك بشهر ــ أى فى ٦ مارس سنة ١٨٦٧ ــ أن تتوسط فى الأمر وأن يترك لها « مبروك » • وتكتب عن ذلك فتقول :

« كنت أتحدث الى صديقى الزنجى « رحمه » أطلب اليه النصح فى شأن « مبروك » ، وقد حثنى على أن أشتريه من « بلجريف » لأنه كان يرى ان الولد يحبنى حبـا جما • ثم استرسل يقول : ثم انه من عائلة كريمة المحتد ، فقد أنبأنى أن أمه كانت تلبس ذيل بقرة تجرجره فوق عقبيها ، وأنها كـانت تضربه وهو طفـل اذا كذب أو سرق بيضـا من الجيران ! • ألا ما أبأس هذه المرأة ! انى لأتمنى مخلصة لو أن تجارة الرقيق هذه قد غفلت عنها وعن ولدها • انه لمن السخف أن نمنع تجارة الرقيق الشركسى ــ لو أنها حقا امتنعت ــ وأن نترك هذه التجارة فى أفريقيا على ما هى عليه الآن• ان الشراكسة يبيعون أطفالهم

في الأسواق رجاء أن يؤمنوا لهم عيشا حلوا ، والصبيان منهم والفتيـات يحبون أن يبتـاعهم أثرياء الترك . لكن السـود والأحباش يدافعون دفاعا شديدا عن حريتهم هم أنفسـهم وعن حرية أشبالهم » .

« ويقسم « مبروك » أنه كان فى الجماعة التى هاجمت قريتهم أوروبيان : وقد قتلوا عددا لا يستطيع أحد احصاءه من ذوى قرباه ، وخطفوه هو وآخرين . لم يكن قد سرقه عـرب ولا « برابيه » ، كما فعلوا بحسن ، ولكنه أخذ فى حرب قامت بين هؤلاء وبين أهله الذين كانوا يسكنون على ساحل البحر فى مكان اسمه « بوكى » وحمل فى سفينة الى جدة ، ومن هناك أخذ الى القصير ثم الى قنا حيث اشتراه « بلجريف » .

« يجب أن أذكر هنا أنهم حين يصلون الى مصر ، فان العبيد يشعرون بالسعادة والنعمة ، لكن البؤس الذى تسـببه تجارة الرقيق لا بد أن يكون أمرا رهيبا ، ان العبيد يمرون بنا هنا فى الشهر بالمئات ، كل أسبوع ، وثمنهم بخس جدا ، فيبلغ ثمن الفتى المليح بين اثنى عشر وعشرين جنيها ، وتسعة جنيهات أو أكثر للفتاة . وقد سمعت أن آخر جلاب كان يعرض امرأة ووليدها بأى ثمن وذلك للمتاعب التى يسببها الغلام ... » .

« اذا أراد « بلجريف » أن يحل عبدا آخر مكان «مبروك»

فانى سأشترى لمبروك جارية يوما من الأيام • وسيكون ذلك عملا يتسم بالوقار والتقوى ، وأعتقد انه سيكون أهلا للحفاظ عليها » •

تلك هى القصة التى ترويها عن فتاها « مبروك » • ويهمنا هنا أن ندرك الى أى حد كان يعتمل العطف فى نفسها على هؤلاء الغلمان الذين كانوا يختطفون من دورهم خطفا ، أما قصة « دارفور » فهى تأتى بعد هذا الحديث بشهر وبعض شهر • فهى تكتب رسالة أخرى الى والدتها فى ١٢ ابريل سنة ١٨٦٧ عن « دارفور » فتقول :

« اننى أرث الآن صبيا من وكالة هنرى فى قنا ، وهو أجمل صبى صغير وقع عليه نظرى • ولست أعلم لم أتوقع دائما أن يكون هؤلاء السود متوحشين ، أو أن يكونوا على خلاف ما عليه سائر الناس • ولا يزال يرن فى سمعى ما قاله عن قريته وعن حيوانها وغذائها ، وكيف أن أهل القرية المجاورة سرقوه ليبيعوه ببندقية • ـ أرأيت ولدا يباع ببندقية ؟ ـ • ولكن هؤلاء هبطت عليهم فصيلة من الترك ، وقتلوا المعتدين واستولوا على الأطفال جميعا ـ وقد حكى لى كل ذلك كما يقص غلام انجليزى مغامراته فى صيد الطيور من أعشاشها » •

ثم هى لا تزال تكتب عن « دارفور » أيضا ، وقد سمته « دارفور » لأنه ينتسب الى هذا الاقليم من السودان ، ولأن

أهله كانوا يشتهرون بالاستقلال وحب الحرية . تقول فى رسالتها الى والدتها أيضا فى ٢٣ مايو سنة ١٨٦٧ ، وكانت قد أرسلت والدتها اليها بعض الأشياء ومنها لعب لدارفور : « هذه اللعب قد بعثت فى نفس « دارفور » الصغير كل أنواع البهجة . وقد قضى فى اللعب بها وقتا كان من المقرر أن يقضيه فيما يكلف به من الأعمال ، وكاد أن يلقى جزاءه على هذا الاهمال ، وعلى اللعب بلعب « الست » . وأخشى أننى أدلله كثيرا فهو شغلى الشاغل . وهو طفل وياله من طفل ! انه الآن يبدل أسنانه ، ولا يمكن الا أن يكون فى الثامنة من عمره . وكنت فى أول الأمر لا أميل اليه كثيرا ، كنت أحسبه متلفا ، ولكن تبين لى بعد ذلك أنه كان منطويا على نفسه بسبب « الخوف » وهى الكلمة التى ماتزال ترن فى كل الأسماع ! وحين انقشع عنه ذلك الخوف سرى عن نفسه فأصبح ألوفا ينط الى نطا ليلعب معى . وهو ذكى ذكاء مفرطا ، ووجهه وجه زنجى صغير جميل » .

★ ★ ★

وكذلك ترى أن « لوسى دف جوردون » اقتنعت بأن اتخاذ الرقيق كان أمرا سائغا فى المجتمع المصرى ، لكنها كانت تشفق من الوسائل التى كانت تستخدم لاقتناص هؤلاء من بلادهم ودورهم . والى جانب هذه الصور العاطفية التى حكتها عن « مبروك » و « دارفور » فقد أرادت أن تزور « الحريم » .

وكانت هذه الكلمة قد تداولها كل السائحين الذين زاروا مصر في القرون الثلاثة السابقة . ولا يكاد يخلو كتاب للأسفار عن مصر من قصة طويلة يصف كاتبها فيها الحريم : بعضهم يفرق بين الحريم التركى والحريم المصرى ، وبعضهم لا يفرق بين هذا وذاك ، وقد تصدى النساء من هؤلاء السائحين لوصف الحريم وصفا دقيقا ، بل لقد اهتم بعضهم بوصف حمامات النساء . وكأنما كانت هذه الأوصاف من بين ما يثير حب الاستطلاع عندهن ، ثم هو من بين ما يجذب أنظار قرائهن أيضا !!

وبنظرتها الراضية التى نظرت بها فى أمر الرقيق ، نظرت أيضا فى أمر الزواج من أربع . فقد آمنت بما جاء فى القرآن الكريم من أن الرجال قوامون على النساء . وفسرت هذه القوامة بما جمعته من أفواه مخالطيها من أن على الرجل أن يقوم للمرأة التى يتزوجها بكل حاجاتها ، وأن للمرأة المسلمة شخصية ذاتية تستطيع معها أن تمتلك وأن تكسب : أفهمها ذلك « عمر » وأفهمها ذلك أيضا شخص اسمه « حسنين أفندى » كان فى الاسكندرية ، وأفهمها ذلك أيضا « سليم أفندى » حاكم الأقصر .

أما الحريم التركى فقد دخلته يوما فوجدته قطعة من « هامينون كورت » وشعرت كأنما كانت فى حفل أقيم فى هذا القصر الملكى من قصور ملوك انجلترا : نساء جميلات يرفلن فى الدمقس والديباج ، وفتيات منعمات بما اتخذن من زينة .

وقد يكون وصفها للحريم هذا الوصف نادرا بين ما كتبه السائحون والسائحات ، اذ هى تكتب لوالدتها فى ٤ أغسطس ١٨٦٦ :

« لقد شهدت مولد النبى والدوسة العجيبة . انها منظر عجب : رجال كثير عددهم ، يبدو عليهم انهم سكارى بحميا الدين . وقد ذهبت أيضا الى حريم تركى : أرسلنى الى هناك بعض أصحابى من الدراويش ، انه يشبه كل الشبه أى حفلة شاى فى « هاميتون كورت » لولا أنه أكثر جمالا ، لا بمن فيه من نساء فحسب ، بل لما رأيته فيه من ملابس وأثاث وجواهر . ولكنه لا يشبه شيئا مما وصفت به مسز « لوط » فى كتابها الغريب ! . ليس هناك شىء ألطف من الحريم التركى ، فهو من هذه الوجهة أرقى مما يمكن أن يتصوره الانسان . والنساء فيه لهن طابعهن الخاص . ولكن ما أشد ما يبدو عليهن من الملال والأسى ! لقد قالت لى سيدة لطيفة منهن « لو أن لى زوجا وأولادا مثلك لفضلت أن أموت مائة مرة على أن أغيب عنهم ساعة واحدة » وقالت لى أخرى انها تغبطنى لأننى أستطيع أن أمشى حرة فى الأسواق وان أرى الدوسة ، أما هى فانها لم ترها فى حياتها وتحسب أنها لن تراها » .

تلك بعض أفكارها فيما يختص بالرقيق والمرأة ، وقد تقبلت « لوسى » هذا المجتمع المصرى كما وجدته . وقالت فى احدى

رسائلها : اذا اتهمت بأنها متوحشة لأنها توافق على نظام الحريم فهى فعلا متوحشة لأنها توافق على هـذا النظام .. وهددت زوجها مرةمداعبة فقالت له فى رسالة أخرى: «هل لك آن تطلقنى فأتزوج من قاض مصرى ؟!! » وقالت فى خطاب انها لا تميل الى المدنية كل الميل » .

٤ - بين الخيال والواقع

ماذا كان واقع الحياة التى عاشتها «لوسى دف جوردون» فى مصر ؟ لقد علمت أنها جاءت تستشفى من مرضها العضال، ولكنها نسجت لنفسها صورا من الأخيلة التى نمتها عندها ثقافتها . وما أن تمكث فى القاهرة شهرا أو بعض شهر حتى تحاول أن تحقق هذه الأخيلة : فترى نفسها فى جو ألف ليلة وليلة ، ثم اذا هى زارت الأقصر وأسوان عاشت مع آمون رع وأوزيريس ، وكذلك كانت فى حياتها فى الأقصر تحاول دائما أن تشبع هذا الخيال السامى الذى نسجته لنفسها . ولكن هل أتيح لها أن تواصل العيش فى هذا الجو الخيالى ؟ لقد علمتها السنون التى عاشتها فى مصر أن الخيال دائما غير الواقع ، وأن القدر

كان يخبىء لها كثيرا من الهموم سواء فى حياتهـا الخاصة أو العامة • بل لقد كان القدر أيضا يخبىء للمجتمع الذى عاشت فيه كثيرا جدا من الهموم • لكن لذلك حديثا آخر : أما حديثنا الآن فهو عن همومها الشخصية التى شدتها من حياة الخيال الى حيـاة الواقع •

نسيت أنها مريضة وأن مرضها داء وبيل : يخترم جسدها وئيدا وئيدا حتى يحطمه • وكانت فى نفس الوقت لا تميل الى الراحة ولا الى الدعة : بل هى دائمـة الحركة • وهى تشـغل جثمانها وفكرها فيما لا يطيقه الأصحاء بله المرضى ، ثم ان حياتها المنزلية لم تكن تلائم المرض الذى كانت تعانى منه ، والمسكن الذى سكنته لم يكن هو الآخر مما يؤمن الحفاظ على حياتها •

حين حلت بالأقصر اتصـلت بمن ذكرنا من الشـخصيات المصرية ، وآمن بها الفلاحون من حولها لأنها أصبحت منهم • ثم انها كانت فى الأقصر تلتقى بكثير من السياح الأوروبيين وقرأت لكثير من الكتاب الأوروبيين • وكان يزورها بعض رجال الدين فتناقشهم ، وبعض رجال الحكم من المديرين والأطباء فتتحدث اليهم • وكانت دارها مثابة للمرضى يحجون اليها من كل مكان لتشفيهم مما فيهم من أدواء ، وكانت تحاول أن تسرى عن نفسها بأن تخرج فى صباح كل يوم على حمارها الصغير فتتجول على

ساحل النهر أو فى بعض مطارح الأقصر • كانت تلبس قبعتها ويمضى وراءها فتى صغير يتســابق هو والحمار الصغير أيهما أسرع ! ثم كانت تعود الى منزلها لتتناول طعام الافطار مكونا من لبن الناقة والخبز والقهوة • ثم كانت تعاود الخروج من المنزل وتمكث فى الخارج حتى مغرب الشمس • أما فى المساء فلا يعدو الأمر أن يزورها جيرانها ، أو أن تزورهم فى الموالد والحفلات والأعياد ، وكانت تسمى كل ذلك « فانتازيا » •

على أنها تعرضت لكثير من الأشجان فى حياتها المنزلية : فقد كانت سيئة الحظ فى خدمها من النساء ، ومن ذلك حدثت مأساة أثرت فى صحتها كل التأثير ، ثم كان بيت فرنسا يتصدع • وكانت هذه صدمة أخرى ، ثم برحت بها العلة • ولم تزل تبرح بها حتى آذنت شمس حياتها بالمغيب •

أما المأساة الأولى فهى قصة واقعية تتلوها علينا « لوسى دف جوردون » فى رسالة بأكملها تحتل فصلا قائما بذاته : والقصة جـديرة بأن تكون احدى مسرحيات « جلزورذى » لولا أن « جلزورذى » كتب مآسيه المنزلية بعد ذلك بنحو ثلاثين سنة • انها مسرحية كانت تحدث وقائع شبيهة لها فى بيوت الارستقراطية الانجليزية بين الحين والحين • ذلك أن الانجليز فى القرن التاسع عشر كانوا يستكثرون من الخدم والأتباع : وكان بين هؤلاء كثير من الخادمات • كان لكل سيدة خادمة أو وصيفة تقوم

بما يطلب اليها من حيث تنظيم المنزل، والقيام بواجبات لا يستطيع أن يقوم بها الا النساء .

وكانت « سالى » خادمة فى الثلاثين من عمرها : لبثت فى خدمة « لوسى دف جوردون » عشر سنين ، واصطحبتها معها الى مصر، وكانت تعطف عليها كل العطف . وكان «عمر أبو الحلاوة» هو خادمها الآخر الأمين ، فهو الذى دبر لها المكان اللائق ، وهو الذى مهد لها سكناها ، وقام بالاشراف على راحتها ، ولعل شخصية « عمر » كما ذكرنا شخصية أحد أبطال القصة الى جانب الشيخ « يوسف أبى الحجاج » ، و « مصطفى أغا » والشيخ « ابراهيم القاضى » و « سليم أفندى » الحاكم . ولا نظن أنها كانت تستطيع أن تمكث فى الأقصر هذه السنوات ، أو كانت تنتقل بين الأقصر والقاهرة والاسكندرية من ناحية أخرى ، لو لم يكن « عمر » هو خادمها وطاهيها وحارسها وممرضها .

ولكن حدث بين « سالى » الخـادمة و « عمر » الخادم ما يكون بين المرأة والرجل فى ساعة من ساعات الاثم . ساعد على ذلك أن « سالى » اختلطت بالرجل ، وأن « بيت فرنسا » الذى كانت تسكنه « لوسى » كان معتما ليس فيه الا القليل من النوافذ والأبواب ، ومهما يكن من أمر فان هـذه المسرحية الواقعية قد بدأت حين جاء المرأة المخاض ، على حين غرة من

« لوسى دف جوردون » وهى قادمة على سفينتها من القاهرة ، وأنها ذعرت اذ رأت نفسها فى موقف من مواقف المأساة المنزلية، مما يذكر الانسان بمسرحية « جلزوورذى » الابن الأكبر .

وحين ولد الطفل كان تصرف كل واحد من شخوص المأساة وشهودها يمتاز بطابع خاص :

أما « عمر » فقد ندم ندما شديدا واعترف بأنه مذنب ، وأسرع الى الشيخ « يوسف » ليزوجه من سالى كما يفعل التائبون عما اقترفوا من اثم . واعترف بولده ، واعتذر الى سيدته بأن « سالى » هى التى راودته عن نفسه . وبذلك يكون قد ضمد الجرح ، وأصبح يعامل « سالى » كما لو كانت زوجة ثانية الى جانب زوجته الأولى « مبروكة » التى خلفها فى الاسكندرية . وأقر الشيخ « يوسف » هذا العمل فيما بعد ، فان لكل مسلم أن ينكح من النساء مثنى وثلاث ورباع — وانما أقره بعد أن أنبه تأنيبا شديدا .

قال له الشيخ « يوسف » : يا أخى ! لقد سودت وجوه المسلمين بما اقترفته فى حق نساء كان يجب عليك أن تدافع عنهن .. وأخذ الطفل بين يديه وتذكر « لوسى » أنها رأت فيه منظرا من مناظر الانجيل حين كان المسيح عليه السلام يأخذ الأطفال بين يديه .

أما « سالى » فلم تكن تهتم كثيرا بما حدث ، ولم تدر ما اذا كان هذا الزواج حلالا أم حراما .. انها فى نطاق تجاربها قد أصبحت زوجة لعمر ، ولكنها ما لبثت أن واجهت مشكلة الطفل وطلبت الطلاق . وكانت بين أمرين كلاهما مر : فالزواج من رجل متزوج حرام ، والطلاق حرام أيضا فى الشريعة المسيحية .

وأما «لوسى دف جوردون» فقد كانت حانقة على «سالى» . كانت تؤمن بأن « عمر » مثال الأمانة والصدق والزهد . ويقول « جورج ميريديث » تعقيبا على هذا الحادث : « ان سالى قد جرحت « لوسى » فى كبريائها لأنها أخفت عنها هذا الحادث الأثيم ، ويقول آخرون بل كان هناك شىء من الغيرة يفتعل فى نفس « لوسى » . ولسنا ندرى نحن اذا كان اعجابها « بعمر » كان يدفعها الى حد الغيرة عليه من انثى لا تساوى شيئا . ولكن الثابت أنها كانت تريد الاحتفاظ « بعمر » ، لذلك قامت بالدفاع عنه أمام زوجها .

وأما سير « ألكسندر دف جوردون » فقد أخذ جانب « سالى » ولم يعجبه هذا التعاطف بين زوجه وبين « عمر » وحرم عليها أن تصحبه معها الى انجلترا فى السنة التالية .

وفى حين أن الجانب المصرى من شهود الحادث كان يحاول

أن ينقذ الموقف ، فقد كان من بين السيدات الانجليزيات من أفتى بأن يطلق « عمر » زوجته الأولى « مبروكة » حتى يؤسس أسرة انجليزية تقوم على الحلال والخلق القويم ! وتغضب « لوسى » لهذه الفتوى وتدافع عن « مبروكة » وتقول متهكمة « أية أسرة انجليزية قامت على هذا الخلق القويم ؟ » .

ومهما يكن من أمر فقد انتهت المأساة بأن أرسل الطفل الى « مبروكة » فى الاسكندرية ، واستقبلته هذه استقبالا كريما ، وطلقت «سالى» والتحقت بخدمة «جانيت رس» ابنة «لوسى دف جوردون » ! وبذلك أسدل الستار على هذه الفضيحة المنزلية .

ولعلنا نلقى بعض الأضواء على هذه المسرحية اذا اقتبسنا بعض ما جاء فى رسائلها عن هذا الحادث الكريه . فقد قالت فى رسالة لها : « ينبغى أن أقول ان « عمر » قد أظهر شعورا غاية فى اللطف يليق بأى جنتلمان . لقد قال انه يتحمل الذنب كله ، وحاول بكل ما عنده من مقدرة أن يخفى الأمر عن الناس ، وعقد قرانه عليها أمام الشيخ « يوسف » حتى يصبح الولد مولودا شرعيا ، وعمل كل ما استطاع حتى الآن لكى « يبيض » وجهها ، ولكنه قال لها فيما بعد انه لن يمسها مادامت تحت سقف هذا البيت الذى أعيش أنا فيه . وفى نوبة من الغضب أفلت منها ما يدل على أن المأساة كانت من صنعها ، وأن « عمر » حاول

جهد المستطاع أن يقاومها ، ثم انها اعترفت أنه بعد الأسابيع الأولى من الحمل حاول أن يفصح عن الأمر ، ويبلغ سيدته بما حدث ويتزوجها ، لكنها رفضت فكرة الزواج ورفضت أن تبلغ سيدتها ... » .

ومضت في رسالتها بعد ذلك تقول : « لم أر شيئا مثل هدوئها الكامل ، واليأس القاتل الذى تملك « عمر » . لقد طلب الى أن يضرب ، ولم يكن يحتمل أن أباديه بكلمة عطف من غير أن يعاوده الدمع فينهمر من عينيه انهمارا ، ولعلنى لم أر مثل هذا الندم الحقيقى من قبل » .

ثم تختم الرسالة بوصف مدى الأثر النفسى الذى خلفه هذا الحادث فتقول لابنتها : « أنت تعرفين أن قوما يعيشون مثل ما أعيش الآن يصبحون منحرفى المزاج تعتريهم النزوات فليست صحتي على مايرام ، وقد اهتزت أعصابى حين رأيت «سالى» فى نفاسها وسط الليل فى السفينة ، وأحسست بالهلع اذ أدركت أننى سأقوم بدور المولدة ــ وهذا عمل لا أفهمه ومنذ تلك الصدمة وأنا لا أستطيع أن أعاود النوم ، وزاد سعالى اشتدادا (ص ١٩٣) .

تلك هى القصة التى كتبتها « لوسى » لتصف مقدار الشجن الذى تحملته من يناير الى ابريل سنة ١٨٦٥ . والحق أننا نرى

أنها حين قدمت الى مصر كانت تمر بفترة من الخيال الذى كاد أن يكون شعريا ، لكنه ككل خيال شعرى لا يزال يميل ثم يميل حتى ينهار . ولعل حياتها المنزلية نفسها لم تكن بالرومانتيكية التى صورتها حين قدمت الى قصرها « بطيبة » . فالحقيقة المرة أنه لم يكن قصرا . وهذه الحادثة الكريهة بين «عمر» و «سالى» شدتها الى الواقع الكريه فى كل شىء : حتى قصرها ـ أى بيت فرنسا ـ كان يريد أن ينقض .

★ ★ ★

ففى الشهور الأولى من سنة ١٨٦٥ تصف هذا البيت لابنتها الصغرى « أورانيا » وكانت « أورانيا » لما تبلغ السابعة . كانت لغة الرسالة التى كتبتها لها بسيطة كل البساطة ، لكنها كانت تصف البيت من واقعه : فتصف الغنم والماعز والجديان ، والدجاج الذى يروح ويغدو ، والجاموس وبشاعة منظره ، وهو يسبح ، والسحالى وهى تتسلق الجدران ، والحمائم التى تقول : (الله ! الله !) فهى تقول فى معرض هذا الحديث « انى أعيش فى منزل يكاد يخلو من الأثاث ، والحجرة التى الى جانب حجرتى مفتوحة تطل على الريف . وقد بدأت العصافير أن تبنى أعشاشها هناك ، وتطير أحيانا كثيرة الى حيث أجلس ، لأنه ليس فى بيتى أبواب ولا ستائر ، فيما عدا غطاء قديما من اللباد كان يملكه والدك وأستخدمه الآن كستارة . وحينما يمسى المساء تصعد بعض السحالى الصغيرة السمراء الى السقف ، وتقتنص الذباب،

وتشـــقشق شقشقة عالية • وفى بعض أحيـــان تطير فى الغرفة خفافيش صغيرة جدا لها بطون بيض وظهور سمر (ص ٢١٨)•

على أنه لا يخلو هذا الوصف البسيط الواقعى من تفاصيل يلذ حتى للقارىء الكبير أن يلم بها • فهى ترى السعادة كل السعادة فى كل ما وصفته • وهى تحكى عن الأطفال الذين تحبهم وتعطف عليهم • وكل هذا جميل • ولكن الذى يهدم كل هذه السعادة أنها كانت مريضة ، وأن الناس من حولها كانوا فقراء ومرضى ، وأن الجو لم يكن يناسبها ، وأنها فى منزلها هذا لم تكن فى نجوة عن الخماسين حين تهب عليها • وهنا ينقشع هذا الخيال الشعرى الذى أقامته لنفسها من نفسها •

« أصبح الجو معتدلا يانعا • ولكن هبت بعد فترة من الصحو ريح عاتية ، حملت الينا من الأرض الجافة ومن « جرنه » غبارا هبط علينا مدرارا كما يسقط المطر • اننى متعبة الى درجة الشقاء ، ولكن صحتى تحســنت كثيرا رغم كل ذلك • وقد انتشرت أمراض كثيرة وبخاصة الزحار ، وأصبحت « عيادتى » شغلا هاما : فعملية التطبيب تمضى عجلى غير متوانية ، فانى أرى أربعة من المرضى كل يوم وستة فى بعض الأحيان • (ص ٢٢٣) •

ذلك بعض ما كتبت « لوسى » بعد أن خدعت نفسها بأنها كانت تنعم بالجو الجميل ، وبالصحية الكريمة • ولكن ستمضى الأيام فتدرك أن كل ما كانت تنعم به فهو الى زوال •

وحين استقرت « لوسى دف جوردون » فى هذا البيت الذى كان يتداعى ، كانت صحتها هى نفسها تتداعى ، فقد تبعها المرض كما لو كان قدرا محتوما . كانت تريد أن تستخلص الحياة من أنياب الموت ، وأن تنتزع الآمال من الآلام التى كانت تبرح بهـا ، ولم يكن يتوافر فى المنزل عوامل الشـفاء التى كانت تلتمسها ، ولا بد أنه كان باردا قارسا فى الشتاء ، وكانت تتجاوب فيه ريح الخماسين السافية عند مقدم الربيع ، ثم انها لم تكن تستقر فى هذا البيت أثناء الصيف فقد كانت تقضى معظم شهور الصيف فى انجلترا ، وكانت الرحلات الى انجلترا والعودة منها تسـتنفد كثيرا من نشـاطها ، وكانت تجهدها رحلاتهـا الى الاسكندرية ، بل كانت تضيق ذرعا اذا هى سافرت فى فرنسا وركبت البحر منها الى مصر . وكانت تعانى كل ذلك بارادة كأنما قدت من حديد ، فهى سـعيدة بما تكتب ، وهى سعيدة بمن يخالطها من القوم الذين اختارت العيش بينهم .

وكأنما كان لمرضها نفسه سجل تنشره وتطويه فى رسائلها منذ قدومها الى مصر ، فلنلق نظرة الى الوراء ! انها تكتب من الاسكندرية فى مايو سنة ١٨٦٣ ان المرض اشتد بها ، ولا ترى أنها تطيق أن تصبر عليه ، وتود لو تستطيع أن تعود الى انجلترا أو تأوى الى مكان آخر . وتقضى صيف سنة ١٨٦٣ فى انجلترا فعلا ، وفى رحلة العودة الى مصر تبدو يائسـة من العلاج ،

وتكتب لوالدتها كيف تعانى من فراق زوجها ، لكنها تشفق على هذا الزوج أن يراها وهى تذوى ضعفا ومرضا ، وتركب سفينة من الاســكندرية الى القاهرة وتعانى من رحــلة عنيفة ، ومن عاصفة عند كوبرى كفر الزيات حتى تصل القاهرة ثم يصيبها نزيف حاد . وتستقر فى الأقصر ولكن ما يأتى شتاء سنة ١٨٦٤ حتى تصاب رئتها اليسرى ، وكانت اصابتها الأولى فى رئتها اليمنى ، وتخشى الموت فتكتب الى أمها خطابا مفزعا تقول فيه : انها تريد أن تقضى حياتها فى الأقصر ، ويشتد بها المرض فى هذا الشتاء القارس فتبصق دما ويكون هذا نذيرا لأسوأ مكروه .

وبين هذه النوبات المتعاقبة كانت « لوسى دف جوردون » تجد من المشاغل الاجتماعية والفكرية ما ينسيها كل تلك الآلام، فهى تلتقى بالشيخ « يوسف أبى الحجاج » و « بمصطفى أغا » ويزورها مشايخ من العبابدة ، وهى تتعرف بفرنسى اسمه مسيو « مونييه » هو وكيل دائرة « حليم باشا » بالمطاعنة ، وهى تبحث فى شأن الاسلام والمسلمين ، وهى تدقق فى وصف الظروف التى يعيش فيها الفلاحون ، ثم هى تكتب الى زوجها متفائلة لعله يمتد به الرجاء فلا يتسرب الى نفسه اليأس من شفائها . وهى ترسل اليه فى ١٢ فبراير سنة ١٨٦٤ : لقد أصبح الجو منذ خمسة أيام أو ستة وكأنه هو الجنة نفسها . انى لأجلس فى شرفتى السامقة وأرتوى من نسيم الشمال الحلو ، وأنظر الى الجبال

الفخمة على الشاطىء المقابل ، وانما أظن أنه لو كنتم هنا معى أنت وأفراخى الصغار لكانت أحسن حياة . ان جمال مصر لينمو فى نفسى يوما بعد يوم ، وأظن أنها قد بلغت من الجمال غاية خيرا مما كانت عليه السنة الماضية » (ص ١٢٣) .

ولا يمضى على تاريخ هذا الخطاب أسابيع ثلاثة حتى تكتب فى أول مارس « ان فخامة هذا الطقس تجل عن الوصف ، وأشعر أننى فى تحسن يوما بعد يوم . اننى أخرج من البيت فى الساعة السابعة أو الثامنة صباحا على ظهر حمارى الصغير الأسود وأعود لتناول الافطار حوالى العاشرة ثم أخرج ثانية فى الساعة الرابعة . »

وتستقبل يناير سنة ١٨٦٥ فتكتب لأمها : « اننى فى صحة جيدة جدا ، والحق أن سعالى قد ذهب ، وأسير الآن بخفة أنعم بها . أظن يا أمى العزيزة أننى فى صحة أحسن من قبل بكثير جدا ، فان البرد لم يؤثر فى ، الا قليلا ، وهذا مالم أظفر به منذ أصبت بهذا المرض . وأنا لا أتأثر الآن بالصباح البارد ولا بالليل القر ، وأشعر بأن الجو أمتع ما يكون » (١٩٦) .

وهكذا ترى كيف كانت تتراوح بين اليأس والرجاء . ولعل الرفق بزوجها كان هو الذى يدفعها الى اخفاء الحقائق المريرة عنه وبخاصة فى الأيام الأولى التى قضتها فى الأقصر . ولكن

ما ان يقبل صيف تلك السنة حتى يرهقها الألم وتقطع الرجاء .
كان ذلك فى مايو سنة ١٨٦٥ ، وكانت فى رحلة الصيف من الأقصر الى القـاهرة حينما عاودها الداء مرة أخرى — وفى منتصف هذا الشهر وصلت الى المنيا وكتبت منها الى زوجها تقول : « كنت أكتب وأنا مارة بالمنيا حينما عاجلنى التهاب فى الغشاء البللورى ، واذا لم آكن قد أحببت « عمر » من قبل فانه ينبغى أن أحبه الآن ، فقد قام بتمريضى خيرا من أى تمريض لقيته من قبل . وكان مطواعا وماهرا بقدر ما كان رفيقا بى . وأعتقد أنه أنقذ حياتى حينما عالجنى بكئوس الهواء على الطريقة العربية مستخدما فى ذلك كوبا كبيرا ومشرط قديما من أمواسك .»

ثم تكتب اليه من القاهرة فى ١٢ يونية : « لقد وصلت اليوم بعد أن صادفتنا ريح عاتية مضادة . عندى الكثير لك من الأخبار ، لكننى أجد نفسى أضعف من أن أجلس لأكتب لك . فقد قضيت أسبوعين فى الفراش ، ولم أكد أستطيع الرقاد خوفا من الاختناق — لكننى أشعر بأننى خير مما كنت قبلا — وقد قرأ رجل من الأزهر القرآن جميعه من أجلى ، وذهب آخر فأوقد شموعا فى السيدة زينب داعيا الله أن يشفينى » .

واذا كان أصدقاؤها من المصريين قد قرأوا القرآن الكريم من أجلها ، وأوقدوا الشموع عند أم هاشم ، فقد كشف عليها

طبيبها الانجليزى ـ دكتور بيرسون ـ فرأى أن الرئة اليسرى جميعها ـ وكانت هى الرئة السليمة ـ قد التهبت ، وأن « عمر » قد أنقذ حياتها بالفعل من موت محقق • وقضت شهر يونيو من تلك السنة وهى تجاهد ذلك الموت الوشـيك • وتكتب الى زوجها لتطمئنه فتقول : « ان هذا المرض يستفزنى ، فان الرئة التى أصيبت أخيرا تحسنت كثيرا ـ لكننى لا زلت عاجزة كل العجز عن أن أسـتعمل الرئة الأخرى » • وتكتب الى دكتور « بيرسون » تسأله رأيه فلا يجيب ، ثم تكتب الى زوجها كتابا تقول فى خاتمته : « اذا لم يقدر لى البقاء فأرجوك ألا تنسى « عمر » فقد أبدى نحوى عنـاية وعطفا لا يبديهما الا الأبناء للأمهات » (ص ٢٣٢) •

ولا شـك أنه كان للأحـداث التى وقعت فى الأقصر وما جاورها فى الشهور الأولى من سنة ١٨٦٥ التى انقلبت الى فتنة ثم الى ثورة ثم الى مذبحة فيما بعد ، وأن الفقر الذى كانت تشهده وهو يجثم على هذه الأرض الطيبة ، نقول لا شك أن كل ذلك قد أثر تأثيرا سيئا فى صحتها • فهناك علاقة وثيقة بين شقائها الجثمانى وشقائها الفكرى والعاطفى ، ولا يمكن الا أن يدرك الباحث العلاقة بين الاثنين •

٥ ـ الطاعون وفازوغلى وأفندينا

« وحينما أتذكر كيف طالعتنى هذه الأرض وهى جميلة باسمه ، اذ أطللت عليها من نوافذى عند مقدمى الى الأقصر أول مرة ، وكانت تموج بجموع من الناس وأسراب من الدواب ، ثم أنظر الآن الى ما آلت اليه ، اذ أصبحت بلقعا لا زرع فيها ولا ضرع ، فانى أشعر أن « قدم التركى » كانت ثقيلة من غير شك ، فانى لا أرى دابة واحدة حيث كان هناك خمسون ، والحمير والابل والخيل قد ذهبت جميعا ، ولم تمت الماشية ذات القرون وحدها بل لقد ماتت الكلاب الا قليلا ، ونقص عـدد الصقور وجوارح الطير ، اذ لا يترك البشر بقية طعـام تقتات به الطير والسوائم » (ص ٣١٩) ٠

ذلك ما كتبت « لوسى » فى مايو سنة ١٨٦٧ أى بعد سنين خمس من مقامها بمصر • وكانت هذه السنوات الخمس فى رأينا مقدمة للسنوات العجاف التى عاشتها مصر فى عصر « اسماعيل » •• وليس لنا أن نفصل البحث الآن فى أسباب هذا الضنك الذى حل بالبلاد ، لكنا سنقصر القول هنا على التجارب التى عاشتها « لوسى » وهى ترى المجتمع الذى تعيش فيه يتصدع كما كان يتصدع خيالها ومنزلها وجسمها • كانت العلة تخترم هذا المجتمع كما كان يخترم جسمها السقام ، وكانت وجهة نظرها هى الاشفاق على أبناء مصر : وليس لها بعد ذلك شأن بتبرير السياسة العليا • كان المعيار الحقيقى الذى تقيس به الحياة هو مقدار الرغد الذى ينعم به الفلاحون من حولها ، وهذا المعيار هو الذى تلحظه فى كل رسائلها •

وقبل أن نخوض فى أسباب هذا الضنك من حيث العلاقة بين الحاكم والمحكوم ،ومن حيث السخرة ومن حيث فرض الضرائب وتحصيلها ، ننظر فى أمرين كانا موضعا لاشفاقها ، هما: الطاعون البقرى والمنفى القاتل الذى أعده « اسماعيل باشا » للمصريين • ولعلنا نقرأ عن هذا وذاك فى كتب التاريخ فنمر بهما مر الكرام ، ولكنا ندرك أثر العاملين فى حياة القرى اذا ألممنا بما كتبته « لوسى دف جوردون » فى رسائلها •

بدأ طاعون الماشية أو الطاعون البقرى من الشمال ورأت

« لوسى » فى ربيع سـنة ١٨٦٤ جيف المواشى تطفو وترد الى الصعيد ، وقيل لها انها غير ذات خطر على الصعيد لأنها كانت تطفو على سطح النيل من القاهرة . وما أقبل شهر مايو حتى ظهر الطاعون فى المنيا ، وما ينتصف هـذا الشهر حتى تكتب الى والدتها عشية عيد الأضحى : « زحف هذا البلاء الى الصـعيد وسيتحول الآن الى كارثة رهيبة ، ففى غضون ستة أسـابيع نفقت كل ماشيتنا ، والحمير الآن هى التى تذرو القمح ، والرجال هم الذين يديرون السواقى ، ويجـرون المحاريث ، ويموتون بالعشرات فى أماكن كثيرة رهقا وجوعا . ان الزراعة جميعهـا تقوم على الثيران ، وقد ماتت جميعا . وفى المطاعنة والقرى التى تقوم حـول مزرعة « حليم باشـا » نفقت ٢٤٠٠٠ رأس من الماشية . »

« وقد غادرنا المطاعنة ولم يكن قد خلف الطـاعون فيها الا أربعة رءوس فقط » (ص ١٦٦) .

وهى لم تسمع بما قيل من أن « اسماعيل باشا » قد عقد قرضا من أجل انقاذ الفلاح ــ ونحن نسأل هل صرف هذا القرض فعلا لاغاثة الفلاح ، لكنها تدرك أن هذا البلاء قد انقلب فعلا الى كارثة رهيبة، لأن الفلاح نفسه أصبح فى حال شديدة من الاملاق .. والفلاح هنا هو جارها « مصطفى آغا » والشيخ « يوسف

أبو الحجاج » وأسرته ، وسكان القرية المجاورة مثل عائلة الفلاح « عمر » فقد انقلبت حالهم من يسر الى عسر ، وصـوح النبت والشجر ، وشقى الأجراء منهم ، واضطروا الى الاستدانة عـلى آجال قصيرة بفوائد فاحشة .

لاحظت من أول الأمر هذه الجيف الطافية ، وتوقعت هذا الكرب الذى حل بالبلاد ، وكان أشد ما نقمته من رجال الحكم أنهم لم يبذلوا المعونة لهؤلاء الفلاحين ، بل لقد وضع رجـال القرية فى الأقصر موضع المساءلة ، فقد اتهمهم حكامهم بأنهـم لم يقوموا بدفن الجيف حين نفقت الماشية . وكان على « لوسى دف جردون » أن تدافع أيضا عن أعيان الأقصر لأن دفن المواشى النافقة كان شغلهم الشاغل لفترة طويلة .

★ ★ ★

والى جانب هذه الجيف التى لاحظتها « لوسى » عن كثب. كانت تلحظ سفنا أخرى محملة بقوم من المصريين وجهتهم فازوغلى .. وقد تردد ذكر هذه البلدة النائية من أعمال السودان فى تاريخ مصر لأنها ــ كما ذكرنا ــ كانت المنفى القاتل الذى يبعث اليه سراة المصريين حين يريد أن يتخلص منهم « اسماعيل » .

وفى ٢٦ يونية سنة ١٨٦٤ تكتب فى رسالة لها تحكى قصة البدراوى ــ وكان ضحية من تلك الضحايا « جاءنى مصطفى بالأمس مساء برجل كان يرتعد ذعرا ، لأن ولده قد انتابه مرض

مفاجئ • وتوسل الى الرجل أن أبذل قصارى جهدى فى علاج ولده • وقد علمت منه أن الولد ــ وهو صبى يبلغ الخامسة عشرة ــ قد أصابته الحمى وهو فى قنا ، لكن الوالد آثر ألا يعرضه على أحد أطباء الحكومة ، لأن هؤلاء بزعمه كانوا يقتلون المرضى بتسميمهم » •

وحينما كان الرجل فى هذه الحالة من الذعر والاشفاق: يحسب أن ولده هالك لا محالة ، دلوه على « لوسى » ، فوجدت أمامها رجلا فى نحو الخمسين ، أقرب فى ملامحه الى الأتراك منه الى المصريين : لكنه كان يتحدث بلهجة ريفية على طريقة الوجه البحرى مما استغلق عليها فهمها • وهم كذلك اذ أقبل عليهم « عمر » فما أن رأى الرجل حتى قدم اليه كل ما يجب من احترام الخادم للمخدوم • وظهر أن اسم الرجل هو «البدراوى» كان سكنه طنطا ، وكان ثريا جوادا ، وكان « عمر » نفسه من بين الذين أكلوا وتربوا فى داره ، وقال الرجل انه مر بمديريات الصعيد ، وان أحد الباشوات استضافه ، وأكل الولد من طعام الباشا فتسمم أو لعله أصابته أعين الحساد •

وكان وراء «البدراوى» قصة ، فقد كان فى هذا المركب سجينا يقصد به الى «فازوغلى» حيث يذهب الأثرياء فلا يعودون • وظهر أن «البدراوى» أغنى أغنياء مديرية الغربية ، وكان يملك

١٢٠٠٠ فدان بين طنطا وسمنود ، وكان أبوه فلاحا مصريا، ولكن كانت أمه جارية شركسية • وبدا أنه كان من بين أولئك الذين سخط عليهم أفندينا ، فأرسلهم الى «فازوغلى» ليلقوا حتفهم موتا أو قتلا ، وتؤول اليه أملاكهم •

وتمضى فى خطابها فتقول ان « البدراوى » كان فى طنطا فأرسل أفندينا « اسماعيل باشا » فى طلبه ، وحدد له موعدا فى القلعة بزعم أنه يريد أن يتحدث اليه فى بعض شئون المال •وركب الرجل جواده وصعد الى القلعة ، وما أن دخلها حتى أمر « اسماعيل باشا » أحد قواسيه بأن يأخذ الرجل من توه الى سفينة عادية من سفن البضائع • على سطح النيل ، وأن يذهب به الى « فازوغلى » • وأعدت خطابات حملها القواس لكل مدير فى الطريق ، ثم رسالة سرية تسلم باليد الى حاكم « فازوغلى » خاصة « بالبدراوى ! » •

« وقد توسل « البدراوى » الى الباشا أن يمهله حتى يرى زوجه وعائلته مرة أخرى قبل أن يغادر مصر ، ولكن كان الرد على توسلاته : « لا ! يجب أن يذهب فى الحال وألا يرى أحدا » ومن حسن حظه أن أحد أقاربه من الفلاحين كان يتبعه الى القاهرة وهو يحمل ٧٠٠ جنيه فى حزامه • وتبعه الى القلعة ثم الى النهر وصعد وراءه الى ظهر المركب ، ودفع اليه بالحزام بما فيه من

الجنيهات السبعمائة .. أما المديريون فقد أكرموه . ولم يكن في رقبته شيء من الأغلال ، ولا في قدميه شيء من القيود ، بل سمح له أن يكون حرا في تجواله على الشاطىء تحت عين القواس . وأمده بعض أصدقائه بشيء من الطعام والملبس ،وكان قبل أن يجيء الى « لوسى » في زيارة لمسجد أبي الحجاج ، وسأل هذا الولى الميت العون في محنته ، ونذر ان هو خرج منها سالما ليحضرن مولده كل سنة ، ولينفقن على الاحتفال بهمن ماله الخاص » (ص ١٧٨) .

وتماثل الولد للشفاء ، واستطاع أن يتحدث بوعى بعد أن كان شارد اللب ، وأن يقوم على قدميه بعد أن كان قد انقطع منه الرجاء . وحانت ساعة التوديع ، وقال « أبو محمد البدراوى » انه سيبذل المعونة لكل انجليزى يراه في « فازوغلى » كفاء لها على ما قدمته اليه من جميل . وتقدم الى « لوسى » وهو يقول : « لى عندك رجاء أخير يا سيدتى . وهو أن تذكرينى في دعواتك ! » (ص ١٧٩) .

★★★

كانت الشرفة السامقة التى تحكى عنها كثيرا هى برج المراقبة الذى ترقب منه الحوادث التى تجرى لا في الأقصر ولا في قنا ولا في اسنا فحسب ، بل في تلك القرى وفي القاهرة أيضا ، وقد رأت جيف الماشية وهى تطفو على سطح النهر

الخالد . فأدركت أن ذلك سوف يكون له آثار شوهاء فى حياة الريف المصرى ، وراقبت الأثرياء وهم يحملون لحتفهم الى « فازوغلى » . وسنرى فيما بعد أن « أفندينا » عندما كان المتهم الأول فى كل هذا البلاء : سترى المديرين والأعيان والعلماء مصفدين فوق ظهور المراكب التى تمضى بهم الى مقابر الأحياء، وستسمع حينما نصل الى القاهرة فى يوم من الأيام أن أفندينا قد صادر مزرعة المطاعنة التى كان يملكها «حليم باشا» وسترى المستغلين وهم يروحون ويغدون ابتغاء اللذة والترويح والمال .
أما الذى أثر فى نفسها أثرا عميقا فهو أنها سمعت فيما بعد أن « أبا محمد البدراوى » وابنه « محمد » اختفيا فى قلب « فازوغلى » ، ورأت فلاحا بسيطا من أهل الأقصر كان يقعد على قارعة الطريق وأمامه عجلة صغيرة ميتة والرجل يبكى عليها بكاء مرا . فبكت عليها هى الأخرى بكاء مرا .

ولعل فكرتها عن « أفندينا » قد أخذت تتشكل بعد حادث « البدراوى » فقد تنبهت مرة أخرى الى دراسة العلاقة الوثيقة بين سياسة الحكم من ناحية ، وبين المحكومين من الناحية الأخرى .. وحينما قدمت مصر فى أواخر سنة ١٨٦٢ ، كانت تشيع فيها بعض مظاهر الرخاء . فالنيل يفيض ، والقمح مدروس ، والقطن مجموع ، والناس راضية ، وقد وصفت هى المجتمع الريفى المطمئن فى قرية آمنة من قرى الريف . وكانت الحياة فى نظرها يسيرة .

فكان مجتمع الأقصر يقوم على الخدمة التى يؤديها كل أعضاء المجتمع لقاء ما يفيدونه من نصيب عينى عند الحصاد ، ولذلك كان يمتاز مثل هذا المجتمع بشىء من الرفاهية ورغد العيش . فالعاملون فى القرى يتقاضون أجورهم من القمح والأذرة عند الحصاد ، والسقا والحلاق والعامل الذى يشرف على التذرية ، بل وفقيه القرية : كل أولئك لهم نصيبهم عند اتمام الحصاد : يعملون ليل نهار فى الحقل ولا يظفرون الا بساعات ثمان يأوون فيها الى مضاجعهم .

فى عهد « سعيد باشا » زادت الرفاهية قليلا ، واطمأن الفلاحون بعض الاطمئنان لأن « سعيد باشا » رد للفلاحين بعض حقوقهم من حيث تمليك الأرض التى يزرعونها فزاد الانتاج ، واستمر هذا المجتمع الريفى يكاد ينغلق على نفسه ، وزاد الرغد أن الحرب الأهلية فى أمريكا اشتعلت فى سنة ١٨٦١ فارتفعت أثمان القطن فى مصر ، ولكن فى ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ قام على حكم مصر « أفندينا » آخر كان متشبعا بآراء أخرى ويفكر فى مشاريع طموحه، ودعته تلك الآراء وهذه المشاريع الى الاستزادة من المال . ويمر بنا تاريخ «اسماعيل» فنرى البناء والتشييد من ناحية، ونرى الاسراف والتفريط من ناحية أخرى. وليس لنا فى هذا المجال الا أن نتابع «لوسى دف جوردون» فى وصفها لحالة الفلاح المصرى فى الأقصر وماحواليها فى تلك الفترة التى قضتها فى

هذه البلدة . لقد كانت بلدة آمنة طيبة لكن لقد أصابها الذعر والضنك من كل ناحية فكيف كان ذلك ؟ .

« كنت جالسة ذات مساء على عتبة منزل « مصطفى أغا »، وشهدت « اليونانيين » وهم ينفذون ــ فى كثير من التقــوى والحماسة ــ أوامر الدين عندهم التى تحضهم على « تخريب » المصريين ! منذ ثمانية شهور مضت هبط القرية شــخص يونانى فاشترى القمح جميعه وهو أخضر لم ينضج بعد ، اشتراه بســعر الأردب ٦٠ قرشا ، واليــونانى ــ أى الرومى ــ يتبع جابى الضرائب القبطى كما تتبع الصقور الغربان . والآن فقد أصــبح سعر الاردب ١٧٠ قرشا وقد دفع الفلاح ثلاثة ونصف فى المائة شهريا مما استلمه من ثمن البيع ــ أى من قروشه الستين . ولك الآن أن تحسب الفائدة التى عادت على الرومى !. انى أعرف رجلين أفلسا بهذه الطريقة وباعا كل ما كانا يملــكان ، فقــد اضطرهما طاعون الماشية الى أن يقترضا بفائدة فاحشة . ولــكن واحسرتاه ! فان النيل يتسكع فى فيضانه ، ولم يرتفع كما كــان مأمولا . ولا يزال الناس يشفقون من ذلك . يا لمصر المســكينة ويا للمصريين المساكين ! لست بالطبع فى حاجة الى أن أقول ان الذين يسمحون لهؤلاء الأروام أن «يعروهم» من كل شىء لا تجول بخواطرهم فكرة الادخار من أجل المستقبل ، وبيت « مصــطفى أغا » مثال لذلك : فهو مثال للاضطراب من هذه الناحية : اسراف

فى الجود والكرم ، وافراط فى الشح والبخل • ولكن ما عسى أن تفعل مع هؤلاء القوم الذين لم يعرفوا المدنية قط ، ويعيشون فى عزلة عن العالم ؟ وماذا عسى أن يفعلوا أمام أولئك الأوروبيين الذين لا وازع عندهم من خلق ولا من دين ؟» (ص ١٨٢ ــ ١٨٣)

تلك كلمات جاءت فى رسالة لها الى زوجها الكسندر «دف جوردون» فى ١٣ أغسطس سنة ١٨٦٣ • وهى الفترة التى ظهرت فيها آثار الطاعون ، وهى تمثل الحالة التى آلت اليها هذه القرية الآمنة• فالمناظر التى كانت تجتذبها عند أول مقامها بمصر بدأت تفقد رونقها، ودخل المجتمع بعد ذلك عناصر غريبة عنه اجتاحته كما اجتاحه الطاعون من قبل • فقلبت المعايير الاجتماعية نفسها، ولم يجد الكرم ولا الشح ــ بل لقد اتخذ « أفندينا » سياسة للحكم أخرى تظهر فى ثوب من الفكر الأوروبى لكنها تتنافر وأسس هذا المجتمع الريفى •

تسأل قاضى الأقصر عن قانون ملكية الأرض فى مصر • وتكتب الى والدتها ما تعلمته من هذا القاضى • وهذه فقرة طريفة من خطاب طويل لأمها فى ٢ يناير سنة ١٨٦٥ :

«سأحدثك عن نظام ملكية الأرض وايجارها فى مصر، وهو الذى يتحدث عنه الناس دائما كما بينه لى القاضى•• ان الأرض جميعا تعتبر ملكا لسلطان تركيا ــ والباشا هــو وكيله عليها :

وهذا بالاسم طبعا كما يعلم الجميع . وعلى ذلك فليس هناك ملاك لهذه الأرض ، ولكن هناك مستأجرين يدفعون من مائة قرش (أى جنيه انجليزى) الى ثلاثين قرشا سنويا ضريبة على كل فدان ، بحسب جودة الأرض أو بحسب درجة المحسوبية التى تكون بين الباشا وبين المستأجر الذى يستفيد منها . وميراث مثل هذه المؤاجرة قاصر على الأبناء فلا يشمل غيرهم من ذوى القربى، ولا ذراريهم . ويستطيع المستأجر أن يبيع هذه الايجارة ، ولكن عليه أن يستأذن الحكومة فى ذلك . فاذا توفى المالك أوالمستأجر من غير ولد تؤول الأرض الى السلطان أى الى الوالى (وهو الباشا) واذا أراد الباشا أن يستولى على أرض فرد من الأفراد فيمكنه ذلك اما بتعويض أو من غير تعويض . ولا تدعى أحدا ينبئك أنى أبالغ فى تصوير ذلك ، فقد رأيت ذلك رأى العين : رأيت أرضا يستولى عليها من غير تعويض . ورجل أعرفه أعطى فدانا من الصحراء الجرداء عوضا عن كل فدان من الأرض التى فلحها ورواها » (ص ١٩٦) .

نقول ان هذه الفقرة التى نقتبسها من خطابها الى والدتها فى اليوم الثانى من سنة ١٨٦٥ فقرة طريفة ، لأنها تدل على أن السيد القاضى ربما كان يصف الأمر الواقع لكنه ــ كان يتحدث عن ذلك من غير سند شرعى . فالأرض لم تكن ملكا لسلطان تركيا والوالى لم يكن مالكا لهذه الأرض شرعا . وانما قد اغتصب

الوالى هذه الأرض ، كما اغتصبها جد له من قبل . وقد أدى ذلك الاغتصاب الى ما حاق بمصر من محنة مالية انتهت بعزل أفندينا نفسه ، وبتدخل الأوروبيين ، وبالاحتلال البريطانى فيما بعد . وما دام أن أفندينا لم يكن يفرق بين ما يملكه وما تملكه الحكومة ، فقد استطاع أن يستدين ، واستطاع أن يضع أموال الحكومة ضمانا لديونه . وهنا نلمح الأزمة التى كانت تتجمع لتعصف بمصر ، فقد بدأت حتى فى الستينات من القرن التاسع عشر . وانما نخرج من دراسة هذه الفقرة بأن الفكرة الشائعة عند الناس عندئذ أنه لم يكن هناك فرق بين ما للمحكومين وبين ما للحاكم ، لأن أساس الحكم عندهم كان سيطرة فرد واحد على كل خزائن الدولة يفعل بها ما يشاء .

ومهما يكن من أمر فاننا نتابع « لوسى دف جوردون » فى تفكيرها فى حالة الضنك التى كانت تسجل وصفها خلال هذه السنوات العجاف . ففى ٩ يناير سنة ١٨٦٥ ، أى بعد أسبوع من كتابة خطابها سالف الذكر ، تكتب لوالدتها خطابا آخر مسهبا عن القسوة التى كان يصطنعها الحكام فى جمع الفلاحين لأعمال السخرة ، وفى فرض الضرائب ، وفى التفنن الخبيث فى جمع هذه الضرائب . ودرس معى بعد ذلك ما جاء فى هذا الخطاب :

« أصبح الفناء الرملى الذى أمام منزلى مكانا ينتابه

المساكين من الناس مع جمالهم ، فقد قررت الحكومة أن يؤدى الفلاحون ثمانية جمال عن كل ألف فدان . وترسل هذه الدواب المسكينة لتحمل الجنود الى السودان . وحيث أنها لم تعتد السير فى الصحراء فانها تهلك جميعها - وعلى أية حال لا يراها أصحابها مرة أخرى . والسخط يزداد يوما بعد يوم ، ففى الأسبوع الماضى كان الناس يستنزلون اللعنة على الباشا فى شوارع أسوان ، ويتحدث الجميع علانية عما كانوا لا يفكرون فيه الا سرا . »

« ان المكان جميعه قد أصبح أرضا جرداء ، والرجال يضربون . فواحد يضرب لأن جمله ليس من الجودة المرجوة ، وثان يعذب لأن سرج جمله قديم أشعث ، ويضرب الآخرون لأنهم لم يستطيعوا امداد الحكومة مقدما بمال ينفق على اطعام أربعة جمال وأجرة حارسهم لمدة شهرين . وقد ظل الكرباج منذ الصباح يعمل على ظهور جيرانى وأقدامهم . وانه لمما أثار احساسى أن واحدا من أصحابى كشف لى عن ذراعه فرأيت آثار القيود الخشبية على يديه ، وآثار السلاسل الحديدية على رقبته»

« لقد بلغ نظام الاستنزاف والتخريب حدا لا يمكن تجاوزه. وقصة الانجيل عن « تابوت » وكرومه تتكرر هنا يوما بعد يوم ولكن على أوسع نطاق . وانى ليأخذنى الأسى اذ اسمع عن رجال مثل « عبد الله الحبشى » لهم وزنهم فى المناصب يساقون

الى « فازوغلى » لكى يموتوا مرضا ، أو يقتلوا قتلا • ولكن يأخذنى الأسى أشد من ذلك اذ أرى الألم المبرح الذى يعانيه هؤلاء الفلاحون المساكين الذين ينتزعون اللقمة من أفواه ابنائهم الجياع ليقتاتوا بها أثناء عملهم من أجل فائدة رجل واحد » •

« ان مصر مزرعة واحدة متسعة الأرجاء يتحكم فيها رجل واحد : يستعبد الرجال الذين يعملون من أجله دون أن يطعمهم• وأستطيع من نافذتى التى أطل منها الآن، أن أرى رجالا يتراوحون فى مشيتهم بين هذه الجمال البائسة التى تنتظر بواخر الباشا لتشحنها ، وأرى كذلك أكوام الأذرة التى اضطر الناس الى احضارها لتكون لابلهم طعاما • وأستطيع أن أقول لك ان الدموع التى تبتدر من عين الانسان اذ يطلع على هذا المنظر لهى دموع حارة مريرة ، وليس يدفعنى آنا شخصيا الى هذه الشكوى عاطفة موقوتة ، أو منفعة مرجوة : فانى أرى هنا الجوع والألم ، والعمل الذى يجبر عليه الرجل من غير أمل ولا جزاء • ثم ان فيه مرارة دائمة يحسها العاجزون حين تشتد بهم النقمة ولا يستطيعون دفعها ولا الابانة عنها ! »

وتستمر «لوسى» فى هذه الرسالة الطويلة ولا تزال تتحدث الى أمها : « قد يبدو لك كل ذلك بعيدا عن الوهم ، بل قد يبدو حديث خرافة ولكن حاولى أن تتخيلى أن فلاحا انجليزيا ــ وليكن اسمه «سمث» ــ تخيلى أن مثل هذا الفلاح وجد أتباعه

يسوقهم الشرطة قسرا ، ووجد نفسه وهو يضرب حتى يسلم ما لديه من دريس وقرطم ، بل حتى يسلم مزارعيه لخدمة اللورد حاكم المقاطعة ، ثم يجد ولديه مكبلين بالأصفاد يجرونهما جرا لاقامة جسور السكك الحديدية ـ فهذا جميعا يعطيك فكرة عن حالتى العقلية اليوم » .

« وأحسب أن الجند يصعد بهم الى أسوان لأن السود فى السودان قاموا بثورة أخرى . وكان بعض الجنود قد أثاروا فتنة فى الصيف الماضي . وانى أسمع الآن أن « شاهين باشا » سيكون هنا فى مدى يوم واحد أو يومين فى طريقه الى هناك . أما الابل فانها ترسل بالمئات كل يوم من كل قرية من قرى الريف » .

ويمضى يوم أو يومان فتعود الى الكتابة الىوالدتها وتقول: « لكل يوم همومه ! لقد جاء نبأ أن الوالى نفسه سيشرفنا بزيارته لرؤية الآثار ، وقد استدعى شيوخ البلد وطلب اليهم أن يعدوا الوقود والزبد والبيض والدجاج لمطبخ الباشا . واذا علمت مقدار ما تتكلف هذه الأشياء ، وكيف تؤكل ، ومقدار ما يتبقى منها ويبور ! ، ولكننى أرانى وقد أجهدنى الحديث عن كل ذلك ، وأنك ستحسين الغصة اذ أردد عليك ما يعتورنى دائما مما يثير الولولة والبكاء ! » .

وتعود فى ٧ فبراير سنة ١٨٦٥ وتكتب الى زوجها: «هذه سنة حزينة ! فقد هلكت الماشية جميعا . والنيل الآن منخفض كما لو كان فى شهر يولية ، والأغنية التى يرددها الرجال وهم يشغلون الشادوف تتفق وهذا الجو الحزين . فهم يغنون : «أنا جعان ! أنا جعان ! الخ » وان أحدهم ليقول « أنا جعان ! رغيف درة » فيرد الآخر : « مسكين ! مسكين ! » ويؤلفون الأغانى عن سيدنا « أيوب » ويتغنون بصبره ، وكل هذا يتفق وما نحن فيه من الأسى . لقد كثرت الشواديف لأن الثيران كانت هى التى تدير السواقى وقد نفقت وتعطلت السواقى بأكملها (ص ٢٠٤) .

ومن موقعها من « بيت فرنسا » نفسه رأت شبح «اسماعيل باشا» سواء فى هذه السفن التى كانت تحمل الناس الى «فازوغلى» أو فى وسائل الحكم التى كانت تشهدها فى قلب الصعيد . وتكتب لوالدتها فى ٢ يناير سنة ١٨٦٥ عن زيارة صبى من آل « روتشيلد » للاقصر ، ويحس القارىء هنا أنها تكاد تلمس النكبة الرهيبة التى كانت تحل بمصر من أثر ديون « اسماعيل » . فهى تقول ان هذا الصبى من بيت « روتشيلد » ولما يبلغ الرابعة عشرة ، وفد الى الأقصر على باخرة من بواخر « اسماعيل » . وقد جاء فى ركب كأنما هو أمير من أمراء بيت من بيوت الملك على باخرة من بواخر الباشا ، كفل الباشا كل

نفقاتها ، مع من كان عليها من العديد من الأتباع . وقال لى فلاح عجوز : « كل ذلك من أجل مال اليهودى ! » قال لى ذلك فى نغمة من الاحتقـار لم أتمالك أن يرن صـداها فى قلبى .. » « انى لآسفة اذ أقول ان كلمة يهودى لم تزل نتنة تزكم أنوف العرب بقدر ما تزكم أنوفنا » .

٦ - ثورة ومذبحة فى جاو

رسالة لها فى ١٣ مارس سنة ١٨٦٥ تكتبها لوالدتها :

ولنذكر أنها كانت تقيم فى الأقصر ، وان الاشاعات وأقوال الناس كانت تترامى اليها ، وأنهـا كانت تشفق على الفـلاحين أولا وقبل كل شىء .

ولنذكر أيضا أن أية ثورة وأية مذبحة حدثت فىالتاريخ كان وراءها عدة عوامل متشابكة الأطراف لا يمكن للبـاحث أن يفرد واحدة منها . كان الريف مصـطرعا لطبقات مختلفة : فهناك العربى الذى يتحكم فيه التركى ، وهناك قبائل من أهـل النوبة وأهل السودان مثل البشارية والعبابدة ، وهناك المسـلم

المعتدل المتسامح ، وهناك المسلم المتعصب االذى يدعى الولاية. ويقيم حربا شعواء مستغلا انفعالات العامة على الأوروبيين والمسيحيين . وهناك الفقر قبل كل شيء ، وكان الفقر نتيجة الظلم . وليست رسائل « لوسى دف جوردون » عن ثورة جاو ومذبحتها الا سجلا لحلقة قصيرة من حلقات الفقر فى تاريخ الأجيال الجائعة ، ولكن اشترك فى اثارتها عديد من العوامل التى حاولنا أن نجملها .

كانت سنة ١٨٦٥ سنة حزينة حقا فى تاريخ هذه البقعة من الريف المصرى ، وكانت بلدة صغيرة اسمها « قاو » أو « جاو » على مدى غير بعيد من الأقصر هى مقر ثورة بدأها درويش من « السلمية » ــ وأعقب هذه الثورة مذبحة قامت بها الحكومة فأهلكت الحرث والنسل فى جاو نفسها وفى ثلاث قرى حول « جاو » .

وقد ترامت الى سمع « لوسى » الأنباء الاولى لهذه الثورة فقيل لها ان سفينة بروسية قد اعتدى عليها الأهلون وأحرقوها ، وقتلوا كل من كانوا عليها ، وأن عشرا من القرى قامت بثورة معلنة ، وأن «أفندينا» بنفسه قد جاء وأمسك بمكنسة كنس بها الثائرين كنسا ، أى أنه استأصل كل الأهلين استئصالا . !

وتمضى فى رسالتها تسرد القصة فتقول : « وتظهر الآن

الحقيقة فهى كل ذلك ، ويبدو أن درويشا ملتاث العقل هو الذى أحدث هذا الاضطراب • وكان قد سار سيرة أبيه ، اذ كان أبوه قبل ذلك بثلاثين سنة درويشا أيضـــا ، وكان له اسم فى تلك النواحى ، واستطاع أن يبلغ مرتبة « الدرويش » بأن ردد أحد الأسماء الحسنى مثل « يا لطيف » ثلاثة آلاف مرة كل ليلة لمدة ثلاث سنوات • وقد جعله ذلك محصنا، وصحب اخوانا من الجن• وعلمه هؤلاء كثيرا من الحيل ، فتعلم ما كان يفعله بعض الحواة فى « داقنيورت » من التخلص من قيود الحـديد مهما كانت ثقيلة » •

« وخدع أهل الصحراء بأن ادعى أنه المهـــدى المنتظر ، وأعلن ثورة ضد الأتراك • واشترك فى هذه الفتنة ثلاث قرى قبل قنا هى : جاو وريانة وبيده • وجاء « فاضل باشا » فى مراكب بخارية ، وأحرق القرى ، وقتل زهاء مائة رجل ، ودمر الحقول تدميرا ــ وكنا قد سمعنا فى أول الأمر أن عدد القتلى كان ألفا، ولكنه الآن أصبح مائة فقط ــ أما النساء والأطفال فسيوزعون على سائر القرى • وقال بعضهم أن الدرويش قد قتل ، وقـال آخرون بل هرب الى الصحراء مع عديد من البدو وقليل من فلاحى القرى المجاورة التى كانت غرضا للتخريب • و « جاو » مكان واسع وأحسب أنها فى سعة الأقصر • و « الدرويش » من أهل السلمية وهى بلدة قريبة من هنا • وقد جاء أمر الحـكومة

فقبضوا على أخيه ـ وهو رجل هادىء الطبع جدا ـ ثم قبضوا على أبى حميه « الحاج سلطان » ورحلوا الاثنين الى القاهرة أو قنا ، لسنا نعلم أيهما ! ويظهر أن السفينة التى نهبت يمتلكها تجار من الأورام ، ولكن غاية ظنى أنه لم يضار أحد من راكبيها، ولم يتعرض الناس لأحد من الأوروبيين » •

«كان انبارون «كفنبرك» بالأمس هنا مع زوجه ، وقد شهدا نهب القرى من أوله الى آخره ، وقالا انه لم تكن هناك أية مقاومة من جانب الأهالى • وقد قتلهم الجنود رميا بالرصاص وهو يفرون هاربين • وشهدا الأغنام والأنعام والجنود يسوقونها الى المراكب سوقا » (ص ٢٠٨) •

وفى ١٥ مارس سنة ١٨٦٥ تكتب لزوجها كتابا آخر فتقول :

« عاد مساء أمس الشيخ « يوسف » من زيارة السلمية وهو يقول ان الدرويش « أحمد الطيب » لايزال على قيد الحياة • ويعتقد الشيخ « يوسف » أن هذا الرجل متعصب مجنون ، وأنه شيوعى !! فهو يريد أن يوزع كل الأملاك على الناس بالتساوى ، وأن يقتل كل العلماء ، ويهدم كل التعاليم التى يرشد اليها أهل الدين ، وأن يبشر بوحى جديد أنزل عليه يفسر به القرآن ! ويقول الشيخ « يوسف » مشيرا الى ساعتى:

انه مثلا يرى أن تحطم ساعتك الجميلة هذه ، وأن تقطع قطعا توزع كل قطعة منها على رجل من الرجال ــ وقولى مثل ذلك عن كل شىء آخر » .

« ألح على أحد التراجمة أن أنجو بنفسى فأغادر المكان، ولكن « يوسف » ضحك من كل فكرة تشير الى هذا الخطر . وقال فى ذلك ان الناس هنا طالما حاربوا البدو من قبل ، ولن يعتدى عليهم حفنة كالذين عبروا الى الجبال ، ثم ان الحجاجيةـ أى آل « أبى الحجاج » سيختمون على أننى أخت لهم ، وسيدافعون عنى ، وسيطالبون بدمى كما يفعلون اذا أصيب أى فرد منهم . ثم ليس من الحكمة فى شىء أن أذهب وحدى فى بلاد مضطربة، على قارب صغير حيث لايعرفنى أحد . وقد سمعنا أن الباشابنفسه عند « جرجا » فى بواخر وجنود ، فاذا خشينا مكروها فسوف يرسل فى طلب الأوروبيين ! » .

« ان الذى يحزننى انما هى تلك القرى المسكينة التى صودرت أملاكها الصغيرة ، وقتل فلاحوها الأبرياء رميا بالرصاص وهم يحاولون الفرار ، وأسر « الحاج على » أن السخط على الحكومة عميق شامل ، وأن ذلك لابد أن ينتهى بثورة لم يحن حينها بعد . ان محاولة الباشا أن ينظم أسعار الأطعمة بقرارات حكومية كانت نتيجتها كارثة مفجعة . ولا شك أن الأسعار التى أدت الى هذه المجاعة فى الوقت الحاضر تنسب اليه . فهو متهم

بأنه مسئول عنها . واذا أراد امرؤ أن ينفرد بالحكم ، وأن يجمع كل القوى فى يده فلا بد أن يتحمل عواقب الفشل » .

« ولا أعتقد أن الأهلين سيقومون بثورة ـ فانى أعتقد أن الناس اعتادوا الصبر واحتمال الأذى من ناحية ، والطاعة والاذعان من الناحية الأخرى : الى حد أنهم لا يستطيعون لهما دفعا . ثم أنه ليس بين الأهلين فى هذا البلد وسائل للمواصلات وتستطيع بواخر الحكومة أن تجرى فى النيل شمالا وجنوبا فتقضى على كل بادرة للثورة وهى فى المهد . والبلد طولها ثمانمائة ميل وعرضها يتراوح بين ميل واحد وثمانية أميال ولا يستطيع القيام بثورة الا القاهرة ، ولكن كل شىء فى القاهرة ميسر على حساب أهل الريف » (ص ٢١٠) .

★ ★ ★

ذلك ما جاء فى خطابها بتاريخ ١٣ مارس سنة ١٨٦٥ .. ويبدو أن الثورة كانت تتفاقم ، وأن مذبحة الأهلين كانت على قدم وساق . ويبدو كذلك أنها كانت تكتب لوالدتها وزوجها حتى تبين وجهة نظر الفلاحين فى هذه الثورة للقائمين بالأمر فى الحكومة البريطانية . كذلك اتصلت بابنتها « جانيت » ـ وكانت مراسلة جريدة التيمز فى القاهرة ـ لتدافع عن الفلاحين الذين اعتبرهم القوم ثوارا ، ولكن لم يصلها من زوجها ولا من

ابنتها ما يفيد بأنهم يدركون لهذا الأمر خطره . ويبدو أنه لم يكن الرأى العام الانجليزى مستعدا فى سنة ١٨٦٥ أن يقدر جانب الأهلين ، فقد خرجت انجلترا من فتنة الهند سنة ١٨٥٧، وهى لا تؤمن بحق الهنود والمسلمين منهم خاصة ، وحسبوا أن الأمر لا يعدو فى هذه الثورات أن تكون انتفاضات يمليها التعصب الدينى .

وفى ٣٠ مارس سنة ١٨٦٥ تكتب الى زوجها: «لقد تسلمت الآن خطابك المؤرخ فى الثالث من مارس ، وفى نفس الوقت تسلمت خطابا آخر من « جانيت » . ويدل خطاب « جانيت » على أن أمر استئصال أربع قرى فى هذا البلد أمر — عندها — غير ذى بال . فانها تشير فى كتابها الى ثورتنا وكأنما لم تسمع بها » .

« اننى لا أستطيع أن أرسل اليك الا الشائعات التى تصل الى . ولا شك أن فى القاهرة — والاسكندرية — صيغة أخرى لهذه القضية ، تدور على ألسنة القوم . ولعل هناك من الحقائق ما لم أسمع به . لكننى أعيش بين القوم المظلومين ، ولا يمكن الا أن يثير ذلك فى نفسى رحمتى العميقة بهم فأميل الى جانبهم كل الميل » .

« والحقيقة فى كل ذلك لم تعرف بعد ، ولكنى أعلم أن

أحد الباشوات قد ادعى أنه قتل خمسمائة ، وأن آخر من هؤلاء الباشوات أرسل ثلثمائة الى « فازوغلى » : وكل ذلك من أجل سرقة سفينة للأروام ، لم يمت من ركابها الا واحد فقط هو سائقها . ولست أرى من كل ذلك الا أن هؤلاء الثوار، قد نزحوا الى الصحراء متبعين هذا اللغو الذى أتى به ذلك الدرويش رجاء أن يتربصوا لفرصة أخرى مواتية . أما أولئك الذين قاموا بنهب المركب فلم يكونوا الا أربعين رجلا . ولكن أشد القصص بعثا للرهبة والفزع هى التى تحكى عن الفظائع التى اجترمها الجنود فى القرى البائسة . ويقولون انه لم يقتل كثير من الأهلين رميا بالرصاص ، ولكن الجنود اعتدوا على النساء والفتيات ، وأعملوا فيهن القتل ، وشنق الرجال ، وشحنت الأسلاب فى البواخر » .

« وأسوأ ما فى الأمر أن كل امرىء يعتقد أن الأوروبيين يبذلون المساعدة للحكومة ، والتحريض عليهم . والجميع يعلنون أن الأقباط قد أعطى لهم الأمان تقربا للافرنج . وأرجو أن تدرك أننى لا أنقل اليك حقائق مؤكدة ، ولكن حسبى هنا أن أنقل اليك ما يقوله الناس — حتى أطلعك على ما يشعرون به . ان شابا محترما جلس الى على أرض الحجرة ذات يوم ، وقص على ما سمعه من أولئك الذين جاءوا صعدا عن طريق النهر : وهى قصص مفزعة عن العفن الذى يفوح من الجثث التى أمر الباشا

بعدم دفنها فتركت فى العزاء من غير أن تدفـن ــ وعن نساء حوامل بقرت بطونهن .. الخ .. الخ » .

« قال الرجل : « أنت تعلمين يا سيدتى أننا أهل سـلام فى هذا المكان . وانظرى الآن ! فاذا قام مجنون وتبعه رجال عاطلون الى الجبل ، فان « افندينا » يرسل الينا جنوده ليدكوا المـكان دكا ، ويعتدوا على بناتنا المسكينات . فهل هذا حق ياسيدتى؟. الحق أنه ليس هناك قوم أبأس ولا أشقى من العرب ! ان الأتراك يضربونهم ، والأوروبيين يكرهونهم ، وينظرون الى ما هم فيه من شقاء ويقولون : « ان كل شىء على ما يرام » والله انه لجدير بنا أن ندفن أنفسنا أحياء فى هذه الأرض، وندعها للأغراب يمتلكونها ويزرعونها بأنفسهم قطنا . أما أنا ، فاننى متعب من هذه الحياة التعسة ويزيد من همى أننى خائف على بناتى الصغار » .

كان « محمد » ــ وهو الرجل الذى نقلت عنه هذا الحديث ــ فصيحا ، وحينما ضرب بكوفيته على وجهه ليكتم البكاء ، فاننى لا أستحيى أن أقول اننى بكيت لبكائه . لقد كنت أعـلم تمام العلم أن « محمدا » لم يكن مخطئا فيما قاله عن الأوروبيين: اننى أعلم ما تردده ألسنتهم من معان معادة مكرورة عن حـكم الشرقيين عن طريق الارهاب . وقد التقط الانجليز تلك الفكرة من الأتراك ، كما تقلد الببغاء الساخرة ما تسمعه من أفواه الناس

وأعلم أن الحكم يستلزم « العصا » و « الشدة » وغير ذلك ، ولكننى أعيش بين هؤلاء الناس ، وأعلم أن « محمدا » يشعر نفس الشعور الذى يحسه « جون سمث » أو «توم براون» اذا وجد أحدهما فى مكانه ، وأعلم أيضا أن الرجال الذين كانوا يحيذون شيئا من الوحشية ضد الثائرين عند أول قيامهم بالثورة: أعلم أن هؤلاء الرجال قد أصبحوا هم أنفسهم وقد طاف بهم شعور من الثورة ضد الأتراك ، وقد بدأوا يقولون كما يقول أى بريطانى أصيل أنهم قد ولدتهم أمهاتهم أحرارا . وهناك الكثير ممن يخشون على ثروتهم أن يمسها السوء ، ولكنهم على الرغم من ذلك يجاهرون بالسخط والاشمئزاز » .

« كانت الأحاديث تدور بين الثلاثة أو الأربعة الاوروبيين الذين يسكنون الاقصر ، وكادوا يتفقون على أن ينظموا دفاعا عن المسيحيين وحدهم ، وتخيل ما يبلغه ذلك من الحمق والاستفزاز ! لم يكن هناك ذكر للدين فى كل هذه المسألة ، وكان الحاكم بطبيعة الحال هو المسئول عن الدفاع . وقد كان هو و « مصطفى » وآخرون يختطون خطة يستخدمون فيها منزلى كقلعة يقومون فيها دون الثوار اذا أراد هؤلاء أن يزورونا . ولكنى لا أشك فى أن السبب الحقيقى لهذا الاضطراب انما هو الجوع وأسعار الطعام الغالية . وليست هذه الا شبيهة بالاضطرابات التى ثارت فى انجلترا من أجل الخبز ــ فلا تعدو

المسألة أن تكون كذلك : وحتى هذا الاضـــطراب لم يبلغ من الفداحة حدا كبيرا » .

« ويدهشك أن ترى ذهبيات السائحين تحمل الأوروبيين جيئة وذهوبا كالمعتاد ، وهى بمنأى عن هذه الأحداث ، فـلا يهتمون بها ولا يحاولون التعرف عليها ، حتى كأنما هم يعيشون آمنين فى أوطانهم . وحينما أذهب لأجلس مع بعض الانجليز أحس بأنهم أجانب عنى ، فقد أصبحت « بنت بلد » بالتمـام والكمال » .

« الكسندر » ! نحن هنا أشقى ما نكون ــ نحن الفلاحين .. فقد بارت الأرض لانها عطشى ، والحيوانات هياكل عظمية، والناس جياع ، وهبطت علينا حرارة الجو كأننـا فى يونيه ، والوباء هنا وشيك الوقوع ، ومذبحة « جاو » ــ قبل كل شىء ــ قد زرعت المرارة فى النفوس فلا زغاريد نسمعها ، والوجوه كالحة يخيم عليها الحزن والكآبة . ولن أدهش اذا حــدثت اضطرابات أخرى. فى بدء هذا الشغب كان الناس ساخطين سخطا جما على « أحمد الطيب » وأتباعه ، ولكن لما كانوا قد لقوا هذه المعاملة الرهيبة ، فاننا الآن نشفق عليهم ونرثى لنسائهم وأطفالهم المساكين . ان هذه الاجراءات الشديدة قد تسبب الشر الـذى أريد بها أن تعاقبه . أنت تعلم أننى لست شارية ولا بائعة ، ولا

أنا ذات مال فأقرضه أو أمنحه ، فلا يحرص أحد منهم هنا على أن يخفى عنى مشاعره ، والناس يتحدثون معى حيث أذهب • كم أود لو أن أفندينا يستطيع أن يسمع قليلا مما أسمع ! فلست أشك أنه يجهل كثيرا مما يرتكب باسمه » (ص ٢١٤) •

« ومن « السلمية » وهى تبعد ميلين الى جنوب الأقصر قبض على كل من يمت بصلة الى « أحمد الطيب » : سواء أكان رجلا أم امرأة ، أم طفلا ، وقيد بالأغلال وأرسل الى « قنا » ، ولا يتوقع أقاربهم أن يعود أحد منهم • ومن هؤلاء قوم يمتازون بالطيبة وحسن السمعة ــ وسمعت بعض الناس يقول : « اذا كان مصير « الحاج سلطان » وكل أسرته هو القتل ، فاننا لن نعمل شيئا ذا قيمة بعد اليوم ، لأن ذلك يعنى أنه لا جدوى من العمل الطيب ! » •

« رأيت الساعة رجلا قادما من « جاو » ، وهو يقول انه رأى بعينى رأسه ألفا وأربعمائة رجل تقطع رءوسهم ، وأن مائة ارسلوا الى « فازوغلى » على احدى البواخر ، وأن « أحمد الطيب » قد استطاع الفرار ، وأظن أن الرجل الذى أبلغنى كل ذلك صادق القول • وقال لى ان الباشوات المحليين قد اقترفوا كل أنواع القسوة ، وأن الوالى أصدر أمرا بالكف عن تلك المذبحة حالما ترامت الى سمعه أخبارها » •

ولا تمضى الا أيام أربعة على هذا الخطاب حتى تكتب خطابا آخر فى ٣ أبريل سنة ١٨٦٥ تتم فيه قصة الثورة والمذبحة فى « جاو » ، لكنها فى رسالتها هذه تتناول عنصرا اجتماعيا ملففا فى ثوب دينى • فيظهر لها أن هناك قصة لجارية مسلمة اشتراها مواطن قيطى • وكان هذا من أصل البلاء :

« سأمضى فى سرد القصص الخاصة بهذه المشاغبات • هنا أحداث وقعت منذ أسابيع قليلة ، وفى نطاق لا يتجاوز الستين ميلا • لكنها قد لبست بالفعل لبوس الأساطير • حادثة أخرى تذكر وقائعها كما يلى : كان لرجل قبطى جارية مسلمة تحفظ القرآن الكريم وتقوم بخدمته ، ولما أراد أن يتخذها رفيقة فراشه امتنعت عليه ، وذهبت الى « أحمد الطيب » وأعطاها هذا مالا تشترى به نفسها من سيدها ، لكن سيدها رفض هذا الحل وتمسك بحقوقه ، وساندته الحكومة فى ذلك ، وعند ذلك أعلن « أحمد الطيب » الثورة ، وانتفض الناس وراءه مدفوعين بثقل الضرائب والظلم • وقالوا له « سنتبعك أنى ذهبت ! » ولا يزال « أحمد الطيب » حيا ! أما الرصاص الذى ينهال عليه فهو لا يؤثر فيه ، ويقولون أنه لا يخلف فى جسمه الا آثارا طفيفة كالحروق ويقولون أيضا انه لا يزال يعيش فى الجزيرة ، خفيا لا تراه أعين الجنود الأتراك الذين لا يزالون رابضين هناك ، هذه هى القطعة

الدينية الوحيدة التى يمكن أن تكشف الغطاء عنها فيما يتعلق بهذه الأسطورة » .

★ ★ ★

ولعل الأساطير جميعا بدأت مثل ذلك . ولعل العنصرالدينى هنا كان من بين العوامل التى سببت هذه الثورة ، أو قل لعلها كانت الشرارة الأولى التى أشعلتها . لكن الفقر والظلم والعسف والجور كانت جميعها فى ركاب الحاكم . ولو أن هذا المجتمع كان مجتمعا يسيرا متسامحا يسوده العدل لمرت حادثة الجارية المسلمة والسيد القبطى كما مرت مئات الحوادث المشابهة فى هذا المجتمع الملىء بالمتناقضات .

٧ـ في أعقاب الثورة

اشتهرت «لوسى دف جوردون» فى تلك المنطقة بأنها كانت تعطف على الثائرين . وعلم رجال الحكم أنها تترصد لهم حركاتهم وسكناتهم . وغالب الظن أن « أفندينا » نفسه لم يكن قد سمع بها ولا بجهودها ، لكن الباشوات المحليين ــ فى غالب الظن أيضا ــ كانوا يتوجسون خيفة مما تذيعه عن أعمالهم . وأحست « لوسى » فيما أحست أن خطاباتها تفض وتقرأ ، وأن بعضها لا يصل أصلا الى غايته . وفى نفس الوقت كان بعض المعاونين من أهل البلد يغذونها بالأخبار والاشاعات . وكان هؤلاء المعاونون اما من شيوخ البلد أو الفلاحين أو من العامة أو من بعض الشراكسة الذين كانوا يتولون الحكم فى الأقاليم .

كان « الشيخ حسن » شيخ العبابدة ـ هو الذى أبلغها أن عدد ضحايا مذبحة « جاو » قد بلغ ١٤٠٠ ، وتحدثنا عن موقف « الشيخ حسن » فتقول : « انه كان قد سافر الى « جاو » ليأتى بالأسرى • ووقفت السفينة محملة بالأسرى ميلا بعيدا عن الأقصر •• وكان قد ركبها « محمد » ـ وهو من أعرف فيه الصدق ولا أعرف أنه ينساق وراء الخيال ـ أقول كان قد ركبها عند « المطاعنة » ، ورأى كل من كان فيها • وفى جولة لى على حمارى الصغير لمحت المركب الى جانب الجزيرة ، ولكن ما ان اقتربت منها حتى أسرعت الى طرف الجزيرة ، وبعد أن أرجعت البصر اليها ظننت أنها مركب للعبيد • »

وتمضى بعد ذلك فى رسالتها فتقول : «ولم يكن يخطر ببالى ساعتئذ ان البك الذى على ظهر المركب كان يهرب من امرأة وحيدة تمتطى حمارا ! ، فقد أمر «شيخ العبابدة» ألا يخاطبنى وألا يدعونى الى ركوب المركب • وأمر القبطان أن يبتعد عن الشاطىء ميلا أو ميلين • وأبلغنى « محمد » أنه كان على المركب مائة سجين الا اثنين ـ كان منهم مدير « سوهاج » وهو تركى مصفدا بالسلاسل ، ومكبلة يداه بقيود من الخشب • وقد أحضر له « محمد » قهوة وكان كريما معه • وقال « محمد » ان هذه المخلوقات البائسة كانت تلقى سوء المعاملة من جنود العبابدة والنوبيين » •

« كل ما تلوكه ألسن القوم يثير دهشة أكثر ما يستطاع. ان المرء ليشعر أنه قد انتقل فى الزمن أربعة أو خمسة قرون مضت لولا أن هناك عناصر من مخترعات العصر الحديث كالبواخر ، والتلغراف الكهربائى ــ ثم ذلك البك التركى الذى استولى عليه الذعر من قلم سيدة انجليزية ــ فان « محمدا » على الأقل قال ان سبب فراره كان ذلك السلاح : سلاح القلم . وما من شك أن الحكام يخشون عيون الأوروبيين ، لأن السفينة وقفت على بعد ثلاثة أميال من الأقصر، بعيدة عن الذهبيات الراسية على الساحل . وكان على بحارتها أن يحملوا اليها احتياجاتها طول هذه المسافة » .

تلك قصتها عن المراكب التى كانت تحمل المساجين من مديرين وسراة وفلاحين الى « فازوغلى » . وقصة أخرى تحكيها فى نفس الخطاب عن « خورشيد أغا » . وكانت قد ذكرته قبل ذلك فى معرض حديثها عن رجال الأمن الذين حكموا هذه الأصقاع . وكان الرجل شركسيا من سلالة المماليك ، وكان فى مذبحة « جاو » أحد الزبانية الذين استخدمهم « فاضل باشا » لاهلاك القرى .

تقول « لوسى » : « جاء « خورشيد أغا » ليودعنا اذ أنه نقل الى «قنا» . لقد كان فى «جاو» ورأى «فاضل باشا» وهو يأمر بأن يلقى على الأرض ستون رجلا ، على ظهورهم ، وأن تقطع

رءوسهم عشرة بعد عشرة بيلطات قطع الأشجار • وهو يقدر أن الذين قتلوا من رجال وأطفال ونساء ألف وستمائة ــ ولكن يقول « مونييه » انهم أكثر من ألفين • وقد أمن « الشيخ حسن » على تقدير « خورشيد » تأمينا تاما • وكان العربى ــ أى « الشيخ حسن » يقولها وفى نفسه كثير من الفزع ، أما الشركسى ــ وهو « خورشيد أغا » فكانت تمتلىء نفسه غبطة وسرورا • كان كلامه يذكر الانسان بطغاة الانجليز فى الهند الذين أطلقنا عليهم اسم « البانديت » • وكان فى هيئته وكلامه وضحكاته يشبه الجندى الانجليزى الصغير فى وجاهة مظهره •• واستحييت أن أشتمه مع أن كلمة « كلب » كادت تنطلق من لسانى ، وقد آثرت بها « فاضل باشا » بدلا منه • ولكن ينبغى أن أذكر ــ أن أبناء وطنى ــ فى الهند كانوا يجدون ما يستفزهم ، أما هنا فلم يكن هناك استفزاز على الاطلاق » •

ويبدو أن « لوسى دف جوردون » على الرغم مما كانت فيه من عناء المرض ، كانت تتخذ فى دفاعها عن الأهلين سبيلين : السبيل الأول أن تكتب لزوجها ووالدتها هذه الرسائل المفعمة بالأخبار ، وأن تكون رسائلها اليهما أساسا لنشر هذه الأخبار فى الأوساط الاجتماعية العليا فى « لندن » • وثانى هذين السبيلين أن تكتب لابنتها « جانيت » وهى مراسلة جريدة التيمز فى القاهرة حتى تنشر ابنتها الحقائق التى ترسلها اليها ، وحتى ترفع

الأمر للوالى كيما يهتز لهذه الحالة ويدرك ما يقترفه حكامه . ولكن يبدو أنها لم تلق الا قليلا من الاستجابة من الجانبين . فقد كان الرأى العام الانجليزى من مثقفين أو غير مثقفين متأثرا كما ذكرنا بفتنة الهند التى حدثت فى سنة ١٨٥٧، فهم يعتبرون أية ثورةفى بلد اسلامى نتيجة للتعصب الدينى، ثم كان التجارومنهم «هنرى رس» زوج ابنتها «جانيت» ـ لا يحفلون الا بالتسهيلات التجارية وكسب المال . أما السياسيون من الانجليز فقد كانوا يعملون لبناء أمبراطورية لا تغرب عنها الشمس ، ولم يكن يهمهم فى سبيل انشاء الامبراطورية لا العمال الانجليز أنفسهم، ولاعمال البلاد المتخلفة وفلاحوها ، ولم يكن تقربهم الى الدولة العثمانية الا تربصا بها حين يحيق بها الفناء . أما « اسماعيل » فقد كان سادرا عن الحكم السليم ، لا يهتم فى هذه السنين الا بالاستكثار من المال وتكديس القروض ، والتقرب للباب العالى حتى يغير من نظام الوراثة .

تقول « لوسى » فى أعقاب ثورة « جاو » : «لقد كتبت الى «جانيت» من القاهرة ، وهى تصور وقائع هذه الثورة بما يتفق والذوق الأوروبى . وهو تصوير فى واقعه شنيع ! . ان الباشا يتهم أحد مشايخ العرب بأنه سافر من الصعيد الى الهند ليثير فتنة ضدنا . ولست أرى لماذا لم يذهب هذا الشيخ الى « لندن » أو « باريس » حتى يحيك هذه المؤامرة الموهومة ؟ . انه كلام

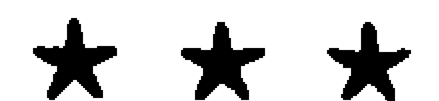
يشف عن منطق أمعن فى السذاجة من منطق الأطفال • فهل يعقل أن صعيديا فقيرا يرحل من وطنه الى بلاد لا يعرف لغتها ولا أرجاءها ليتآمر على قوم لم يمسسه ضرر منهم ؟ لك أن تتصور الأحاديث التى تدور بينى وبين « الشيخ يوسف » عن كل هذه الأمور ! » •

وتكتب الى « جانيت » خطابا بنفس التاريخ : « ان القصة التى حكيتها عن المذبحة لتثير دهشتنا هنا •• لقد رأيت بعينى رأسى سفينة أخرى محملة بالمسجونين ، كم أود مخلصة لو أن الوالى « اسماعيل باشا » يدرك مدى الغضب العميق الذى يثيره أعوانه • لست أرغب فى أن أكرر ما أسمع ، ولكن يمكنك أن تقدرى هذا الغضب اذا علمنا أنه هو الذى يدفع أكثر الناس نفوذا فى هذه البلدة وأشد المسلمين تقوى الى أن يقولوا : «نحن مسلمون حقا !! ولكننا سوف نحمد الله لو أنه أرسل الينا أوروبيين ليحكمونا ، فان الشعور هنا ضد الأتراك لا ضد المسيحيين » •

« لى صاحب قبطى فقد كل أبناء عمومته فى « جاو » ، لقد قتل الجميع رميا بالرصاص يستوى فى ذلك الأقباط والمسلمون • أما عن « الحاج سلطان » الذى صفد بالأغلال وسيق الى « قنا » ــ وأسرته التى أخذوها الى « اسنا » ــ فاننى لم أر رجلا خيرا منه ، ولا أكرم فى معاملته للمسيحيين،

لقد أكل الأقباط على موائده كما كان يفعل المسلمون • وهو لا يزال قابعا فى « قنا » لأن بينه وبين « أحمد الطيب » نسبا بعيدا • والسبب الحقيقى فى القبض عليه أنه رجل ثرى ، وأن خصماله يطمع فى بضائعه • كل ذلك يمكن أن يؤكده لك مسيو « مونييه » • ولعلنى أكثر منه علما بمشاعر الناس ، لأننى أكاد أكون ابنة تبناها آل « أبى الحجاج » • وأجلس كل مساء الى عدد من أعز الرجال عندى ، وهم يتحدثون أمامى فى صراحة مطلقة » •

« ان « القاهرة » تشبه « باريس » شبها تاما • فان كل الأنباء توضع عندكم فى موضعها من الأسرار • أما هنا ! لا شك أن « أفندينا »يتقبل التنبؤات الناعمة التى يلقنها اياه الحكام الظلمة ممن يرسل بهم صعدا فى النهر الى هنا • لما كنت أكتب من قبل كنت لا أعرف شيئا على وجه اليقين • ولكن فى حوزتى الآن أقوال لشهود عيان • وأقول ـ بعد كل ذلك : ان الباشا اما أن يكون خادعا أو مخدوعا ـ وانما أرجو أن يكون مخدوعا ـ فقد صدر منه أمر أوقف ذبح نساء وأطفال كان « فاضل باشا » يريد أن يفعل بهم الأفاعيل » •



ثم تمس نقطة فى تاريخ الوطنية المصرية مازالت هى موضع التضارب طوال القرن التاسع عشر ، وشطر كبير من القرن

العشرين . تلك هي العلاقة بين المصريين كعرب ، وبين حكامهم الأتراك . كانت هناك علاقة دينية ، لأن الأتراك لم يسيطروا على مصر بفضل حق الفتح فقط ، بل لقد سيطروا عليها أيضا بحق علاقة الاسلام . ولكن اذا كان الأتراك أنفسهم لا يحسنون الحكم . ولا يتبعون العدل ، أفليس للوطني المصرى أن ينكر العلاقتين معا ؟ . ثم في هذا الجو الذي يغشاه الارهاب فهل لأولئك الحق في أن يلجأوا الى الأوروبيين ؟ كان هذا في نظرنا أسوأ وجوه السياسة التي دفعت بعض المصريين الى أن يتمنوا الحكم الأوروبي . حتى « الشيخ يوسف أبو الحجاج » نفسه سيشير الى أن قوانين الأوروبيين ستقيم العدل حيث كان الظلم.

وفي خطاب لها لوالدتها في ١٣ ابريل سنة ١٨٦٥ تقول « لوسى » : « قال لى شريف عظيم من أشراف الوجه البحرى في يوم من الأيام : ألست تعلمين أننى مسلم ؟ بلى ! ولكننى أدعو الله أرحم الراحمين أن يرسل الينا الأوروبيين ليحكمونا وينقذونا من هؤلاء الأوغاد ؟ . وكنا جلوسا بعد أن شيعنا جنازة أحد الأشراف . وكنت أجلس بين شريف الأقصر والامام ، وقبل هذا في حضور ثلاثين أو أربعين رجلا كلهم من الأشراف . ولم يقل أحد منهم « لا » بل آمن الكثير على هذا الكلام علانية » (ص ٢٢٤) .

« ان جنود الجيش يعسكرون الآن في الصعيد وهـذا

طاعون آخر شر من كل ما سبقه • ألم يكفهم أن قام القواسون ينهب الفقراء ؟ انهم يحددون الأثمان التى يبتاعون بها البضائع فى الأسواق ، ويضربون السقائين قبل أن يدفعوا لهم أجورهم، فماذا عسى أن يفعل الجنود هنا ؟ ان الضرائب تجبى بطرق غير مشروعة من الأراضى الشراقى التى لم تصل اليها مياه النيل مطلقا فى الفيضان الماضى ، والتى يعفى القانون أصحابها من دفع أية ضريبة ، وقد أوقع ذلك الناس فى حالة من اليأس • انى على يقين من أن اضطرابات أخرى وشيكة الوقوع ، وقد يقوم قائد آخر للرعاع مثل « أحمد الطيب » ويحض الناس على الثورة • ان نفسى لتضيق حين أقص كل يوم قصصا عن أنواع الظلم والنهب • فان كان عند رجل شاة فان المدير يهبط عليه زائرا فيأكلها ، وان كان يملك شجرة فانها تذهب الى مطبخ الناظر ، والسقا المسكين الذى يأتينى بالماء لا يقبض الا ضربا من القواس ثمنا لقربته — كل ذلك وعلية القوم — فى مصر وأوروبا — يشكون فيما يقوله هؤلاء المساكين ، يحسبون أنهم كذابون ، وانهم يخفون أموالهم عن أعين الرقباء » (ص ٢٢٦ — ٢٢٧) •

كان هذا وصفا لحالة البأساء التى تفاقمت حين اجتمع جنود الجيش الى القواسين ، فزادت الحالة ضنكا • والواقع أن ثورة « جاو » لم تكن نهاية فى نفسها بل لقد كانت بداية

للسنوات العجاف التي عاشتها قرى مصر فى عصر « اسماعيل » ـ وفى ٢٩ ابريل سنة ١٨٦٥ تكتب فى وصف هذه الحالة التى تزداد سوءا فتقول : « باخرة أخرى محملة بمساجين « جاو » مرت بنا • وقد تقبل الناس هنا ببعض الارتياح أنباء وصلتهم بأن « موسى باشـا » حاكم السـودان قد قضى نحبه • فقد تهامسوا قائلين : مات والحمد لله وسيتبوأ مقعده من النار ! » وليس بالأمر الهين أن يذهب مثله الى الجحيم ، فان دعوات هامسة مايزال القوم يسرونها فى هدوء حين يذكرون « فاضل باشا » •

« ربما حسبت أننى « ثائرة » ـ ولكننى أقول لك ان أغلبكم يظنون ان الذى أصـفه انما هو « الفوضى » ، وهو الفوضى بعينها حقا • وكلما رأيت مثـل هـذا الغبن انقلب العطف الذى أحسسته أول مرة الى موجدة عارمة • فاننى أعيش مع هؤلاء الناس وأرى الصورة بأكملها • وليس قليلا أن أغتفر للأوروبيين المسيحيين أنهم يضنون بعونهم ، مع أنهم يستطيعون أن يقضوا على الشر قبل استفحاله • ويبدو أن الأمر فى القاهرة يختلف اختلافا شديدا ـ وهو أشد اختلافا فى الاسكندرية ، فالنظام هناك هو نفس النظام الذى اتخذوه فى « فرنسـا » ، فالعاصمة يغدق عليها على حسـاب الفلاحين ، وأثمان اللحوم والخبز منتظمة كما تكون ـ أو كما كانت ـ فى « باريس » ـ

والطبقة الدنيا تتمتع بكثير من صنوف الاعفاء – مثل «فرنسا» تماما ! فالقاهريون يأكلون الخبز والفلاحون يأكلون العصا » .

« كان الناس يكرهون « مونييه » لأنه قدم الى هنا أول مرة وهو فقير معدم ، ثم أصاب قدرا من الثروة والقوة ، ولكنهم يباركونه اليوم ويقولون انه رجل يأكل مما يعمل ، ولا يلجأ الى كرباج المدير – وقد رفض أن يعسكر الجنود لديه بدعوى حمايته . ورفضت أنا هذه الحماية مثل ما رفض – وأدعو الله ألا يندم على ما فعل . لقد قال لى « الشيخ يوسف » فى ذلك « ان هذه الحكومة التركية لا تخشى عليك ضررا ، ولكنها تخشى أن نحبك نحن حبا أكثر مما ينبغى » . وهذا حق . فان صوتا واحدا يرتفع هنا وهو : « ليأت الينا الأفرنج ! وليكن القانون هو قانون المسيحيين ! »

« وفى القاهرة بدد الأفرنج هذه الآمال الموهومة التى صورها الفلاحون لأنفسهم ، فقد سار الأفرنج مسيرة الأتراك كما لو كانوا مأجورين على ذلك . ولعل الأهلين هنا كانوا مخدوعين فيما أملوا فيهم لأنه لا يأتى الى هنا فى الصعيد الا مسافرون عابرون يلعبون بالمال لا بالعصا . وهذه درجة من الكرم تحسب لهم ، ولكن فوقها درجات » .

« أخشى أن يدركك الملال مما أقول ، ولكن فلتغتفرى لى هذا العطف الغضوب الذى أحسه من أجل قوم أكرمونى اكراما

تاما . وانما أرجوك أن تنشرى شيئا من ذلك قد يفيد فى القاهرة .
وقد سألنى « يوسف » أن تطلع الجرائد الانجليزية على ما جرى
فى « جاو » . وهكذا يرى عالم من دار الاسلام أن يستغيث
بجريدة « التيمز » !! وتلك احدى علامات هذه الساعة . أليس
كذلك ؟ » (ص ٢٢٥) .

وحل عيد الأضحى فى مايو سنة ١٨٦٥ وكان عيدا كالحا ،
وأقام الأهلون حفلة ذكر عند مقام « الشيخ جبريل » . واجتمع
فى الذكر حكام القرية وفلاحوها ، وكان يتحدث المفتش بصوت
أجش فضـاقت به ذرعا ، ونزلت الى ساحة الذكر تستمع الى
المنشدين وهم يتخافتون تخافتا عجيبا : الله ! الله !

« وكنت أستند الى الحائط الطينى وأشهد هذه الأشباح
النحيلة وهى تترنح فى ضوء القمر ، فاذا فلاح طويل القامة ،
جميل الطلعة ، يقترب من ضريح « الشيخ جبريل » . كان يلبس
لبدة على رأسه ، ويحمل ملاءة على ظهره ملأى بالخبز الجاف :
مثال للمصرى !! وقف الى جانبى وأخذ يدعو الله من أجل زوجه
وأولاده . « ادع الله أن يرحمهم أيها الشيخ ! ، وأن يطعمهم
وأنا بعيد عنهم . أنت تعلم أن امرأتى قد سهرت الليل بطوله
لتخبز لى كل ما كان عندنا من قمح ، ولم يبق لها ولا لأولادى
شىء يقتاتون به » والتفت الى الرجل وأخذ بيدى ومضى فى
دعواته : « أنت تعرف هذه السيدة يا شيخ « جبريل » ! كتب

لها طريق العافية والسعادة الى دارها ، وردها الينا سالمة ــ الفاتحة يابشوشة » وقرأنا الفاتحة معا . وكدت أضع يدى على ضريح « الشيخ جبريل » ، وأنشج بالعويل ، وشكرته بقدر ما استطعت على أنه ذكرنى فى دعواته ، وهو فى هذه الحالة من الكرب . ولن أنسى ما حييت ذلك القوام المعتدل ، ولا الوجه الأسمر الوديع ، فى ضوء القمر فى ليلة الحادى عشر من ذى الحجة ، ولا ظل النخلة ، وهو يمتد فى نور القمر . وكانت كلمات الوداع التى دارت بخلدى : « ان ما يهتف به البؤساء تسمعها أنت ، أو ليس الله هو السميع المجيب » ؟ (ص ٢٣١).

***

كانت سنة ١٨٦٥ سنة حزينة فى تاريخ مصر . وقد أسلفنا كيف تحول الطاعون البقرى الى مجاعة ، وكيف أدت هذه المجاعة الى ثورة ، وكيف زادت الضرائب واشتد العسف بالفلاحين فى الصعيد وأرهقتهم السخرة ، ثم كيف تأثرت « لوسى دف جوردون » فكريا وجثمانيا بكل ذلك .

٨ـ الإفـــرنج

لم تكن اقامة « لوسى دف جوردون » فى الأقصر متصلة، بل لقد كانت تقضى شهور الصيف فى انجلترا ، وفى هذه الشهور تنقطع رسـائلها . وفى آخر السنة الحزينة سنة ١٨٦٥ قضت الصيف فى انجلترا . فنحن نرى فجوة فى رسائلها بين ١٨ يونية الى ١٣ أكتوبر من تلك السـنة . ولعل أحاديثها حينما التقت بذويها وبنى وطنها كانت مفعمة بتلك الآراء التى رددتها فيما كانت ترسله من خطابات خلال تلك السنة ، ثم لعلها أن قامت بمحاولة لاقناع الناس من حولها بسـوء الأحوال فى مصر . ولكننا لا نجد لذلك الا قليلا من الصدى فى مقالات « التيمز » أو فى المجلات التى كانت تعنى بالسياسة الخارجية . ولعلها من وجه آخر قد عادت الى مصر فى شهر أكتوبر سنة ١٨٦٥ وهى

تحمل بين جنبيها مرارة الفشل ، ولكن ذلك لم يكد يأخذ من عزمها على المضى فى التعاطف مع أهل مصر ، وفى النقمة على أهل أوروبا أو ما نسميهم نحن « بالافرنج » .

والواقع أن « لوسى » بعد أن اندمجت هـذا الاندماج الوثيق بالعرب من أهل الأقصر ، وبعد أن أعجبت بخصائص المسلمين ، كانت تنقم من الأوروبيين أنهم كانوا يعاملون الأهلين كأنهم أشباح أو خشب أو دمى ، ولا زالت تذكر الدرس الأول الذى تلقته من « هككيان بك » عند أول مقدمها الى مصر : وهو أن هناك فرقا بين العربى والتركى ، وان المصرى كان جديرا بأن تمهد له المعايش حتى ينتج ، وأن فى وجه العربى دائما نظرة من الكبرياء والاعتزاز بالنفس لا يمكن أن يغض منهـا حكم التركى ... ثم كانت لا تزال تذكر ان أساس تعصب المسلمين هو نفسه اعتداء المسيحيين عليهم ، والتنقص من قيمتهم ، وتذكر أن أحاديث الشـيخ « يوسـف » والشيخ « عبد الوارث » والقاضى : كانت جميعا تدعو الى التسامح الدينى . وبلغت ذروة هذه الآراء عندها حين أعلنت فى أكتوبر سنة ١٩٦٤ « اننى لا أحب المدنية كل هذا الحب » .

نعم ! كانت تذكر كل ذلك حينما عادت فى أكتوبر سنة ١٨٦٥ بعد قضاء الصيف فى انجلترا . واخترقت فرنسا واختلطت ببعض الفرنسيين فى « أفينون » فكتبت عنهم فى الثالث من

ذلك الشهر : « وعند « أفينون » اندس فى المركبة التى كنت أستقلها ستة من الفلاحين القذرين كان بينهم نساء ، وتفوح منهم جميعا رائحة الثوم ، وظلوا يبصقون و « يهرشون » رءوسهم بطريقة تشمئز منها النفس . انه ليس من العدل أن يدفع الانسان أجرة مكان فى الدرجة الأولى ، ويجد فى نفس المركبة صحبة من ركاب الدرجة الثالثة » .

وتظل فى القاهرة شهرين : بين أكتوبر وديسمبر من تلك السنة فتطلع على هذه البوتقة التى كانت تتقلب فيها أجناس من الخلق . فقد قيل فيما تورده الاحصائيات انه لم تأت سنة ١٨٧٠ حتى كان عدد سكان القاهرة ٣٠٠٫٠٠٠ نسمة من بينهم ٨٣ ألفا من الأجانب . وجاء أيضا فى كتب التاريخ أن أسباب هذه الكثرة من الأجانب أن خط السكة الحديدية بين الاسكندرية والقاهرة كان قد يسر للسائحين أن يفدوا الى مصر ، وأن كثيرا من أبناء الطبقة العليا من الانجليز والعلماء الفرنسيين كانوا يزورون مصر للاطلاع على آثارها ، وأن انجلترا نفسها كانت قدرت طريق السويس الى الهند منذ أن استطاعت أن تنقل جنودها عبر هذا الطريق لاخماد فتنة الهند فى سنة ١٨٥٧ ، وأن الحرب الأهلية الأمريكية وضعت أوزارها فى سنة ١٨٦٥ بالذات فاندفع كثير من الأمريكان لزيارة مصر سواء فى لبوس السائحين أو فى مسوح المبشرين ـ قيل هذا وذاك من الأسباب التى أدت

الى تدفق أولئك وهؤلاء الى مصر طفى هـذه الفتـرة ولـكن السبب الأول قبل كل هذه الأسباب كان التناهب الذى اختطه كثير من « الأفرنج » لكى يفوزوا من مصر بمزايا اقتصادية سواء من جهة التجارة أو الاشتراك فى مشروعات التعمير ، ثم فى افتعال الحيل للأخذ بالنصيب الأوفى من بلاد كانت تخرج من مرحلة الاحتكار الاقتصادى الى مرحلة سموها مرحلة « الحرية الاقتصادية » .

ولا بد لنا ـ قبل أن نمضى فى وصف التجارب التى عانتها حين لقيت شخصيات من الأفرنج فى الاسـكندرية والقـاهرة والأقصر ـ أن نذكر أنها كانت تؤمن « بالعنصر البريطانى » ، بل لقد كانت فخورة بوطنيتها الانجليزية . وعلى الرغم مما كالته لأبناء وطنها من تنقص واستنكار ، الا أنها كانت تذكر ما تسميه « العدل البريطانى » فى كثير من رسائلها وأحاديثها . كانت فى أحيان تتحدث عن حثالة البريطانيين الذين كانوا يذهبون الى الهند ، وأوغاد السادة الذين كانوا يظلمون الهنود ، الا أنها كانت تتمنى لو أن الانجليز يحكمون الهند بالعدل والقسطاس، وترحب بأى نبأ يشير الى تقدم الحـكومة البريطانية فى هذه الناحية . وتكتب رسالة من الاسكندرية فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٨٦٥ الى والدتها تقول فيها انها قابلت تاجرا هنديا مسلما من « بومباى » فى شبابه الأول ، ولم ينبس بحرف واحد لأحد

« من المسافرين الا لى ، وكان فى حديثه يشبه الشاب الانجليزى الذكى الذى أحسنت تربيته . وقد سعدت بالحديث معه فقد وجدت أن آراءه فيما يختص بالحالة فى الهند كانت مشجعة . ويظهر أنه مقتنع بأن أهل الهند يستولون بالتدريج على شطر أكبر من السلطة والنفوذ . ثم قال : « اننا نشكر لكم أنكم أتحتم لنا حكومة أفضل بكثير من أية حكومة كان يمكن أن يقيمها أبناء البلاد . ان لنا نحن المسلمين ميزة على الهندوس، وهو أنه ليس فى ديننا ما يحول دون التقدم من الناحيتين الاجتماعية والسياسية ، وبينى وبينك ليس هذا هو الحال فى دينهم — أعنى أنه ينبغى الا توجد مثل هذه الحوائل اذا طهر الدين من الخزعبلات والتعصب » (ص ٢٣٥) .

ونلاحظ أن الذى قال هذه الكلمات تاجر هندى مسلم ، وان المسلمين فى الهند — بزعامة « سيد أحمد خان » كانوا يمرون حينذاك فى فترة من المصالحة بينهم وبين الانجليز — بل لقد حاولوا التقرب الى الانجليز وطلبوا حمايتهم بعد أن نكل بهم الانجليز أنفسهم فى خلال الفتنة الكبرى فى سنة ١٨٥٧ وشبيه بهذا ما حدث فى مصر نفسها ، فقد تحدثت فيما أسلفنا ذكره مع قوم تمنوا لو يحكمهم « الأفرنج » فرارا بأنفسهم من الاضطهاد والحرب والعسف الذى تعرضوا له من الحكم التركى. وهذه الخاطرة التى مرت بخاطر بعض الناس قد تطورت فى

بعض الأوساط حتى لقد عرض عليها شيخ من العبابدة وآخر من البشارية ان يعاونوا انجلترا على غزو مصر ولعل هذا أن يكون أمقت وجه من وجـوه العـلاقة بين الحـكام الأتراك والمحكومين المصريين .

وتكتب فى رسالة لها فى ٣ من يناير سنة ١٨٦٦ لتقول : « ان اثنين من شيوخ البشارية والعبابدة قابلاها ذلك اليوم ، وجلسا معها فى حقل من الحقول ، وسألاها أن تتصل بالملكة، وأن تبلغها أنهم على استعداد أن يكونوا بعض جنودها اذا رأت أن تغزو مصر . ووضع واحد منهما يده فى يدها وقال لها : « ان فى يدك الآن ثلاثة آلاف رجل » . أما الآخر فانه يحكم عشرة آلاف . ثم قالا : ان هناك ثلاثين ألف عربى (أى بدوى) مستعدين أن يلحقوا بالانجليز ، فانهم يخشون أن يقوم الوالى بتسخيرهم والاستيلاء على أموالهم كما فعل بالفلاحين . واذا حدث ذلك فانهم سوف يقاتلون الى آخر رجل أو يهاجرون الى سـوريا » .

وتمضى « لوسى » فى هذه الحكاية فتقول لهما ان مثل هذا القرار لا يمكن أن تتخذه الملكة الا بعد أن يعرض على ٢٠٠ من الشيوخ . وهى تقصد بذلك مجلس اللوردات ، و ٤٠٠ من البكوات ــ وهى تقصد مجلس العموم .. وتختتم خطابها بأن

تحذر زوجها ألا يذيع مثل هذا النبأ ، ولا أن ينقله لابنتها « جانيت » ولا لزوج ابنتها « هنرى رس » (ص ٢٤٥) .

ويدل ذلك على مبلغ السذاجة التى كان يتمتع بها شيخ البشارية وشيخ العبابدة ، ويدل من ناحية أخرى على مبلغ ما كانت تكنه قبائل البشارية الذين كانوا يجوبون حدود مصر متاجرين فى الابل . وقد كان هؤلاء نوعا من البشارية الشماليين يسمونهم « أم على » تصاهروا مع العبابدة . ويذكر التاريخ أنه كان يسوؤهم من الزمن القديم دفع الضرائب، وكانت الحكومة السودانية تجد ـ الى عهد قريب ـ مشقة فى جمع الضرائب منهم لاتساع الرقعة التى يعيشون فيها ، وبعدهم عن مركز دفع الضرائب ، واختفائهم عن الأنظار فى معظم الأوقات ـ والحق أن هـذه الكلمات لا تدل الا على الولاء المقسم عند أولئك وهـؤلاء . وعندما غزا الانجليز مصر لم يجدوا معـاونة من الفلاحين ، ووجدوا الخيانة فى بدو لم يكونوا يسكنون الحدود فى جنوب البلاد .

***

ثم وجه آخر خاص بهذه العلاقة بين المصريين والأفرنج ، ذلك هو أمر السخرة التى ظلت قائمة يشقى بها الفلاح والأجير والعامل . ويقول التـاريخ انه فى ١٨ ينـاير سنة ١٨٦٣ ولى « اسماعيل » الحكم بعد أن كان عمه « سعيد » قد أقحم البلاد فى حفـر قنـاة السـويس بشروط مجحفة يظـن أن صديقه

« ديلسبس » هو الذى أملاها عليه • ومن هـذه كان شرط « السخرة » ، أو « العونة » : التى كان يلتزم الفلاح المصرى وفقا لها بأن يعمل فى حفر القناة لقاء قليل من الجزاء • وفى بريق السنة الأولى لحكمه شعر « اسماعيل » بالمدى الفادح الذى قد تؤدى اليه مثـل هذه الشروط ، فحاول أن يخفف منها • ويقول التاريخ ان الوالى الجديد اجتمع بقناصل الدول غداة توليه الحكم ، وخطب فيهم بلغة فرنسية سلسة قائلا : انه ينوى أن يلغى السخرة • فقام القنصل الفرنسى معقبا على ما قاله الوالى مذكرا اياه أن هناك عقودا بين مصر وبين « ديلسبس » خاصة باستخدام السخرة ، وأن قرار الوالى لن ينطبق على عمليات الحفر فى قناة السويس • وكان أن شجر خلاف بين «اسماعيل» و « ديلسبس » على الشروط المجحفة ومنها شرط السخرة : احتكم « اسماعيل » الى صديقه هو الآخر « لويس نابليون » ولكن كاد يكون الحكم الذى انتهى اليه هذا الأخير أشد اجحافا من الشروط نفسها • ذلك لأن الفرنسيين ـ ومنهم «لويس نابليون» نفسه كانوا يعتبرون ان مسألة حفر قناة السـويس بضعة من الكرامة القومية والكسب المادى • وعندما نقرأ رسائل « لوسى دف جوردون » نشعر ان السخرة لم تلغ لا فى حفر قناة السويس ولا فى انشاء السكك الحديدية ، ولا فى الكشوف التى قام بها فى السودان ، ولا فى تعمير القاهرة ، ولا فى تشييد القصور •

وان كانت هناك لوائح ألغت السخرة أو خففت منها فلم يكن ذلك الا بالاسم .

عادت « لوسى دف جوردون » الى الأقصر فى الخامس والعشرين من ديسمبر سنة ١٨٦٥ بعد أن قضت معظم خريف تلك السنة فى انجلترا ، فوجدت ان الحال فى الأقصر وما حولها قد انتقل من سىء الى أسوأ . وتقول فى رسالة لها عند قدومها الى الأقصر : « من مديرية قنا وحدها أخذ ٢٥٫٠٠٠ رجل ليشتغلوا ستين يوما من غير طعام ولا أجر . وعلى كل رجل أن يحضر سلة طعامه ، وعلى كل ثالث رجل أن يحضر فأسا بدلا من السلة . فاذا أردت أن تدفع « بدلا » لابنك الذى تحبه أو تشفق عليه ، فعليك أن تدفع حوالى ١٠٠٠ قرش : ٦٠٠ على الأقل « بدلا » للولد نفسه ثم ٣٠٠ أو ٤٠٠ « بدل طعام » . وقد ذهب من الأقصر وحدها ٢٢٠ رجلا . وأغلب الظن أن سيقضى ثلث هؤلاء نحبهم من الشتاء والتعرض للبرد ـ والجو بارد فعلا على غير العادة . ومعنى ذلك أن هذه القرية الصغيرة ـ وعدد سكانها ألفان من ذكر وانثى ـ وهم هنا لا يحصون النساء تأدبا منهم : أقول ان هذه القرية الصغيرة سوف تدفع من ساعات العمل ما يقدر بمبلغ ١١٢٠ جنيها استرلينيا فى ستين يوما ، وقد سلب منا الى الآن أحد عشر جملا رحلوا بها الى السودان ، وثمن الجمل الواحد من ثمانية عشر الى أربعين جنيها » .

ولنمض معها الى « بيت فرنسا » حيث الشرفة العالية التى تطل على النيل . وقد أصبح لهذه الشرفة تاريخ : اذ أنها كانت لها برج المراقبة . وفى هذه الشرفة بالذات كانت ترى الدهبيات وهى تمخر عباب النهر . كانت ترى أفرادا من الأروام والمالطيين ، وغيرهم من حثالة البحر الأبيض المتوسط، كما كانت ترى كثيرا من الانجليز . ثم انها تذكر يوما من أيام يناير سنة ١٨٦٤ حين رست الى جانب الأقصر دهبيات كان فيها جماعة من الانجليز وفعلوا فى الأقصر ما فعله اخوان لهم فى « دنشواى » بعد ذلك بأربعين سنة أو يزيد . ويبدو أن الانجليز فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كانوا مغرمين بصيد الحمام !! .

وتكتب « لوسى » فى ٢٩ يناير من تلك السنة رسالة تقول فيها : « طلب الى الساعة رجال فقراء أن أتحدث الى بعض السياح الانجليز فى شأن صيد الحمام ، فان صيدهم الحمام يدل فى نفسه على عدم المبالاة من جانبهم ، كما أنه فى غالب الظن نتيجة لغلطة الخدم والتراجمة فلم يجرؤ أحد من أولئك ولا هؤلاء أن ينبه سادته الى أن هذه الحمائم ملك خاص للفلاحين . وفى نيتى أن أعلن تنبيها بذلك على منزلى. وهنا حيث يرسو على الساحل ثمانية أو عشرة مراكب لمدة ثلاثة شهور تباعا يتكبد الفلاحون خسائر فادحة بسبب صيد

السائحين حمامهم . أما قنصلنا « مصطفى أغا » فهو لايقول لهم شيئا خوفا منهم . لقد سمحت لجيرانى أن يقولوا بأن هذا الحمام ملكى ، حيث أن أسرابه تعشش فعلا فوق منزلى .. واذنت لهم أن يقولوا أن الست تعترض على أن تصاد دواجنها، وخاصة أننى رأيت بعض هذا الحمام تصيده بنادق الصيادين فى شرفتى ، بينما كنت جالسة فيها » (ص ١٢٢ ــ ١٢٣) .

وتجلس معها فى هذه الشرفة فتمر أمامنا بواخر تقل عددا كبيرا من الأروام والايطاليين والمالطيين ، كانوا جميعا وراء الربح بأية سبيل . كانت البواخر القادمة من القاهرة محملة ببضائع « أفرنجية » يفتن بها الفلاحون ، أما تلك التى تأتى من السودان فقد كانت محملة بالعبيد . وكان هذا الصنف من الافرنج هم أبناء آوى الذين يتناهبون ما عفت عنه السباع . وكان من أولئك الذين ذكرتهم فى كتابها بتاريخ أغسطس سنة ١٨٦٤ــ وهم الأروام الذين كانوا يتعقبون جامعى الضرائب ، فاذا أكره الفلاحون على دفع الضرائب ، ولم يكن معهم مال لجأوا الى هؤلاء « الافرنج » ليقرضوهم ما قل من المال بأفدح ما يكون من الفائدة ، أو اشتروا منهم زرعهم وهو لا يزال فى الأرض لم يستو على سوقه .. وهكذا فعلت «حرية التجارة» فى التنكيل بالفلاح المصرى كما فعل الاحتكار من قبل .

على أن هذه الحثالة من الأفرنج كانت جموعا لا فردية لها ولا شخصية ، ولم يؤلف بينها الا شهوتهم للتناهب . ولكن « لوسى دف جوردون » استقبلت فى بيتها قوما من الافرنج آخرين : تراوحت أفكارهم واتجاهاتهم ، وقلما اشترك أحد منهم فى تقديرها للمصرى الحديث . كانت فى أوروبا اتجاهات الى ناحية الدراسات الفرعونية منذ أن نجح « شامبليون » فى حل رموز « حجر رشيد » ، واكتشف أهل الأدب منهم أن « هوميروس » قد أشاد « بطيبة » وما فيها من حضارة سامقة فذكروا مصر القديمة فى دراساتهم الكلاسيكية . واهتم أصحاب الآداب القديمة بالآثار المصرية . وأصبح الطراز الفرعونى نفسه فى المبانى شائعا فى لندن ، وكان نهر النيل موضوعا تنافست فى الاشادة به أخيلة كبار الشعراء الانجليز . لذلك كانت « الأقصر » مثابة يحج اليها العلماء ممن يقدرون الآثار الفرعونية لذاتها ، كما كان يحج اليها الرسامون من مختلف بلاد أوروبا ، وكانت الأقصر كذلك مقصدا لعلية القوم ممن شغفوا بالسياحة والترويح عن النفس . وكان « بيت فرنسا » مضيافا مفتحة أبوابه للاوروبيين والامريكيين المارين بها .

فى مارس سنة ١٨٦٤ زارت معبد الكرنك فلقيت هناك رساما المانيا اسمه « دماشين » يحاول فك طلاسم الدين

البحرى ، وفى ابريل من نفس السنة زارها ابن خالتها « أرثر تيلور » فصحبته الى معبد « فيلة » أى أنس الوجود ورسام فرنسى آخر اسمه « مسيو بران » وقد رسم لوحاته للمعابد والآثار أعجبت بها اعجابا تاما فأرسلتها الى ذويها فى « لندن » وبعد سنة ١٨٦٥ ــ حين وضعت الحرب الأهلية الأمريكية أوزارها ــ تدفق الأمريكيون وكان منهم من قرأ رسائلها التى طبعتها ونشرتها والدتها الى تلك السنة • وفى مارس سنة ١٨٦٥ زارها « كثنبرنك » والبارونة زوجته وشهدا ثورة «جاو» فى ابانها •

على أن فئات أخرى من هؤلاء لم تكن رحلاتهم خالصة للعلم : بل كان فيها عنصر سياسى ــ وكان من هؤلاء مثلا « وليم جيفورد بلجريف » (١٨٢٦ ــ ١٨٨٨) الذى ارتبطت به ونازعته عبدها « ميروك » • وليس « بلجريف » عندنا الا مثالا لبعض أولئك الذين كانوا يرتادون انحاء البلاد العربية فى منتصف القرن التاسع عشر ويكتبون عن رحلاتهم • وعلى الرغم من تمكنه من اللغة العربية تمكنا تاما ، وعلى الرغم من الترجمات التى قام بها ، الا أن تاريخ حياته يدل على مبلغ ما ينتظر منه اذا هو تحدث عن العرب والبدو والفلاحين • ويقول التاريخ ان « بلجريف » كان يهوديا خدم فى شركة « الهند الشرقية » بعد أن حاز على درجة جامعية فى « اكسفورد » ،

وترك الجيش ليصبح قسيسا كاثوليكيا ، وقام بالتبشير لحساب طائفة « الجزويت » فى الهند ، وسوريا ، وشبه جزيرة العرب » وحينما انتهى به المطاف الى « مصر » كان موظفا فى وزارة الخارجية البريطانية . وفى سنة ١٨٦٥ — أى خلال التحاقه بالقنصلية الانجليزية بالقاهرة — نشر كتابا عن « رحلة عالم فى وسط افريقيا وشرقيها » وأقرض « لوسى » هذا الكتاب . فهذا صنف من الأفرنج المثقفين الذين كانوا يرتحلون فى بلاد العرب . انه مارق عن دينه الذى ولد عليه وجندى وقسيس ومبشر ومستشرق ورحالة فى نفس الوقت .

وصنف آخر من أولئك الافرنج كان «ماريت بك» حينذاك و «ماريت باشا» فيما بعد (١٨٢١—١٨٨١) . ويقول التاريخ أن الحكومة الفرنسية كلفت«أنطوان ماريت» سنة١٨٥٠ بالذهاب الى « مصر » ليشترى لحسابها مخطوطات قبطية وسورية وعربية وأثيوبية . وعند مقامه بمصر شغل نفسه فى أن يستكشف ما جاء فى بعض التواريخ عن مقابر « العجل أبيس » فى «ممفيس»، وأفلح فى ذلك فكشف عن « السرابيون » . وفى سنة ١٨٥٨ أقامه الوالى « سعيد باشا » أمينا على الآثار المصرية ، وأمده اسماعيل فى أول ولايته بقوة من العمال المصريين عددها ألف وخمسمائة رجل لكى يقوموا بالحفائر على ضفتى نهر النيل .

ويبدو كل ذلك جميلا ! فان « ماريت » قد أسدى خدمة

كبرى للعلم والعلماء فيما يتصل بالعاديات القديمة ، لكنا نقف لنسائل أنفسنا هل كان « ماريت » على سمعته العلمية أمينا حقا على الآثار التى ائتمن عليها ؟ • وفى رسائل « لوسى » ما يشير الى أن العاديات المصرية قد نهبت وخرجت الى متاحف أوروبا ، وأن شبح « بلزوني » ــ وهو أكبر لصوص العاديات المصرية ــ كان لا يزال رابضا فى صعيد مصر • وكان العلماء وأهل الدين من أهل الصعيد فى الزمن الخالى يرون أن لجثث الموتى حرمة ينبغى ألا يهتك عليها الحجاب ، وكان الجهلة منهم يمرون بالآثار المصرية فيبصقون عليها تعففا منهم عن أن يدنسوا عيونهم بالنظر اليها • ــ أما فيما بعد اهتمام « الافرنج » بهذه الآثار ، فقد أدرك التراجم قيمتها ، وواحد منهم أهدى « لوسى دف جوردون » حلية أثرية قيمة : قائلا لها لقد احتفظت بها واقدمها هدية لك قبل أن يسرقها « ماريت بك » !

ثم نقف مرة أخرى عند الألف وخمسمائة رجل الذين كانوا هم الايدى التى استخدمها « ماريت » فى التنقيب عن الآثار ، فهل أجرى على هؤلاء من الأجور ماكان كفاء مايقومون به من أعمال شاقة ؟ فى خطابات « لوسى » ما يشير الى أن الحكومة التى ألزمت هؤلاء بالعمل لم تهيىء لهم أسباب الرزق وكان أن لجأ « ماريت » الى قنصل انجلترا فى « الأقصر » مصطفى أغا فأمده هذا من جيبه الخاص بمال يبلغ الألف من

الجنيهات على أساس أن يرده اليه حين تأتى « مصاريف » الحكومة . ولم تأت مصاريف الحكومة فوقع بينهما خلاف أدى الى نقاش استخدم فيه « ماريت » أغلظ الألفاظ فشتمه وصفعه . فاستاءت لذلك « لوسى » وبعض الأمريكان فكتبوا للقنصلية الانجليزية والأمريكية فى ذلك ، ولم يأت مايو سنة ١٨٦٦ حتى كانت قد وفدت الى « الأقصر » لجنة مكونة من « بلجريف » ممثلا للقنصلية الانجليزية فى القاهرة ، و«ماريت» أمين الآثار المصرية وانضم اليهما من قبل الوالى موظف مصرى اسمه « مصطفى بك » ليحسم هذا الخلاف .

ولسنا نعلم كيف حل هذا الخلاف، ولكن الذى نعلمه ــ على وجه التحقيق ــ أن المبلغ لم يرد الى «مصطفى أغا» . وتقول « لوسى » فى خطاب لها الى زوجها فى ١٠ مايو سنة ١٨٦٦ ان « بلجريف » كان مسليا كعادته ، وكانت معرفته باللغة العربية تدعو الى الاعجاب ، ويقول الشيخ « يوسف » ان قليلا من العلماء المصريين هم الذين يعرفون الأدب أو دقائق النحو العربى والانشاء كما يعرفها « بلجريف » ، أما « مصطفى بك » فهو «حبوب» يعرف من اصدقائى «حسن» أفندى و « مصطفى بك شكرى » وآخرين ــ ولذلك فقد توطدت بينى وبينه الصداقة على الفور (ص ٢٥٨ ــ ٢٥٩) .

★ ★ ★

« انه ليملؤنى الخجل أننى تكاسلت عن الكتابة اليك ،

لا بسبب توعكى فقط بل كذلك بسبب ما تكشف لى من الحالة المفزعة التى وصلت اليها أمور « هنرى رس » . فقد دهمتنى هذه الأخبار عندما وصلت القاهرة ، فلم أستطع أن استجمع شجاعتى فأجلس للكتابة . وانما أرجو الآن أن يكون « رس » قد استطاع أن يتغلب على هذه الصعاب المخيفة . أليس من الغريب أن كثيرا من الأوروبيين الأذكياء قد انقادوا انقيادالسائمة وراء « بغل تركى » كل هذا الوقت ، وأنهم ما زالوا يشيدون بالمواهب الادارية التى توهموها فى مستبد شره ، ثم أصبح الصباح فوجدوا أنفسهم وقد سقطوا بين مخالبه ؟ . لقد حبست الأجور ، ولم تصرف المرتبات ولا المعاشات لثلاثة شهور مضت، ولم يدفع أجور الجند ولا العمال ، وقد فرض على الأهلين قرض مقداره ثلاثة آلاف من الجنيهات على كل واحدة من خمسمائة قرية . وعم البلاد الخراب والبؤس . وسمعت أن شيخ « الهوارة » المسكين ــ وهو سيد سادات جرجا قد أرسل الى « فازوغلى » وصودرت أملاكه . وقد أوشك الباشا على الافلاس . بل لقد أوقفت معاشات مقدارها ستون قرشا فقط لبعض العبيد الذين خلفهم « محمد على باشا » (ص ٢٦٣) .

ذلك ماجاء فى خطاب ارسلته من بولاق عند قدومها الى القاهرة فى ١٠ يولية سنة ١٨٦٦ . وهو يدل بتفاصيله على ظاهرة من ظواهر الامبراطورية البريطانية . وأنت تعلم انها

قامت فى بعض ماقــامت عليه • على الاســتغلال التجارى فى البلاد المتخلفة • ويحكى لنا التاريخ عن هــذه الشركات التى قامت بالاستغلال التجارى فى الهند والصين ـ والتى جاءت فى اثرهــا جيوش بريطانيا • وســواء اعرفت ذلك « لوسى دف جوردون » أم لم تعرفه ، فان نفس الظاهرة التى كانت تظهر فيما تفعله شركة « الهند الشرقية » فى «الهند» و «الصين» هى التى كانت تجتاح الاسكندرية والقاهرة • ولكن الذى حز فى نفسها هنا أن المســتغل « هنرى رس » زوج ابنتهــا ، وأنه كان من أولئك المغامرين الذين بنوا آمالا كبارا على الاستغلال التجارى•

كان « هنرى رس » وكيلا للشركة التجارية المصرية لنقل المتاجر وكان مجلس ادارتها فى لندن • وامتد خيال « هنرى رس » حتى زعم أن هذه الشركة ستبسط سيطرتها على مصر والسودان ، وأنها لابد أن تفيد أرباحا طائلة من وراء البضائع التى تنقلها البواخر فى نهر النيل • فرأس الماشية مثلا ، كانت لا تتكلف فى « السودان » الا جنيها واحدا ، وقد تباع فى مصر بعشرة أضعاف هذا الثمن • وعلى هذا الأســاس قامت الشركة وجمعت رأس مالهــا من المساهمين • وما أقبــل صيف سنة ١٨٦٦ حتى ظهـــرت أزمة أضرت بالشركة ضررا بليغــا وقضت عليها • وفى يوم اسمه « يوم الجمعة الأسود » فى ١١ مايو من تلك السنة حينما أغلق كثير من المصارف ، ازدحم على

أبواب الشركة فى « لندن » جمع كبير جدا من حملة الأسهم .
وكان «هنرى رس» مريضا فذهبت «جانيت» الى «لندن» لتبذل أية مساعدة تنقذ بها الموقف . وقد وجدت ـ كما قالت فيما بعد ـ أن أعضاء مجلس الادارة فى حيرة من أمرهم لا يدرون ما يفعلون . وكانوا يتهمون «رس» بأنه سبب البلاء . وكتب أحد مديرى الشركة فى « لندن » فى ١٤ مايو من تلك السنة « ان شر ما نعانيه هو أن وكيلنا فى « الاسكندرية » ويقصد « هنرى رس » قد أخذ على نفسه أن يؤدى امورا أكثر مما يستطيع معالجتها » .

ومهما يكن من أمر فقد استطاعت « جانيت » أن تأخذ تفويضا من الأعضاء أن تتحدث باسمهم ، وذهبت الى صديقها « هنرى ليارد » وكيل وزارة الخارجية ، وطلبت اليه أن يتصل فى هذا الشأن بالقنصل العام الانجليزى فى مصر ، وكانت النتيجة أن أعيد الى الشركة الجزء الأكبر من المال الذى كانت تدين به الشركة الحكومة المصرية ، وأرسل المبلغ الى «لندن» بعودة البريد .

وللباحث أن يستنتج من رسالة « لوسى » الى زوجها ، ثم من هذه الحقائق التى أسلفنها عليك ، بعض ما كان يحدث فى الحياة التجارية ، وفى العلاقات بين حكومة مصر وبين الشركات التى وفدت اليها فى هذه الفترة . وأول ما نلحظه هو

أن بلاد « الافرنج » كانت لها مصالح مؤسسة على أســس تجارية ، وأن الحكومة المصرية كانت تسمح للشركات أن تفرض سيطرتها على البلاد ـ فاذا نجحت فذاك والا فالحكومة مضطرة سياسيا الىأن تعوض هذه الشركات. ثم أين يكون «اسماعيل» من كل ذلك ؟ نحس أن « اسماعيل » كان هو الذى أغـرى هذه الشركات بالقدوم الى مصر ، لكنا لسنا ندرى أن كان قد علم فى سنة ١٨٦٦ أية هوة سحيقة كانت تتردى فيها البـلاد. وعندنا أنه لمتكن علاقته «بهنرى رس» وشركته الا مثلا للعلاقات التى كانت تنشأ بينه وبين شركات النهب والسلب التى تفاقمت آثارها بعد ذلك . فقد كان يهيىء لها كل سبيل . وكان يضع تحت تصرفها كل مرافق الحكومة ، وكانت دهبياته تروح بهم وتغدو بكل ما تتكلفه دائما على حساب الحكومة المصرية ، وكان هنرى رس وزوجه من الذين استفادوا من تلك الاريحية :

وجانبآخر يمثله اغتيال «الأفرنج» هو مهمة سير «صمويل بيكر » ونعلم من تاريخ هذه الفترة أن هذا الرحالة بدأ رحلته بكشف منابع النيل مع زوجته فى مارس سنة ١٨٦١ ، وبرهن على أن الخصب الذى يأتى به النيل انمـــا هو من رواسب الحبشـــة . وفى ديسمبر ســنة ١٨٦٢ سار والنيل الأبيض من « الخرطوم » ، وفى «عندوكرد» التقى « بسبيك » و « جرانت» اللذين اكتشفا منبـع النيل من بحيرة « فكتـــوريا » وكانا

متجهين الى « الخرطوم » أما « بيكر » فقد واصل رحلتـــه ليكشف « البرت نيانزا » •

ولسنا ندرى أن كانت « لوسى دف جوردون » قد لقيت « صمويل بيكر » ، أو أنه مر بقصرها بـ « طيبة » ، ولكنا نعلم علم اليقين أنها قرأت كتابه الذى ألفه ونشره سنة ١٨٦٥ بعنوان « البرت نيانزا حوض النيل العظيم » وقـد قرأته « لوسى » شوقا منها الى معرفة ما وراء ذلك • ولم يلفت نظرها منه ماجاء فيه من معلومات عن النيل ، ولكن لفت نظـــرها فقرة كتبها « صمويل بيكر » عن حالة الهمجية التى وجد فيهـا سـكان أعالى النيل • يقول « صـــمويل بيكر » فى بعض ما كتب : « بودى لو أن أولئك الذين يعيشون فى انجلترا ، ويعطفون على السود : بودى لو يرون افريقيا فى صميمها كما فعلت أنا ، فان كثيرا من عطفهم على هؤلاء السود سوف يهبط الى الحضيض• ان الطبيعة البشرية فى حالتها الغشوم ــ كما رأيتها ممثلة فى سكان افريقيا المتوحشين ــ لتتساوى وطبيعة الوحوش الضارية، ولا يمكن قياسها بما تمتـــاز به الكلاب من نبل • ليس من أخلاق هؤلاء المتوحشين شىء من عرفان الجميل ، ولا الرحمة ولا الحب ، ولا ايثار الغير ، ولا عندهم أية فكرة عن الواجب أو الدين : لكنهم يعيشون على الجشـــع والكفران بالنعمـــة والأثرة والقسوة » (الفصل الخامس) •

وتقرأ « لوسى » هذا الكلام فتنبرى مدافعة عن هـؤلاء المتوحشين ، وتكتب لوالدتها فى ٣ سبتمبر سنة ١٨٦٦ : « ان انفجارات « بيكر » تدعو الى الرثاء : لقد شبه بعض السود بالنمور فى ضراوتهم ــ وعندى أن بعض الانجليز فى «لندن» يشبهون النمور كذلك . لقد خبرت فى حياتى خمسة أنواع من السود ــ زنوج ، وعرب ، ويختلف كل نوع منهم عن سائر الأنواع اختلاف أبناء « السويد » عن أبناء « اسبانيا » . وكثير منهم مثلنا ! لا شك أنه لابد أن يحكم هؤلاء حكما حازما كما يحكم كل مخلوق جاهل ، أو كما تحكم الأطفال ، لكننى مقتنعة اقتناعا تاما أن العادة والتربية هما وحدهما اللذان يفرقان بين فريق من الناس وفريق آخرين ، أما ما ركب فيهم من فطرة فهى واحدة عند جميع الناس » (ص ٢٨٠) .

★ ★ ★

ونحن نرى فى بعض هذا الحديث أساسا لفكرة «لوسى» الأساسية من حيث طبائع الجنس البشرى ، ولم يكن «الانسان» فى نظرها وحشا كما صوره التفكير الأوروبى فى تلك الحقبة بل لقد كان للانسانية آمال وآفاق فى التقدم . وننظر اليوم الى خريطة أفريقيا فنرى القارة السوداء وقد انتزعت نفسها من بين براثن الرجل الأبيض ، ونرى أكثر من أربعين دولة مستقلة فى مواطن الأدغال والوحوش التى كان يخترقها «صمويل

بيكر » . بل ننظر الى مهمة « صمويل بيكر » التالية ــ وهى القضاء على تجارة الرقيق ، فنرى أنها كلفت « اسماعيل » نصف مليون جنيه ، ونرى أن « بيكر » كان يكافح تجارة الرقيق فى قلب افريقية تكلفا منه ومن اسماعيل بينما كان الافرنج يمارسون تجارة الرقيق فى ذروتها فى غرب القارة .

★ ★ ★

ــ جاءنى ــ منذ أيام ــ شخص غريب الأطوار: رجل قوى متين البنية ، ألمانى من « هولشتين » ، وأظن أنه جاوزالخمسين قضى الأربع الأخيرة منها فى « السودان » و « سنار » . وحيث أنه كان معوزا لا يملك درهما واحدا ، فقد اخترق « النوبة » الى هناسيرا على قدميه ، يتكفف الناس كأحد أبناء السبيل ، ولم يكن حانقا مطلقا على ما ابتلاه به القدر من عوز واملاق ، ولكنه أشاد بما لقيه من كرم من الخلق الذين ادعى سير « صمويل بيكر » أنهم كالنمور الكاسرة . قال لى بالألمانية : « أولئكقوم يعيشون حقا حياة فخمة مجيدة » .

« وأفضى الى بأنك اذا جئتهم فى جمع من حاملى البنادق فان هؤلاء السود يبدون نواجذهم ، وينفرون للقتال بطبيعة الحال ، فهم يحسبون أن هؤلاء هم صائدو العبيد ، ولكنك اذا ذهبت اليهم وحدك باديا عليك الفقر فانهم يذبحون لمقدمك ثورا ، ما لم تفضل أنت أن تكون الذبيحة خروفا أو شاة،

ويهيئون لك كوخا ، ويبذلون لك كل ما عنـدهم ، فيسقونك خمرا تسكرك حتى تغيب عن الوعى ، ويقوم بخدمتك فتيـات صغيرات يصببن لك النبيذ ! ، ثم ليس عليـك أن تلبس أى ملابس بل لك أن تظل عاريا ان أردت ! ولو أنك سمعت ماقاله لتهيأت من توك للقيام برحلة الى قلب افريقيا . لقـد تنـاول معى الغداء واتحفته بزجاجة من النبيذ العادى افرغها فى جوفه، وأعطيته بعض شلنات ، فغادرنى وذهب الى حال سبيله قاصدا القاهرة ، ولست أعلم ما عسى أن يقول النوبيون من حـولى عن « الخواجة الشحات » لكنه قال لى : « انهم جميعا اكرموه، وأنه كان يتقبل منهم ما يقدمونه له من طعام على ما بهم من خصاصة : خبز الأذرة والتمر » .

★ ★ ★

ذلك خطاب كتبته لزوجها « الكسندر دف جوردون » فى ٢٢ من يناير سنة ١٨٦٧ ، وهذا صنف آخر من « الأفرنج » المغامرين الذين كانوا يجوبون افريقيا شماليها وجنوبيها . كان يجتذب بعضهم حب العلم والاستكشاف ، وكان يجتذب بعضهم حب المال ، ثم كان يجتذب بعضهم الآخرين حب المغامرة .

٩ـ أفكار من الشرق والغرب

التقت أفكار من الشرق وأخرى من الغرب فى تفكيرها ، ونكاد نقول : انها كانت ذات شخصيتين : أوروبية بلغت القمة من الأفكار السياسية السائدة فى أوروبا عند منتصف القـرن التاسع عشر ، وشرقية عربية اسـلامية بلغت القمة أيضا من التمسك بالتقاليد • ولا يمكن أن نوفق بين الشخصيتين الا اذا نحن رأينا بعض العناصر التى تجمع بين الشرق والغرب ، ولن يتأتى لنا ذلك الا اذا وهبنا خيالا خصبا مثل خيال « لوسى دف جوردون » •

ففى نفس الوقت الذى كانت معجبة بكتب أبيها عن فقه القانون الوضـعى ، كانت معجبـة بالشريعـة الاسـلامية

فيما يتصل بالأحوال الشخصية • وفى سنة ١٨٦٣ نشرت والدتها محاضرات زوجها « جـون آوستن » فى مجلدين بعنـــوان . « محاضرات فى الفقه القانونى » أو « فلسفة القانون الوضعى» وعلق على هذا الكتاب الضخم صاحب لوسى وهى طفلة « جون ستيورت مل » ، وكتب مقالا معقبا على هذا الكتاب فى « مجلة ادنبره » • ويبدو أن « لوسى » كانت متشبعة بأفكار أبيهـا فيما يختص بالقانون الوضعى ، بل لقد تأثر بها الفقهاء أنفسهم، وأصبح مرجعا للباحثين من رجال القانون فطبع سـبع مرات ، وترجم الى الايطالية • وفى كتاباته الفلسفية ينقد « جـــون أوستن » محاولات اصلاح الدستور الانجليزى ، ويرى أنه يجب أن يشكل من جديد، ويحدد المعانى التى تكمن وراء المصطلحات القانونية ، مثل الواجب والحق والالتزام والعقاب والتفويض : كل ذلك على أساس قانونى واقعى بعيد عن الاخلاقيات • وفى نفس الوقت الذى تأثرت فيه « لوسى » بمثل هذه الأفكار •• كانت معجبة بتفاصيل الشريعة الاسلامية عند تطبيقها فيما يختص بنظام الأسرة • وهى تقول فى خطاب لوالدتها فى ٢٥ ديســمبر سنة ١٨٦٥ : « ان الفكرة الاساسية فى كل ما يتصل بحق الرجل المستقيم : هى أنه اذا أراد أن يتخذ امرأة فانه يلتزم أمام العالم بمسئوليته عنها ، ويلتزم قبل ذلك بمسئوليته عن مصير أى طفل ينجبه منها • وتدركين من ذلك أن النبى العربى لم يفكر فى المرأة على أن يلقيها الرجل فى يم الحيــاة ويدعها ترتطم فى

أمواجه المضطربة . فهـــذه حالتنا التي ينـــكرها علينا بعض الشانئين » . وهي في زيارتها لرجل مثل « سليم أفندى » تلتقى بزوجته ـ وقد جاوزت الستين ، فترى الكثير من كرم النفس وحسن العشرة . ويحكى لها « سليم أفندى » قصة من الحب الخالص لزوجته الذى نما في تفسيهما منذ عهد الصبا . ولم يزل باديا على بلية حتى بعد عشرات السنين .

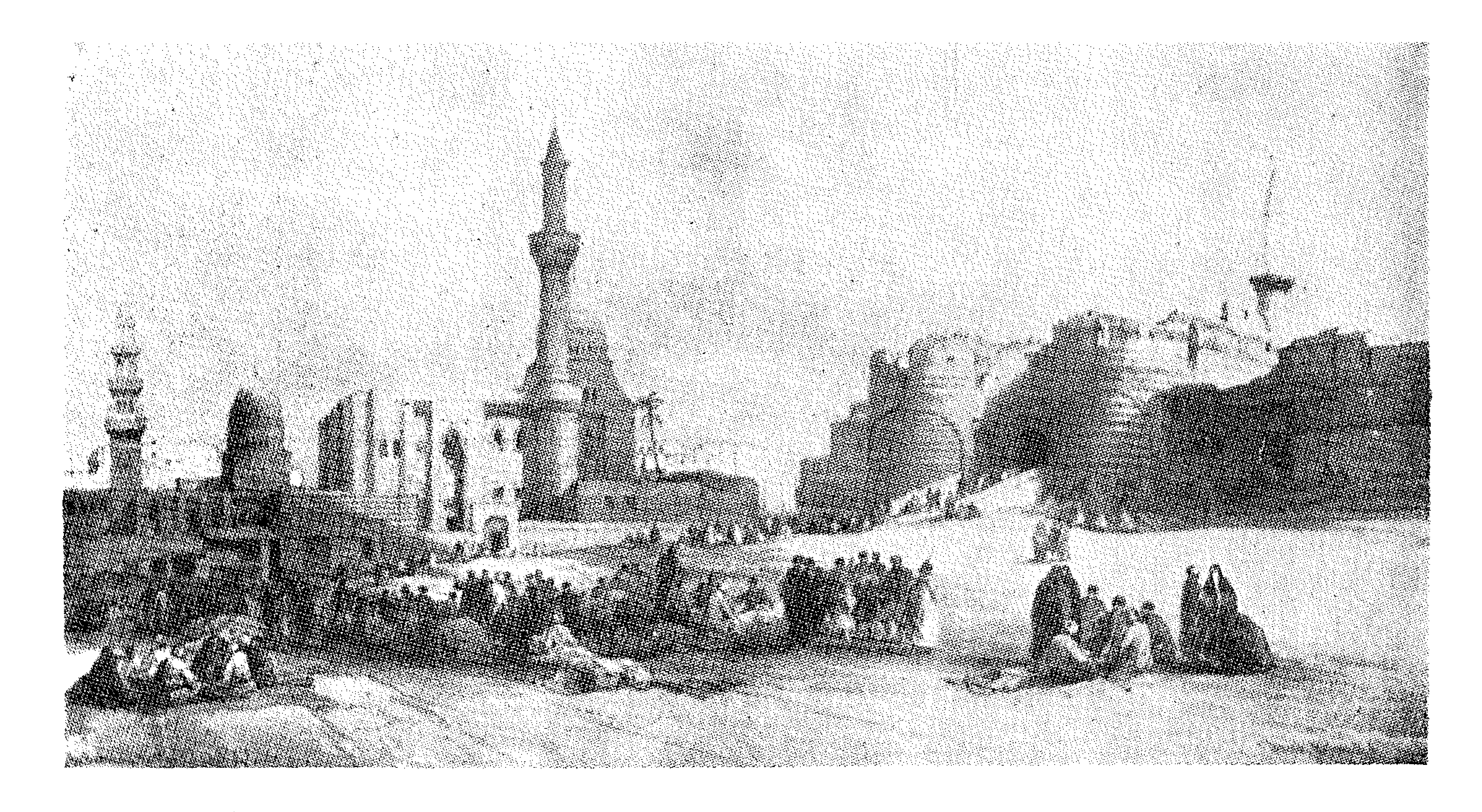
★ ★ ★

« أهدانى القاضى كتابا للصلاة رائعا جدا : عنوانه «مرشد المؤمنين» كتب في « دارفور » . أما حروفه فهى جميلة ، وأما الزخارف حول صفحاته فهى فريدة في منظرها ، وأما تجليده فهو فاخر . ويحتوى الكتاب على أسماء الأنبياء جميعا مع صفات النبى محمد المائة « ولعلها تقصد أسماء الله الحسنى » . وعلى ذلك فهو حجاب قوى أو طلسم . وقد سألنى أن أحتفظ به فلا أعطيه أحدا مطلقا وألا أنتزعه من صدرى ، فمثل هذه الكتب لا يمكن أن تشترى بمال . كذلك اشتريت حجابا من أجمـــل ما يكون ، منقوشة عليه « حرباء » على قشرة من الميناء ، وحفرت فيه آية الكرسى بشكل فاخر جدا ، ويرجع تاريخه الى ٢٥٠ سنة مضت » (ص ٢٦١) .

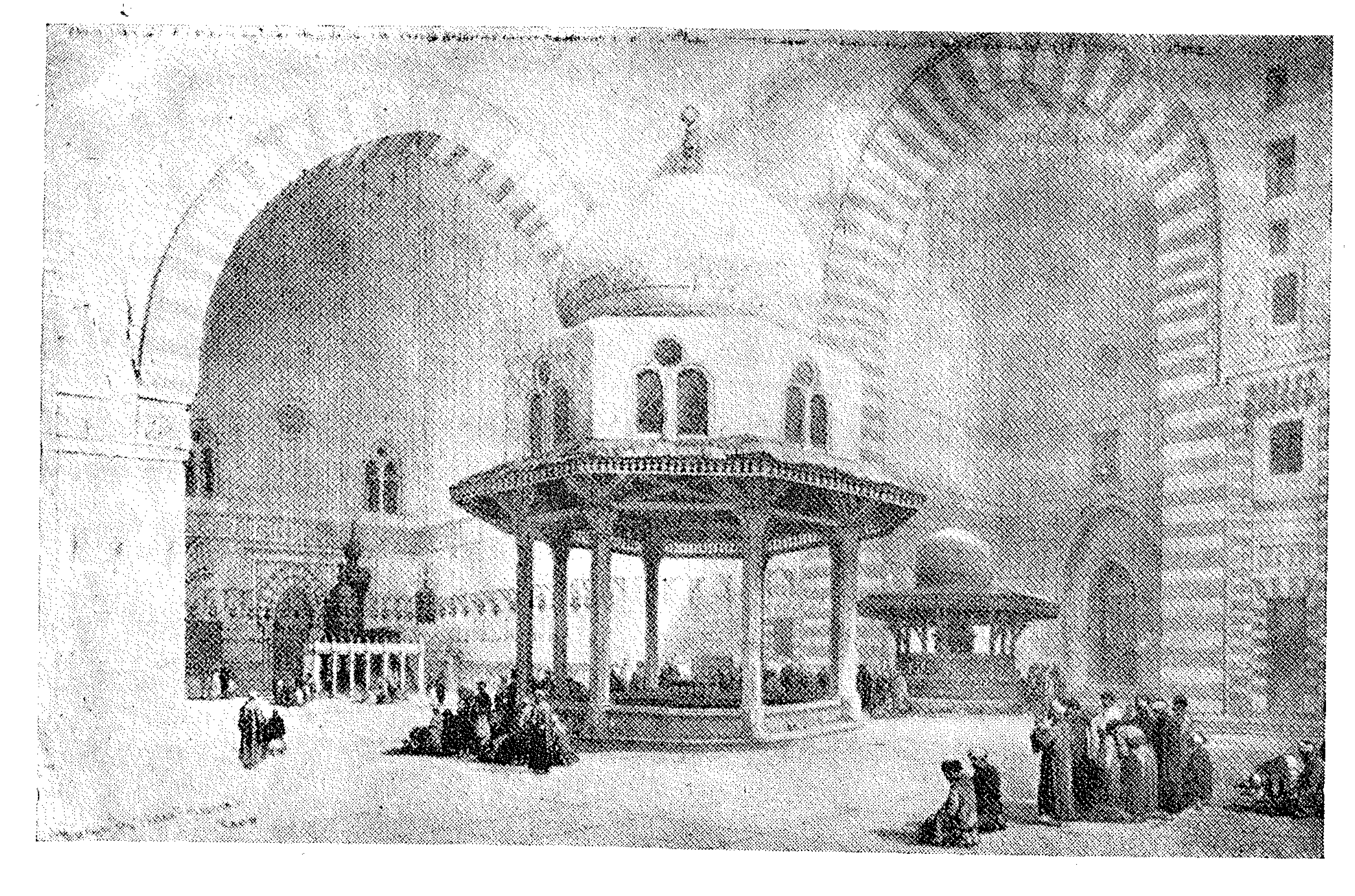
ذلك ما كتبت في خطاب لها في شهر يونية أو يولية سنة ١٨٦٦ وأنت ترى أن الفكر الذى كان يترجم تاريخ « بروسيا » وكان يتغذى بفقه القانون الوضعى ، كان في نفس الوقت يتقبل

الرقى والتمائم ، ولعل الناحية الفنية أيضا ، أو قل الشخصية الفنية هى التى كانت تطفو فتغالب الشخصية الفكرية الخالصة .

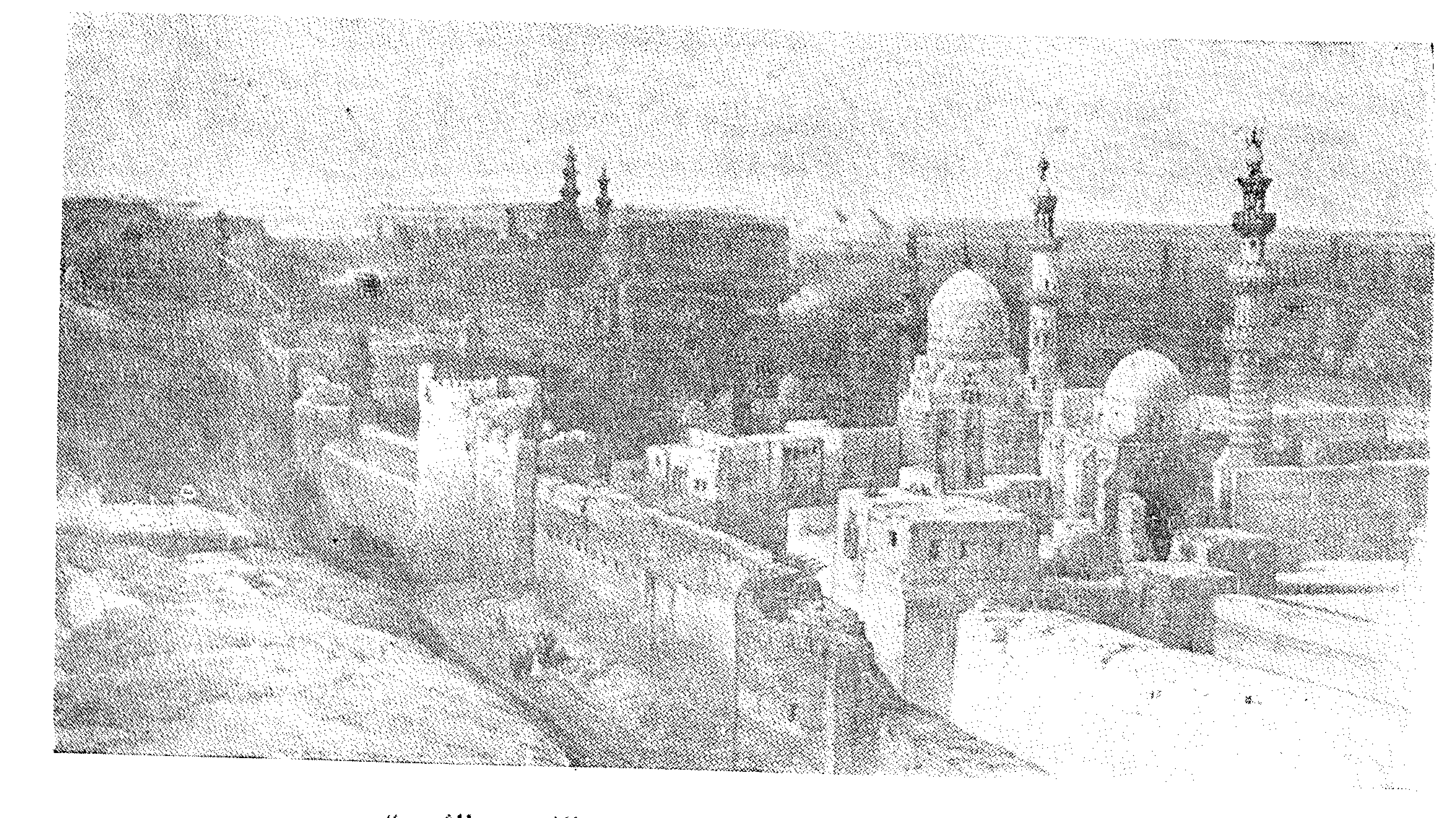
وقد يشطح بها الخيال بعض أحيان فتكتب لوالدتها فى ٣ سبتمبر سنة ١٨٦٦ : « لو أننى كنت رسامة لاتخذت صورة مما جاء فى تراث المسلمين خاصا بـ «يوسف» و «مريم» فلم يكن « يوسف » شيخا ذا لحية بيضاء ، انما كان صغيرا وجميـــلا وطهورا كالعذراء نفسها . وكانا ابنى عم ، ونشآ معا . واجتنبت هى ما كان يدور من لغو الكلام بين الفتيات ، واعتادت أن تذهب الى البئر ومعها جرتها ، ويدها فى يده وهو يحمل جرته هــو الآخر . وظهر لها « جبريل » فنفخ فى جيبها وأوحى اليها أنها قد حملت باذن الله من روح الله . ثم تبين لـ « يوسف » ماهى فيه فاغتم لذلك غما شديدا ، وهم أن يقتلها ، فقد كان أقرب ذوى قرباها من الرجال . وتبعها والسكين فى يده لكنها كانت تختبىء وراء كل شجرة فى طريقها ، وعند كل شجرة كـــانت تخونه عزيمته الى أن بلغا الشجرة التى بجوار البئر . وعنـــد ذلك جاء رسول من عند ربها يقول : لا تخش شيئا يا «يوسف» فان ابنة عمك تحمل « عيسى المســيح » روح الله ! فاتخذها « يوسف » زوجا له من غير أن يخشى شيئا . أليست هـــذه القصة جميلة ؟ هذان المثالان من طهارة نفس الشباب وتقواها ، واقفين يدا فى يد أمام الملاك . أظن صورة لهما قد يبـــدعها



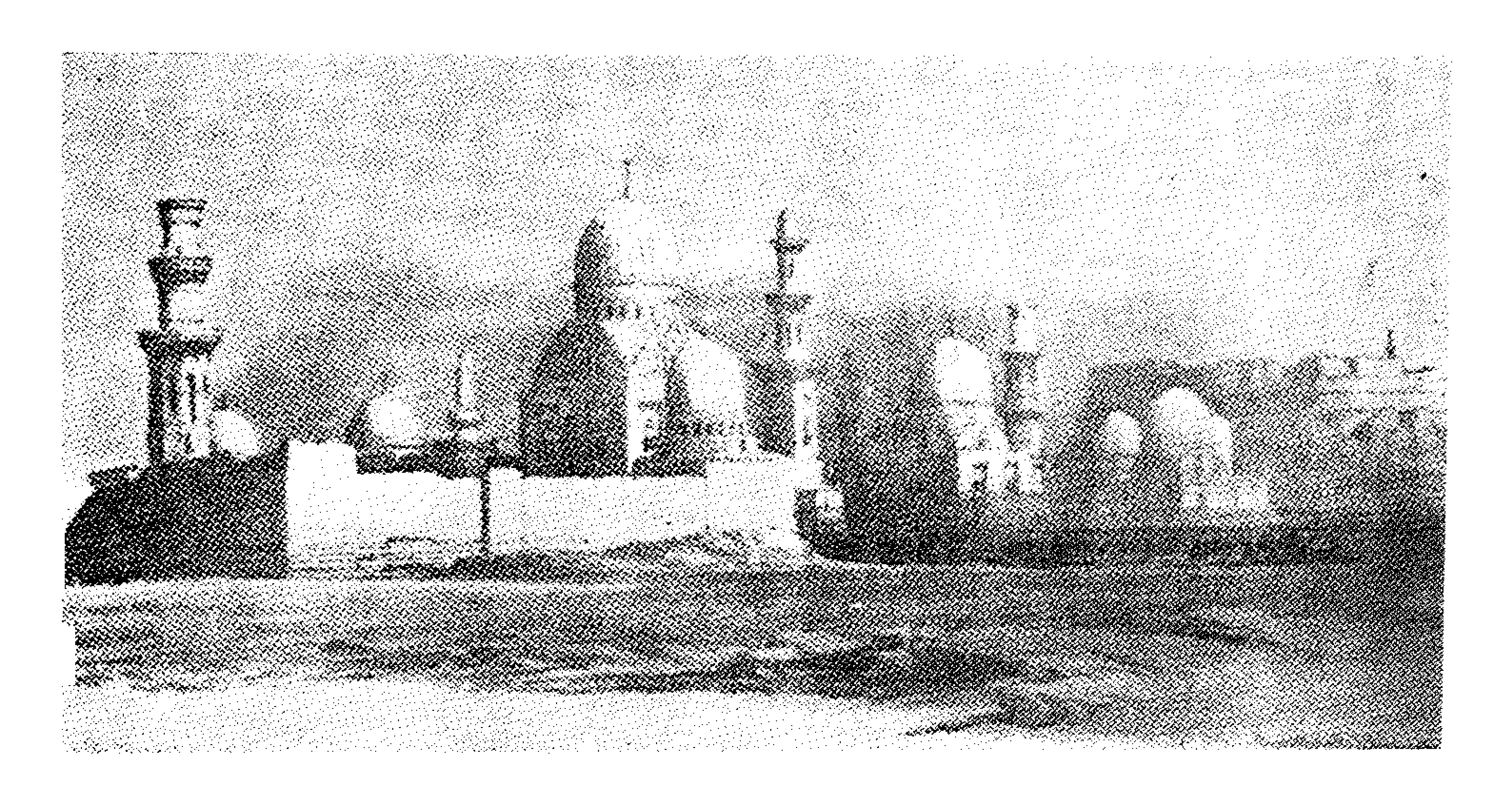
جامع السلطان حسن والمدخل الى القلعة « أفخم من أى كاتيدرائية قوطية . وكل ما فيها يدل على ذوق نبيل »



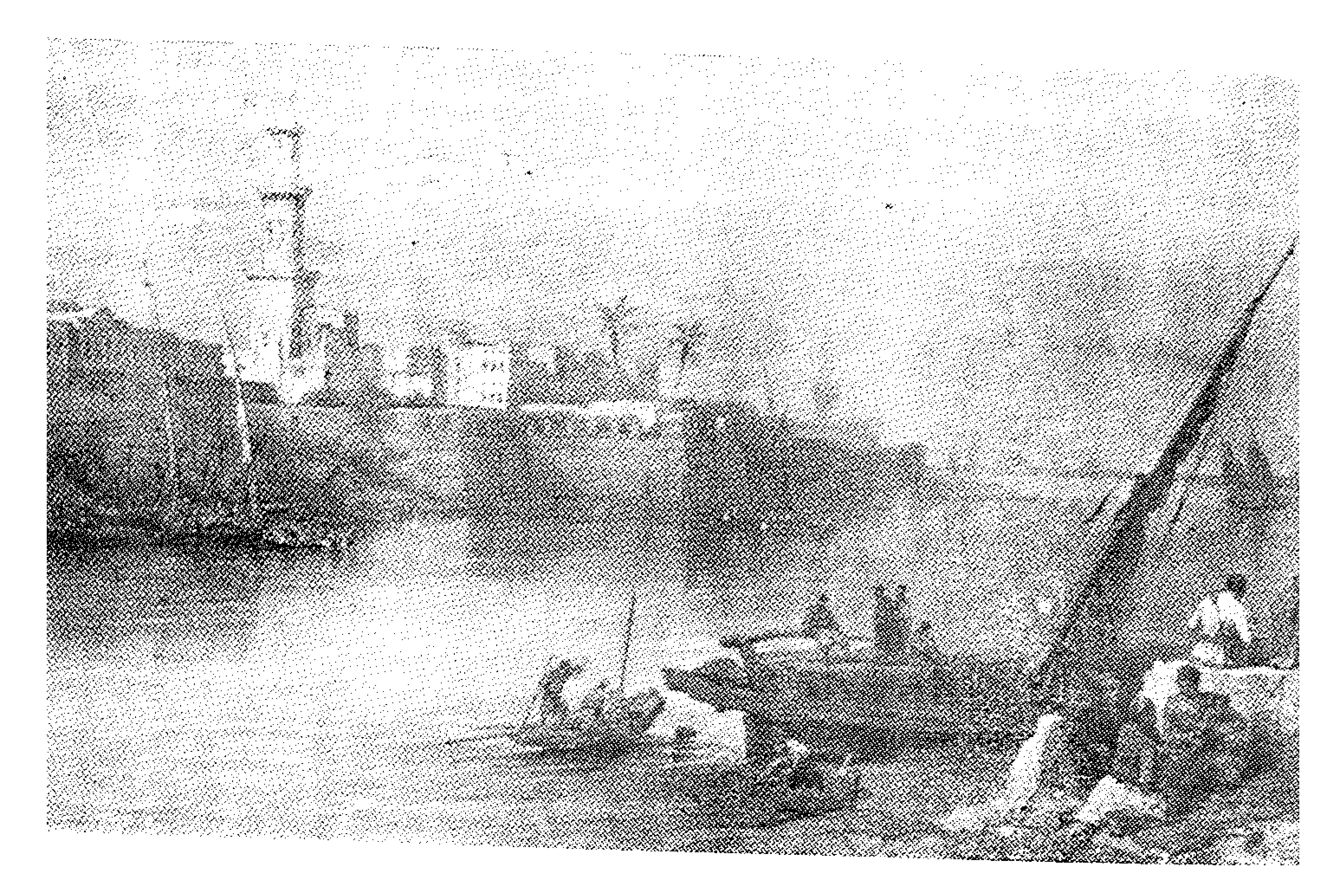
جامع السلطان حسن من الداخل



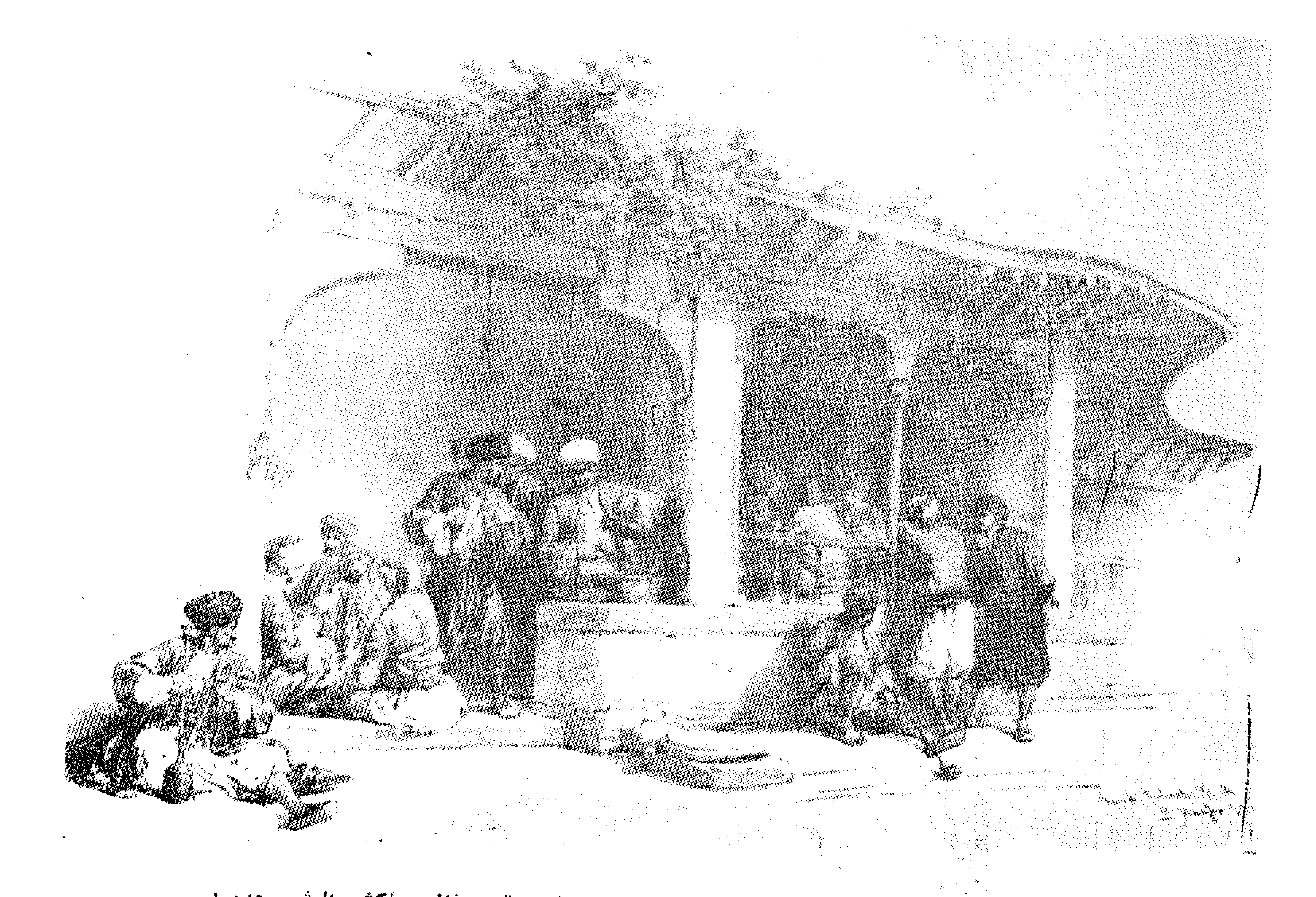
القاهرة « تجربة ذهبية توحي بنور الشمس والشعر »



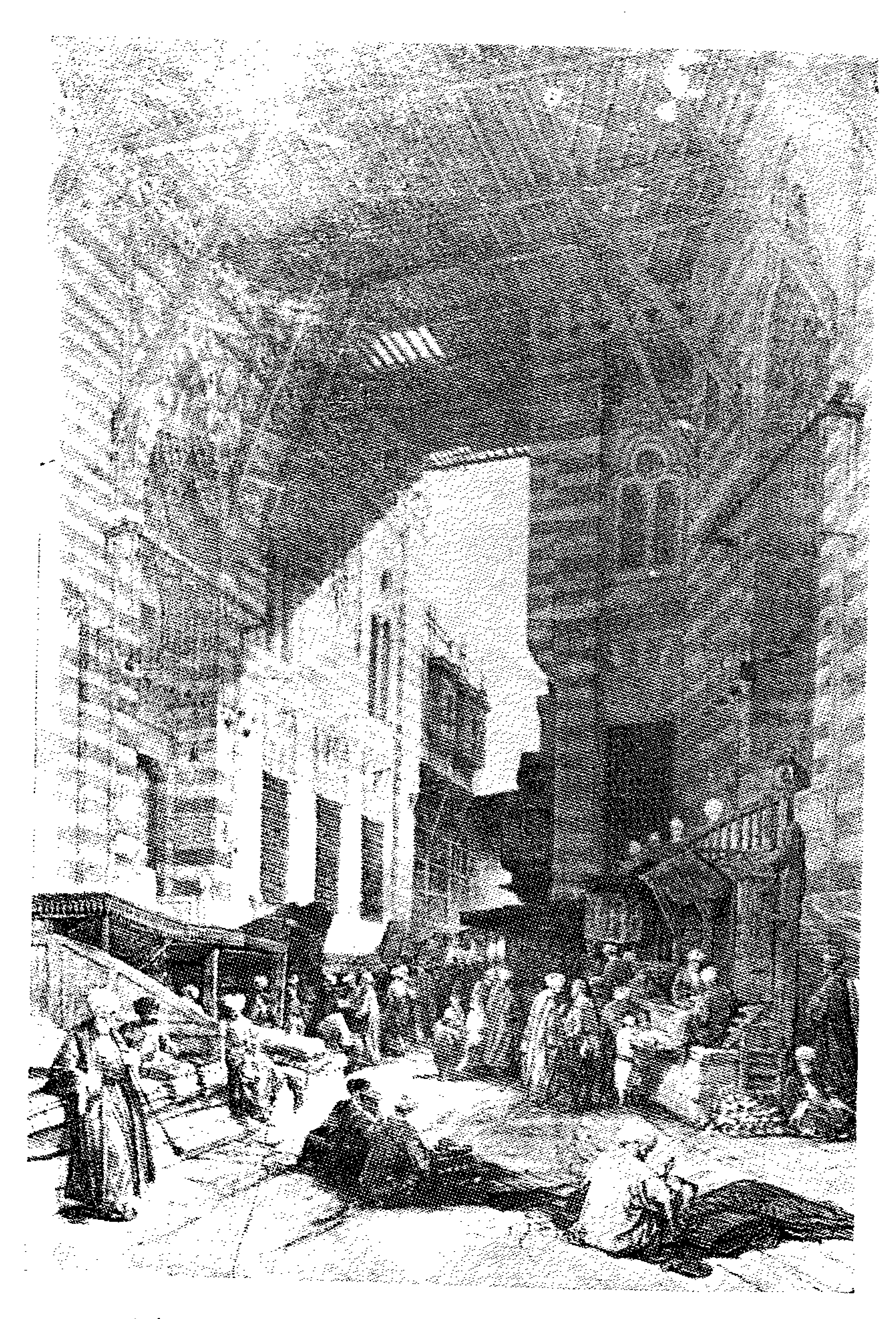
مقابر المماليك ـ « هناك عشرات من هذه الأبنية النبيلة كلها تتداعى الى الخراب »



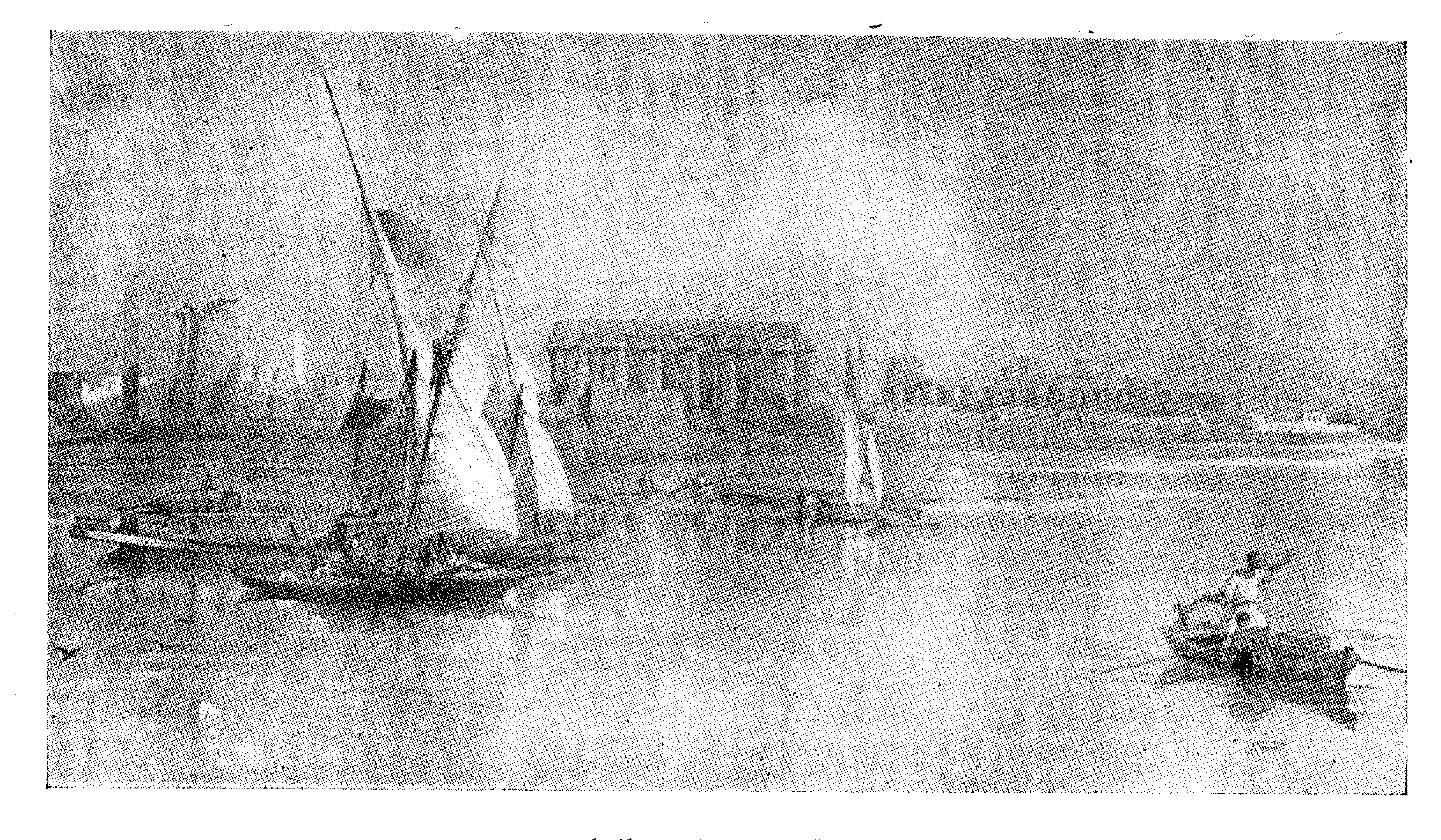
المعدية بالجيزة



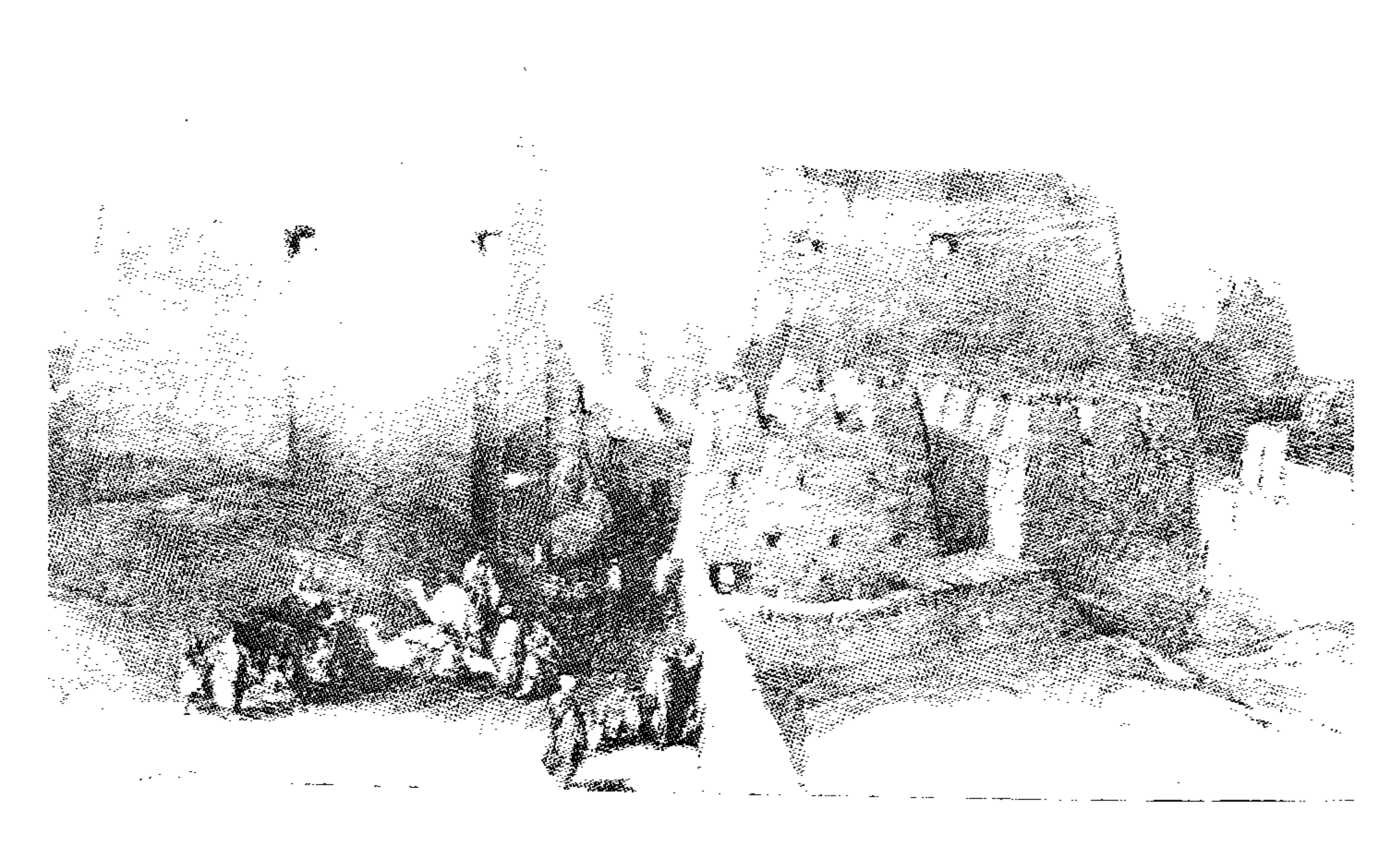
« يحدث الناس ضجة فى الشوارع، ولكنهم اذا وجدوا فى مقهى فانهم أكثر البشر هدوءا »



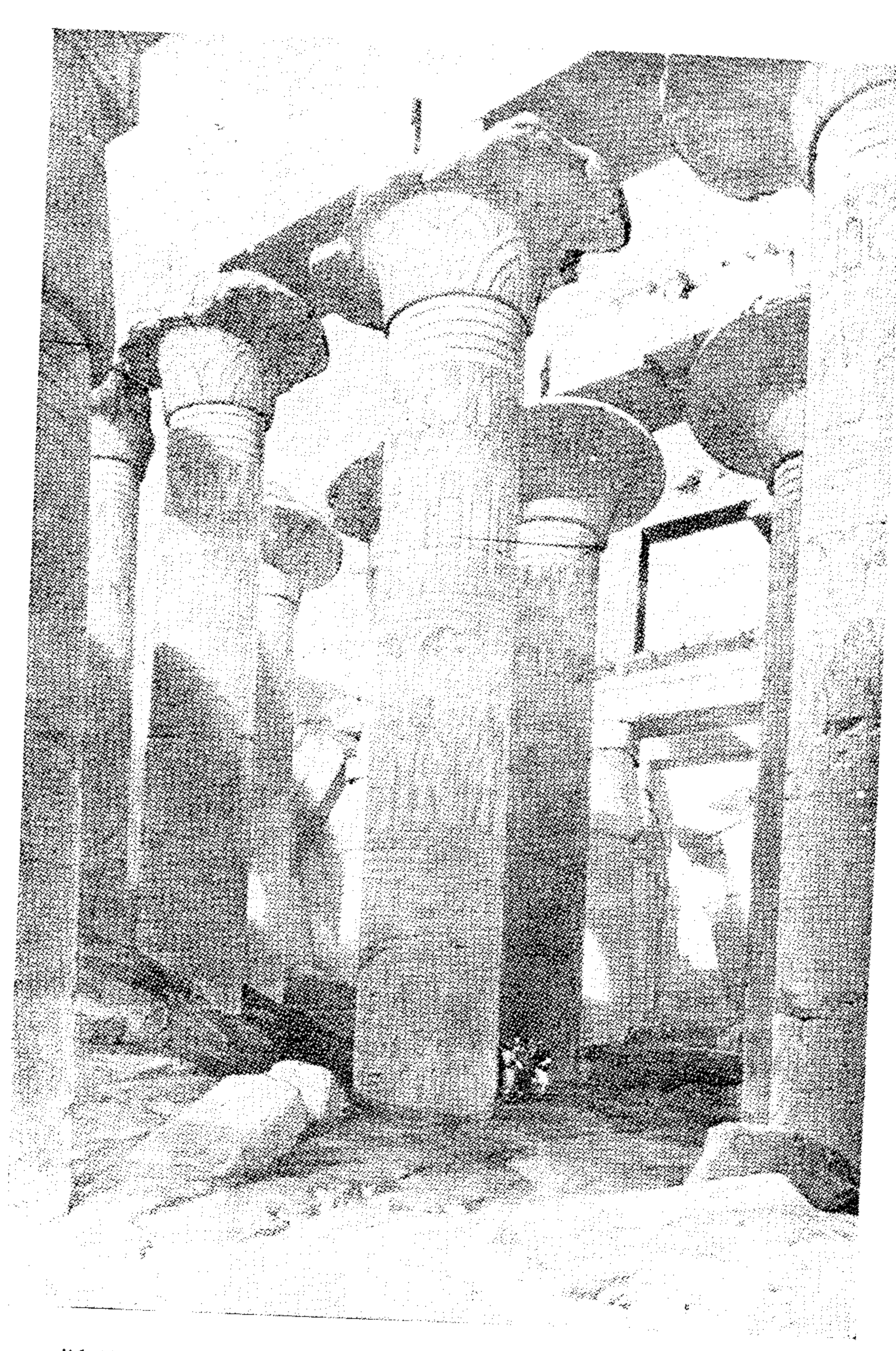
« كلما رأيت الأحياء الشعبية خلف القاهرة ازددت غراما بها »



الأقصر .. منظر من النيل

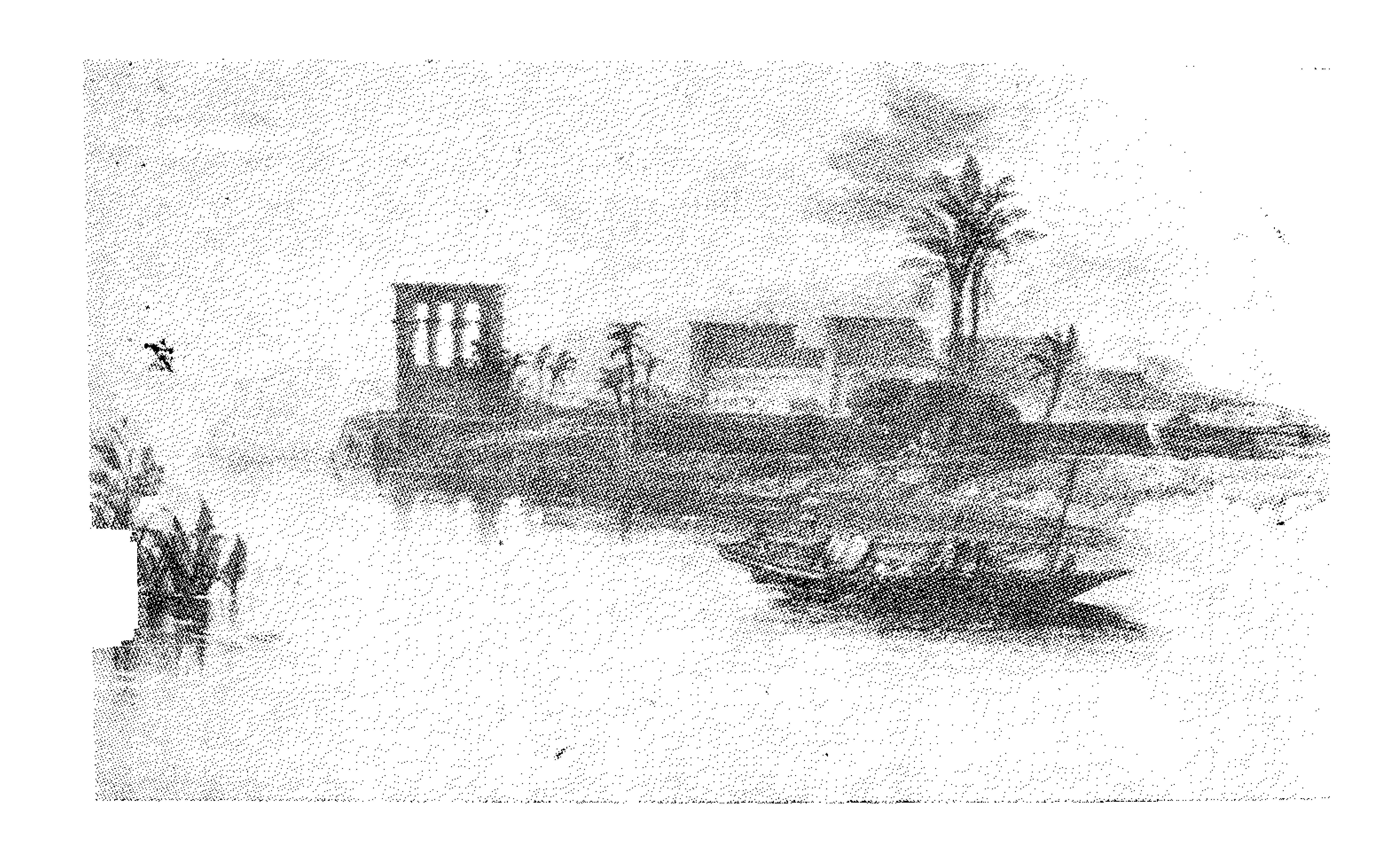


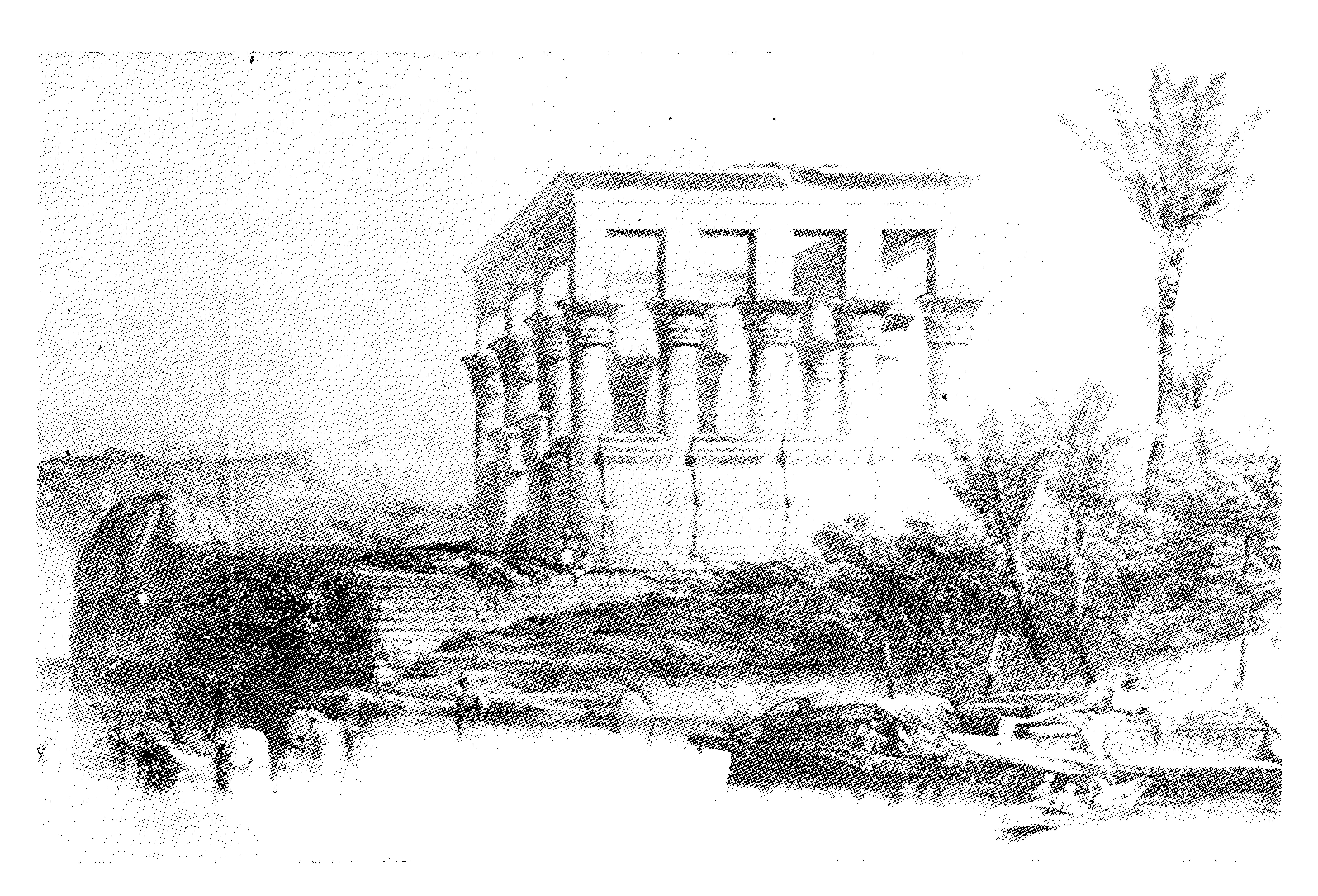
مدخل معبد الأقصر



كانت العمدان العملاقة هذه ان ؛ القمر ضوء في الكرنك [illegible]

« أجمل ما رأيت فى حياتى هو جزيرة فيله .. لقد ذهبت ورقدت فوق برج من أبراج المعبد ، يالها من ليلة ! وياله من منظر ، كانت النجوم تشع نورا يشبه نور القمر فى أوربا ، وكان كل شىء حولى ساكنا سكون الموت لولا هدير الجندل »

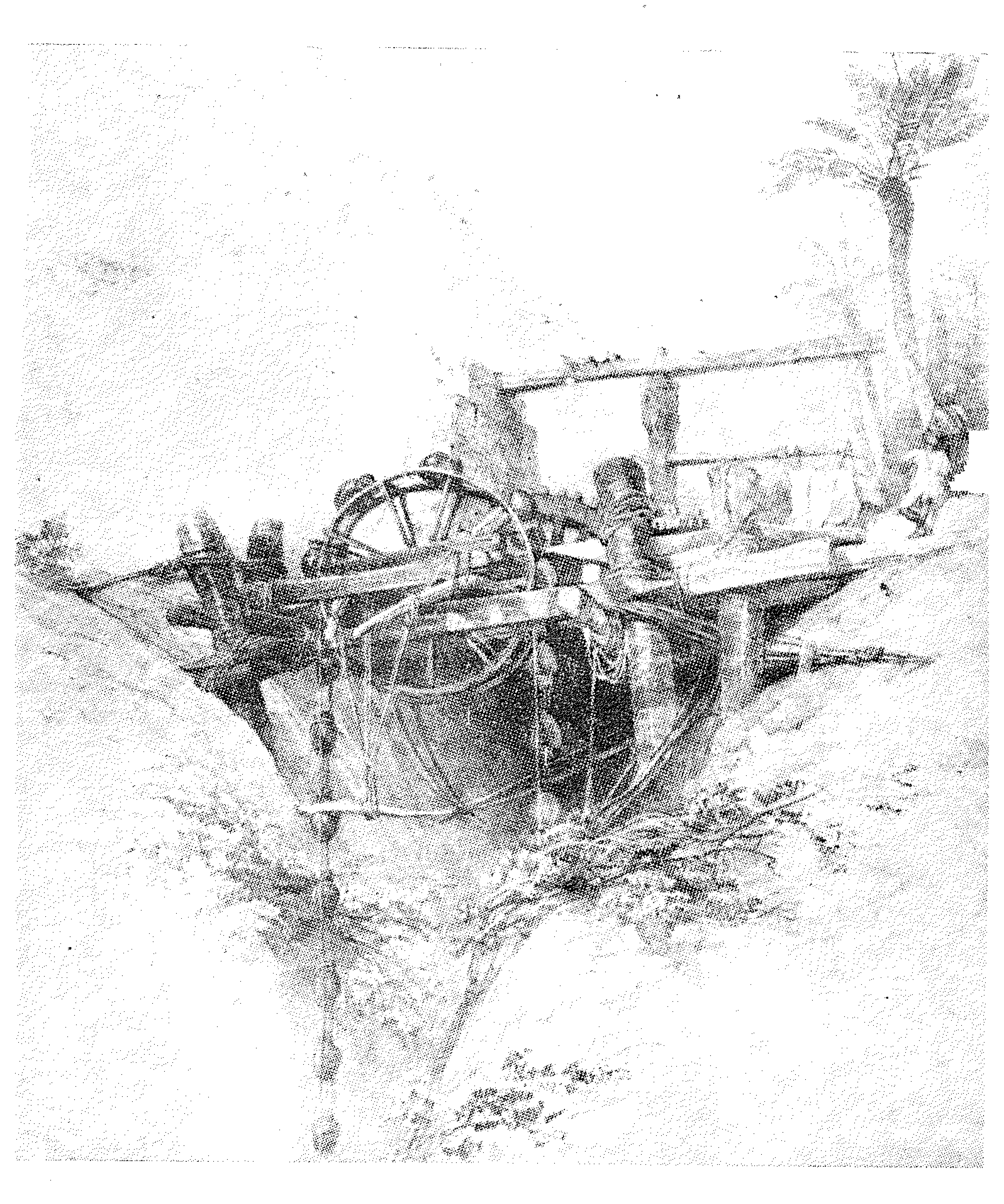




معبد فيلة

مما يستحق أن نذهب الى النوبة لنشهد الفتيات .. أن ثيابهن وما عليهن من زينة كانت تبدو وكأنها هى نفسها التى تصور فى المقابر

فتيات راقصات



« بينما كنت أجول في الحقول الخضراء بحذاء الجسر كان ولد صغير ينشد نشيدا هادئا بينما كانت الساقية تدور بأنينها الموسيقى »

رسام يضفى جمالا على هذا الشاب السوى وهو ناعم العينين ، وقد حمل جرته على كتفه ـ أما هى فقد حملت جرتها عـلى رأسها ، ثم قد يضفى جمالا آخر على هذه العذراء الحبيبة التى اجتنبت كل اثم فى البلاد » (ص ٢٧٧) •

ولسنا نرى فى هذا الا خيالا شاطحا ، بل لسنا ندرى ان كانت هذه القصة من تراث المسلمين •

★ ★ ★

وفى نفس هذا الخطاب الذى كتبته لوالدتها فى ٣ سبتمبر سنة ١٨٦٦ تتعرض لقضية أخرى هى عندنا مجهود فاشل للتفكير فى سياسة الحكم فى « مصر » وهل تكون النمط الشرقى أم النمط الغربى • وقد رأى « اسماعيل » فى تلك السـنة أن يقيم حكما شبه برلمانى ، فدعا مجلسا للشورى ، وتطنطن بعض الصحف بهذا الفتح الديموقراطى الجديد ـ فقد كان فى الواقع فتحا جديدا فى تاريخ الشرق • وكان فى نفس الوقت استجابة للعناصر المثقفة من أبناء « مصر » من دعاة الاصلاح • ولـكن يخيل الينا أن « لوسى » لم تكن مقتنعة بأن « اسماعيل » كان مخلصا فى اقامة مجلس الشورى ، ولا أن الأهلين كانوا مقتنعين بأنهم نالوا حقوقهم • حتى ولا أعضاء المجلس أنفسـهم كانوا يؤمنون بأن لهم سلطانا على الحاكم • وتمضى فتقول فى خطابها:
« ما هذا الزيف الذى تنشره صحفنا عن اعلان دستور هنا ؟

اننىلا أريد أن أكتب شيئا عن السياسة فهذا طريق موحش كئيب والقيل والقال فىالقاهرة شنيع .. ولكنى أريدكأن تعلمى شيئا واحدا وهو أنه ليس هناك عدل فى هذا البلد ولا قانون الا ارادة رجل واحد وهواه ! وانه لمن المستحيل على أى أوروبى أن يتخيل واقع ما عليه الحال هنا ، وبينى وبينك فان « رس » لم يفهم هذا الواقع بعـــد ، ولذلك فانه ســـيرتكب كثيرا من الأخطاء » .

« لا يمكن أحدا أن يعلم هذه الحال حق العلم الا اذا كان قد اختلط اختلاطا تاما بالمظلومين وعرفهم حق المعرفة ، وأنا خبيرة بهم جميعا . لا يجرؤ أحد أن يأتى الى ليحدثنى وجها لوجـه خوفا من عيون الحكومة ـ أقصد لا أحد من العرب ـ ولكنى قابلت أحد أصحابى عفـــوا فهمس فى أذنى أن احــذرى من جاسوس اسمه « عثمان بك » .. واللذة الأولى التى يجدها « اسماعيل باشا » هى ما يترامى الى سمعه من أحاديث القيــل والقال ان صدقا وان كذبا ، يمده بها يوما بعد يوم أشــخاص أهمهم من الأوروبيين ، فلو أن قوة الدستور تصل الى هنا حقا لكان هذا جميلا وعظيما » (ص ٢٨١) .

وتمر بها قوارب مقطورة الى باخـــرة وتحمل القوارب أعضاء مجلس الشورى من نواب « قنا وأسوان » . وكان يبدو عليهم الخوف والكآبة . وتمضى فى رسالة لها : « كنت فى

طريقى فقابلت بعض المصريين وبدأت حديثى كما يفعل الأوربيون فقلت « والآن ستشتركون فى حكم البلاد • شىء ما أجمله ! » وكان الرد على ذلك نظرة غاضبة مؤنبة : « لا تضحكى على ذقوننا يا فندم ! يا سبحان الله ! ما هذا الذى تقولينه ، ومن من المساكين ـ على ضفتى النيل ـ يستطيع الا أن يرفع يديه فوق رأسه ويلمس الأرض ويقول « حاضر » اذا أمره حتى المدير ؟ انك تتحدثين عن الكلام فى حضرة « أفندينا » ! ان هذا فوق ما يتصوره العقل يا فندم ! » (ص ٢٨٦) •

ولا يبدو هذا الرأى نابيا اذا قدرنا الظروف التى كان يعيش فيها أهل الريف يومذاك • بل نرى هذا الرأى يردده الشيخ « محمد عبده » نفسه فيما ورد عنه أنه قال انه على الرغم من أن « اسماعيل » أقام مجلسا للشورى فى سنة ١٨٦٦، وكان من المفروض أن يكون للأهلين صوت فى سياسة بلادهم ، الا أنه لا أحد حتى ولا أعضاء المجلس نفسه كانوا يعتقدون أن لهم هذه الحقوق •

وتنظر « لوسى دف جوردون » الى المسألة من وجهة أخرى • فالى جانب أنها كانت تعلم أن الأهلين فى قرى الريف لم يكن لهم من الثقافة ولا اللقانة ما يؤهلهم للاشتراك فى الحكم كانت ترى أن « اسماعيل » لم يفعل ذلك الا تشبها بالأفرنج، وتقربا الى أوروبا • ويكاد يكون هذا محور سخطها على كل

ما أنجزه « اسماعيل » • كانت « لوسى » ترى أن أوضاع الحكم ، والعلاقة بين الحكام والمحكومين أو بين الطغاة والمظلومين : كانت ترى كل ذلك دفينا فى قلب الريف المصرى ، ولا يمكن أن يستره هذا الستار الشفاف من حكم على المثال الأوروبى لا يكاد يخفى ما يقترفه الحكام وزبانيتهم من المآسى •

ثم لنا وقفة أخرى نقدر فيها هذا الرأى ، لم تكن «لوسى» مطلعة على التيار الفكرى فى سياسة الحكم الذى كان يسرى عند الطبقات المثقفة فى المجتمع المصرى يومذاك • فهل كانت على علم مثلا بأفكار « رفاعة رافع الطهطاوى » فيما يختص بالفصل بين السلطات وتعليقاته على حكومة «فرنسا» ، والثورة على حكومة « شارل العاشر » سنة ١٨٣٠ ؟ وهل اختلطت بمن كان يمثل الايمان بقوة الشعب ، ويرى أن الحل يكمن فى نظام الشورى ؟ أنا لا نجد ممن قابلتهم من ناقشها هذه المسائل • أما الدكتور « عثمان ابراهيم » وهو — على حد قولها — الوحيد الذى قابلته من المثقفين المصريين ، فلم يكن حديثه معها يتناول غير الأدب والفلسفة ، ثم غير الشكوى من الموظفين الشراكسة والأتراك الذين اقضوا مضجعه وأبكوه بكاء مرا ، وحديثها مع الدكتور « عثمان ابراهيم » يمثل مدى علمها بالفكر المصرى الحقيقى فى تلك السنوات : وهو مدى محدود •

وفى خطاب لزوجها بتاريخ ٣١ ديسمبر سنة ١٨٦٦ تتحدث

عن العلاقة بين المصرى المتعلم وبين الأوروبى . وكناقد ألمحنا الى هذا الخطاب فى فصل سابق ، ولكن لا نرى بأسا من أن ننقل ما جاء فيه خاصا ببعض الأفكار الغربية التى يتمثلها الشرقى .

« لقد أقبلت على حـديثه ـ أى على حـديث الدكتور « عثمان ابراهيم » بكل ما عندى من حرارة القلب ، لأنه ككل عربى أحسنت تربيته يشبه «دون كيخوته» ولكن «دون كيخوته» فى تمام عقله مالكا كل حواسه، فهناك الشغف البرىء بالاستفاضة فى الكلام ، وهناك الغرام الطبيعى باستخدام اللغة الجميلة مما لا يمكن أن يبلغه أى أوروبى فيما عدا الاسبانى ـ فيما أعلم . ان حديثه لا يشبه زخرف القول الذى يميل اليه الايطاليون ، وهو لا يشبه الكلام العاطفى الذى يجرى على ألسنة الفرنسيين . وأحسب أن معظم الأوروبيين يتخذون هذا هزؤا، ولكننى ـ حين كنت طفلة ـ كنت أبكى حينما أقرأ ان « الحمالين » فى قصة « دون كيخوته » كانوا يضربون « دون كيخوته » وكنت فى خيال الطفولة أحسبه أنبل الفرسان وأصور نفسى وكأننى أنا «سانكو» ـ تابع « دون كيخوته » المعجب به ـ لقد ذكرت كل ذلك حينما كنت أستمع الى « عثمان » وهو يلقى قطعا من شعر البطولة ، أو حكما بالغة وأمثلة عصرية ، كما ورد فى احدى مسرحيات « شكسبير » اذ أنه كان يلقيها بهذا الخليط من الوجد الذى كان يميز الدون العظيم » .

« ولعلنى لن أكرر كل ما سمعته منه عن الحالة فى مصر ، وعن الاهانات التى كان عليه أن يتحملها من الباشوات الأتراك. وهو شريف ورجل متعلم . كان هؤلاء أيضـا هم الحمـالين الساخرين فى قصة « دون كيخوته » . لقد قال لى أنه كان فى بعض الأحيان يقضى ليله فى حجرته باكيا كما تبكى النساء لأنواع المظالم التى تقع على البؤساء مما يشهده بعينيه ولا يستطيع له دفعا . وكل هؤلاء الذين اختصصتهم بودى من العرب كانوا تلاميذة الشيخ « الباجورى » فى حياته ، فهو الذى ألهمهم هذه المشاعر الشريفة » (ص ٢٩٦) .

ذلك هو العنصر المثقف الذى كان ينبغى أن تتأثره « لوسى دف جوردون » وتدرك كنهه كبداية لحركة قومية تأتى فيما بعد حتى تقدر الناحية السياسية فى الفكر المصرى . وقد ذكرت غير مرة فى رسائلها انها تنوى أن تكتب شيئا عن أخلاق المصريين ـ شمائلهم ومعتقداتهم ، ولا بد أنها فى بحوثها تلك التى لم يقدر لها الوجود ـ كانت سوف تلمح هذا العنصر وتبنى عليه ويخيل الى القارىء أن الشيخ « الباجورى » كان رائدا من علمـاء الأزهر ، وان النزر من آرائه سبقت العصر الذى جاء بعده . على أنه فى وصف الدكتور « عثمـان ابراهيم » وفى تحديد موقف الأوروبيين من المثقفين ، نلمح ان هؤلاء الغربيين كانوا يقابلون بالاستهزاء، كل مجهود فى سبيل الحكم الدستورى

على الرغم من أن هذا الحكم لم يكن الا ستارا لحكم الفرد فى أمقت أوضاعه .

★ ★ ★

وفى يناير سنة ١٨٦٦ تترامى الى أسماعها ثورة « كريت » ضد السلطان العثمانى . وتشهد حركة فى « الأقصر » وما حولها لأن « الوالى » أمر بأن يجند مصريون لمساعدة السلطان على أهل « كريت » . وهنا تبدو قضية أخرى من قضايا السياسة : أو قل لقد كانت قضية من قضايا القومية المصرية نفسها . فالى أى حد كان يبلغ الولاء للسلطان حتى يعاونه « اسماعيل باشا » بجنود من عنده ؟ ثم ما موقف المصريين بين السلطان العثمانى من ناحية ، وبين دول أوروبا من ناحية أخرى ، وقد كانت تريد أن تتقاسم بلاده بأية ذريعة من الذرائع وبخاصة الذريعة الدينية؟ ثم ماذا كان موقف أهل الريف فى مصر من كل ذلك ؟ كانت الصحافة الأوروبية تقوم بالدعاية الواسعة ضد « تركيا » وكان المصريون من بدو وحضر موزعين بين الولاء الدينى لخليفة المسلمين وبين السخط على الحكام الذين ولاهم عليهم خليفة المسلمين .

« نحن هنا فى مصر نشهد الجانب الآخر من قضية «كانديا» أى الحرب فى « كريت » و « أوروبا » ـ بالطبع ـ لا ترى الا الجانب الواضح مما يناسبه أهل « كريت » ، ولكننى فى الواقع أرثى أكثر من ذلك لما يعانيه شباب الفلاحين فى مصر

الذين يسوقونهم سوقا ليشتركوا فى قتال لم تكن لهم يد فى اشعاله ، وليس فى قلوبهم عطف عليه » •

«ان حرب «كريت» تحزن كل الأسر هنا • والشيخ «يونس» أخو الشيخ « يوسف » من بين الكثيرين الذين جندوا فى هذه الحرب • وقد بدأ الناس هنا يقولون : نحن نرجو الا نقاتل « انجلترا وفرنسا » من أجل السلطان اذا أراد المسكوف أن يأكلوه ! فلن يهنأ لنا عيش حتى يطرد الأتراك • ويبدو أن كل ولاء دينى للسلطان قد ذهب » •

« ان « التيمز » تشير الى أنه يجب على السلطان أن يتخلى عن هذه الجزيرة ، ولكن هذا ما قاله كثير من المصريين قبل هذه الحرب بأمد بعيد • لقد كاد الفناء يحيق بالسلطان ، والمسلمون هنا يعلمون ذلك ويقولون انه سيكون أفضل أيام العرب يوم أن يطرد الأتراك من أرضهم ، بل يقولون أيضا ان التركى لم يكن فى يوم من الأيام أميرا للمؤمنين حقا • وانما فى أوروبا وحدها يتحدث الناس ويكتبون أن الأمر أمر صراع بين الاسلام والمسيحية ، وأن المسيحيين وحدهم هم المظلومون ، وأن المسلمين وحدهم هم الظالمون • وبودى لو أن هؤلاء يشهدون فى مصر كيف يهيمن « اليونانيون والمالطيون » على هذه الأرض متخذين المسيحية سببا » •

« ان الرجل الانجليزى يبسط سيطرته لأنه رجل حر ولأنه

يتمسك بعراقته البريطانية ، وهذا يختلف كثيرا عما ذكرت ، ولذلك فان العرب يرغبون فى الحكم الانجليزى ، ويخشون حكم المسيحيين الشرقيين ولهم الحق فى مخاوفهم تلك ــ فانه لو انتهى الأمر بأن استولى اليونانيون على الحكم فى «اسطنبول» فانهم سينزلون على المسلمين من الظلم ما تقربه أعين غلاة المتعصبين ممن كانوا يلعنون « ماهوند » ! (ص ٣٠٠) .

« أنا لا أعرف شيئا عن تركيا ، ولكنى رأيت وسمعت ما أتاح لى أن أدرك أن هناك انقسامات عديدة غير تلك التى بين المسيحى والمسلم : والانقسام بمصر فى حقيقته هو انقسام بين العربى والتركى . أما القبطى فانه يتخير الجانب الأقوى من أجل مصلحته هو نفسه ، فى حين أنه يتعاطف مع أخيه الفلاح . وعلى أية حال فان القبطى لا يريد مسيحيين آخرين أن يستولوا على السلطة ، فانه يؤثر أن يحكمه مسلم عن أن يحكمه حاكم خارج عن مذهبه ، فهو يمقت « اليونانى » قبل كل شىء ــ وهو ينظر الى الانجليزى كأنما هو صنف آخر من المسلمين : فهو يغتسل ولا يقتنى صورا فى كنيسته ، والقساوسة الانجليز يتزوجون ... » .

/ جاء كل ذلك فى رسالة لها الى زوجها فى ٢٤ يناير سنة ١٨٦٦ ، ولعلك قد أدركت معى أنه تصوير لحالة التحول التى كانت عليها مصر خلال هذه السنوات العجاف . فهى أفكار عن

سياسة الحكم يصطرع فيها الولاء لخليفة المسلمين ، والاحساس بالظلم ، والالتجاء الى أوروبا والخوف منها فى نفس الوقت .
وكأنما كانت مصر يومذاك تقدم رجلا وتؤخر أخرى فى التقرب الى أوروبا ، الى أفكارها ومبادئها وسياستها واقتصادها .

★ ★ ★

ولكن أين تكون صحتها من كل ذلك . لقد أسلفنا فحاولنا أن نصف التدهور الذى حل بصحتها فى سنة ١٨٦٥ . فاذا أقبلت سنة ١٨٦٦ وجدنا أن التدهور مازال ملحوظا ويوصيها الدكتور « عثمان ابراهيم » أن تأخذ حماما من الرمال الساخنة ، وأن تستخدم امرأة « دنقلاوية » لتدليكها . وفى فبراير من تلك السنة تكتب الى زوجها : «حل الجو الحار وقد تحسنت صحتى عند حلوله كما هو المعتاد . كانت قد ألمت بى اصابة خفيفة ولم تكن بالشدة التى أصابتنى فى « سودن » ولكنها ظلت تنتابنى طويلا ، فأويت الى فراشى لم أغادره حيطة منى . وكان معى صديقى العزيز « يوسف » فى المساء الذى أصبت فيه ، وسهر الليل بطوله الى جانبى يناولنى الدواء كل ساعة من ساعاته . وعند صلاة الفجر ــ وتقع ساعة ونصف قبل شروق الشمس ــ سمعت دعواته لى بالبقاء والصحة ، ودعواته لك ولجميع أفراد العائلة ، وقد فكرت فيما قرأته من قبل عن تعصب اليونانيين : فقد قيل انهم ذبحوا كل من أوثر بعطف الأتراك من بنى جلدتهم ــ وهذا مظهر من مظاهر التعصب أرجو أن يستنير به أتباع

المسـيحية الغربية فيما ينتظر حدوثه اذا هم آعانوا المسيحيين الشرقيين على أن تكون لهم اليد العليا » .

ومرة أخرى لا نرى أن شدة المرض حالت بينها وبين التفكير في الدين والسياسة ، بل هي تواصل رسالتها سـالفة الذكر فتتحـدث مع الشـيخ « يوسـف » فى أمـور الدين ويبدو من رسائلها انهـا لم تكن تميل الى « الكثلكة » . ولعلهـا ان كانت تناقش الشيخ « يوسف » فى أمور الدين وهى طريحة الفراش .

« سألنى « يوسف » يوما عن « ليدى هربرت » ، وقد سمع أنها اعتنقت المذهب الكاثوليكى . وقال لى : ما أشقاها ! لاشك أن القسيسين قد استطاعوا أن يلقوا فى سمعها ما أخرج عقلها من أذنيها . ولكن لا تخافى ولا تحزنى . ان لها قلبا كبيرا. وحسناتها جمة، وان الله لن يظلم أولئك الذين يعبدونه بقلوبهم. على أنه من المحزن أن نعلم أنها ستركع أمام الصور » .

ويمتد بينهما النقاش فى الدين. فيذكرلها عظمة الله وجلاله، وكيف انه سبحانه عظيم فى ملكوته وهو يعفو عن الضالين . قال الشيخ « يوسف » : انظرى الى عبدك « مبروك » . هل تظنين ان فى امكانه أن يدرك واحدا فى المائة مما تفكرين فيه ؟ ولكنه على الرغم من ذلك ، فانه يحبك ويطيعك فى كل ما تأمرينه به عن سرور فى النفس ، وبخفة فى الجسم . فهل تعاقبينه أنت

اذا هو لم يحط علما بكل أساليبك فى الحياة ؟ وهل تحسبين ان الله وهو أعلى بمدى بعيد جدا مما يكون بينك وبين عيدك ـ هل تحسبين ان الله سبحانه سيكون أقل عدلا منك ؟ وأرادت أن تحرجه فسألته عما يقضى به الدين الاسلامى فى أصوله فى معاملة المسلمين للنصارى واليهود ، فلم يجب بالرأى الصريح، واقتبس كثيرا من آيات القرآن ، وتجنب الخوض فى الحديث • وقال انه ليس لابن آدم أن يحكم حتى على عبدة الأصنام •

وتستمر فى الكتابة عن ذلك فتكتب : يريدنى « يوسف » أن أكتب كتابا عن الدين من املائه • ولكن هل ترى أنه من الممكن نشر مثل هذا الكتاب ؟ • انه ليسىء اليه كثيرا أن المسلمين متهمون بعدم التسامح • وهو على حق فى ذلك ، لأن ذلك غير صحيح فانهم يؤمنون عن اقتناع بأن دينهم خير أديان العالم بنفس السذاجة التى شممتها فى كثير من الانجليزيات اللائى ينطقن عن براءة وجهالة • والواقع أن ذلك ليس الا مظهرا من مظاهر الخيال الدينى ، ولكنه يخلو من المرارة والحقد مهما بلغ بهم الحماس الدينى •

وتمضى فى نقاشها الدينى تريد أن تلم أفكار الشرق وأفكار الغرب ، ويزورها فى ابريل سنة ١٨٦٧ شيخ يسكن قريبا من الأقصر اسمه الشيخ « عبد الرحمن » يتحدث عن العلم الالهى، ويعتقد ان علم المسلمين وحده هو العلم الصحيح ، وأن الله قد

أنزل هذا العلم على الحكيم لقمان! • وكان الشيخ «عبدالرحمن» يحمل مخطوطات لـ « جالينوس » و « ابن رشد » ، ولا يؤمن الا بما انحدر اليه منهما ـ أليس لكل داء دواء ! وكانت هذه عنده حكمة الله •

وانبرى له الشـيخ « يوســف » فتحدثا طويلا عن علم « الأفرنج » ، وتكتب « لوسى » فى خطاب لها الى زوجها فى ١٩ ابريل سنة ١٨٦٧ ، نبذة عن هذا الحوار :

قال له الشيخ « يوسف » : « ما هو علم المسلمين ؟ لقد أوحى الله الى نبيه الدين ، ولسنا ننتظر زيادة على ذلك ، ولكنه سبحانه ترك ما بقى من العلم لعقل الانسان ـ وجاء فى الأثر ما يفيد بأن العلم كله من عند الله حتى علم عبدة الأصنام • فلم اذن يحجب المسلمون أنظارهم عن نور العلم ونظل أبدا فى جهالة الأطفال ؟ • ان علم الأفرنج شرعى كسائر أنواع العلم • وحينما سمع ذلك الشيخ « عبد الرحمن » التزم بحكمة الصمت فلم يجادل الشيخ « يوسف » لكنه بدا عليه الاستياء » •

ووجهة دينية أخرى تكتب عنها فى رسائلها لزوجها فى شهر مايو سنة ١٨٦٧ تلك هى مسألة التبشير الدينى • والغريب فى ذلك أن المســـلمين لم يكونوا يهتمون كثيرا بالمبشرين الذين تدفقوا على الصعيد فى الستينات من القرن التاسع عشر • انما

الذين اعترضوا عليهم اعتراضا عنيفا كانوا الأقباط أنفسهم . كانت البعثات التبشيرية تحاول تحويل الأقباط المصريين عن مذهبهم الأورثوذكسى داعين الى المذاهب البروتستانتية على اختلاف أنواعها . ولكن البطرق القبطى ناهض ذلك العمل كل المناهضة فحرم من تحولوا الى غير مذهبهم من نعمة الكنيسة الأورثوذكسية ورعايتها ، واستعان بسلطة الحكومة ليعاقب الخارجين عليه ، ولم تر « لوسى » فى كل ذلك الا تعصبا من جانب البطرق . وفى كتابتها عنه تحاملت عليه كل التحامل .

« أساء البطرق فى رحلته هذه . فقد جاء فى موكب من مواكب الأبهة كما لو كان ربيب الباشا ، وأكل الفلاحين وضربهم . كان على أقباط « الأقصر » ان يدفعوا خمسين جنيها جزاء تشريفه لهم ، هذا الى جانب ما قدموه من دجاج وزبد وغير ذلك من الأطعمة . ولو ان بى نزعة الى التبشير لاستطعت أن أحول الكثيرين ممن سلبت جيوبهم وسلخت ظهورهم ، ولكن المبشرين الأمريكيين سيفعلون ذلك ! ... »

« لست أدرى متى تتخلى أوروبا عن هذا الوهم السخيف الذى يطوف بعقول أهلها من أن المسلمين يضطهدون المسيحيين . انه على العكس تماما ـ هنا على الأقل ، اذ المسيحيون يعلمون أنهم على أية حال سيتلقون تأييدا من قنصل من القناصل ، أما المسلمون فقد كتب عليهم أن يؤمروا فيطيعوا . ان هذا البطرق

القاسى مصمم على أن يضطهد المتحولين عن مذهبه ، وقد دعانى أحد المشايخ هنا الى أن أذهب بنفسى الى شيخ الاسلام وأطلب اليه أن يطالب بالمساواة بين كل المذاهب والأديان من أجل الأقباط البروتستانت • والعلماء فى كل مكان يقولون مافى طاقتهم لحماية المرتدين عن الأورثوذكسية حتى فى أسيوط نفسها حيث أحدث المبشرون الأمريكيون شغبا فى ظرف من الظروف • لا يستطيع أحد فى أوروبا أن يدرك الى أى مدى للاقباط اليد العليا فى القرى ، فان الحكومة تعاونهم ، وهم يعلمون حق العلم أن الأوروبيين سوف ينحازون الى جانبهم » (ص ٣٢٣) •

***

أرأيت كيف تختلط أفكار الشرق بأفكار الغرب ، وكيف تعلو الأفكار السياسية حتى تبلغ درجة الحكومة الديموقراطية، ثم كيف تهبط الى حيث حكومة الفرد بكل ما يميزها من عسف وجور ؟ ثم أرأيت كيف تقسمت هذه الأجيال الجائعة بين الولاء للخليفة المسلم والثورة على حكمه ؟ ثم أرأيت كيف كانت رابطة الآلام الموحدة تربط بين المسلمين والأقباط ، وكيف تدخل المبشرون ليردوا الأقباط عن مذهبهم ؟ ولا نرى ان « لوسى دف جوردون » كانت موفقة كل التوفيق فى التعقيب على كل ذلك لولا انها كانت صادقة فى تصوير الموقف كما شهدته •

١٠ـ سنة أخرى حزينة

« اننا فى مصر تأكلنا الضرائب ولم يبق فى يد أى واحد درهم واحد وقد جمعت ضرائب السنة بأكملها ـ أى ضرائب ثمانية أشهر ـ مقدما ـ وضرب البؤساء حتى استخرجوها منهم قسرا • لقد رأيت واحدة من الفتيات الراقصات ـ وهناك ثلاث منهن فى « الأقصر » • وأبلغتنى كيف أصبحت الضرائب عليهن عبئا باهظا • فقد ترك لجامع الضرائب أن يقررها بحسب ما يرى من مكاسـب كل منهن • ويتوقف ذلك فى نظـره على درجة ما أوتين من حسن المنظر • وكذلك تعرضت هؤلاء البائسات لأهواء رجال الشرطة واستنزافهم • وقد أثارت هـذه الضريبة الأخيرة ثائرة القوم أكثر من أى وقت مضى حتى لقد قال فلاح حين سمع بها : اننا نعرف الآن اسم حاكمنا • أن اسمه « ••• باشا » (ص ٢٩٣) •

كذلك مضت فى رسائلها لزوجها بتاريخ ٣١ ديسمبر سنة ١٨٦٦ — وهى تتمة لموضوع مجلس الشورى الذى عالجته فى نفس الرسالة • ويبدو أن حكومة القاهرة كانت قد ترددت فى الاستدانة والاملاق • وكلما زادت الحال سوءا فى القاهرة ، وطالب الأفرنج بديونهم ، زادت الحال سوءا فى الريف فاستخدم الكرباج وامتنع الأمن وقلت الخيرات • وبعد شهر من خطابها سابق الذكر تكتب لزوجها فى ٣ فبراير سنة ١٨٦٧ :

« لا أستطيع أن أصف لك البؤس الذى يخيم على البلاد هنا • والحق أن مجرد التفكير فيه مما يشقى النفس • فكلما طلع نهار جديد زادت على الناس ضريبة جديدة • فقد فرضت ضريبة على كل دابة فى الأرض : سواء كانت جملا أو بقرة أو شاة أو حمارا أو حصانا ، فعلى كل دابة من هؤلاء ضريبة • ولا يستطيع الفلاحون أن يتحملوا أكثر من ذلك ، فهم لا يعيشون الا على طعام من الشعير مخلوطا بما ينبت من خشاش الأرض — وهذا فى نفسه أمر مروع لقوم اعتادوا طيب الطعام ، وكل الذين أراهم من معارفى ألمح على وجوههم جهامة الاملاق ، وأرى على أجسامهم الخلق من الثياب ، وأشعر أن فى نفوسهم مرارة الاشفاق • و « يوسف » — وهو الذى لم يستدن مطلقا — اتباعا لأوامر دينه — قد فكر فى أن يبيع جاريته الصغيرة ، وقد باع حماره بالفعل ، و « يوسف » أغنى هؤلاء — ان فرض

الضرائب يكاد يجعل الحياة مستحيلة : فعليهم أن يدفعوا مائة قرش على الفدان الواحد ، ومائة على كل محصول ، وعلى كل موسم من مواسم الفاكهة ، ومائة حين تباع الفاكهة فى الأسواق، ثم هناك ضريبة على كل رجل وعلى الفحم والزبد والملح ، وعلى كل راقصة • ومن الغريب ألا يلحف الناس فى سؤالى ولا حاول الاقتراض منى أكثر من ثلاثة » (ص ٣٠١) •

ذلك ما كتبت فى رسالة الى زوجها فى مطلع سنة ١٨٦٧ • وهى عندنا سنة حزينة أخرى يتكرر فيها ما عانته « الأقصر » وما جاورها من بلاد فى سنة ١٨٦٥ • وكان « اسماعيل باشا » قد استطاع أن يجعل وراثة العرش فى أكبر بنيه فى خلال سنة ١٨٦٦ ، وكان قد منح البلاد حكما دستوريا فى تلك السنة أيضا وظفر بلقب الخديوى سنة ١٨٦٧ • ولكن هل كان كل ذلك كافيا ليريح البلاد والعباد من أعباء الضرائب ، فهذا ما تجيب عنه « لوسى دف جوردون » فى رسائلها •

وفى مارس سنة ١٨٦٧ تكتب ما يلى :

« يمتلىء السجن عندنا بالرجال ، ونرسل اليهم الغذاء يوما بعد يوم • وفى يوم من أيام الأسبوع الماضى ذهبت امرأة مع زوجها تحمل وعاء خشبيا كبيرا فيه غذاء مطبوخ • وكان رجل اسمه «خالد أفندى» ـ وهو وكيل جديد ـ يراقب المساجين فقال

لها : « عمَ تسألين أيتها ال ... ؟ » فقال له الرجل : « ليست هـذه ... يا أفندى : انهـا زوجتى » . وعند ذلك ضرب الرجل حتى أغمى عليه . وتفجعت المرأة على زوجها وأخذت تندبه . ثم حمل الرجل ومروا به أمام منزلى . وسار وراءه نساء ارتفع عويلهن كما لو كان بهن مس من الجنون . أما الزوجة فقد كانت تلطم وتحثو التراب على رأسـها ، فبدت صـورتها كما تبدو الأيامى والثكالى مصـورة فى مقابر مصر القديمة » ..

« قد تكون حالة الضنك فى انجلترا مروعة ، ولكنها ليست على الأقل نتيجة للاستنزاف كما هى فى هذا البلد . فالطبيعة هنا غنية موفورة ، ولكن البشر هنا أشقياء . وليس الأمر هنا أمر جوع بسيط ، لكنه هو الظلم الشديد الذى يدفع الناس الى الجنون . لم تكن الشـكوى شـأنهم فى الماضى لكنهم اليوم يهجرون القرى هربا من الظلم » (ص ٣٠٥) .

وتكتب فى ١٥ مايو من تلك السنة الى زوجها :

« لقد أجهدت نفسى فى الكتابة عن هذه المأساة التى يعانيها هؤلاء المساكين . لقد أخذ ثلثمائة وعشرة منهم قسرا يوم الاثنين الماضى : وكان اليوم يوم عيد الفصح . وكانوا يحملون خبزهم وأدوات العمل ، لكنهم عادوا من « قنا » بعد أيام أربعة لأنه

لم تكن قد وصلت أوامر تشغيلهم ، وكانت العودة بالمراكب على حسابهم الخاص ولم يلبثوا فى « الأقصر » غير خمسة أيام حتى طلب اليهم أن يعودوا الى « قنا » ثانية . وفى نفس الوقت تم حصاد القمح وهو بعد أخضر ، وألقى جانبا من غير أن يدرس تلتهمه الطيور والجرذان . أما الخبز الذى كان يحمله الرجال معهم فقد تهشم من كثرة ما تناولوه فى نقله من المراكب واليها . وعلى الآن أن أرسل ابلا فى طلب الفحم لأن العبابدة يرفضون أن يأتوا به الى السوق لثقل الضريبة المفروضة عليه وعلى أيضا أن أشترى الزبد خلسة حيث لا يؤتى بها فى الأسواق » (ص ٣١٨) .

ثم تكتب من القاهرة فى ٢٨ يولية من تلك السنة الى والدتها : « لا جدوى من الحديث عن الأحوال هنا ، فان الطبقات جميعها تعانى من هذه الضرائب الرهيبة ، وهى سبب خراب الفلاحين خرابا ماحقا ، وسبب الدمار الذى أنزله بالتجارة ذلك الباشا الذى يسبحون بحمده . وقد أصبح الناس يدعون فى صلواتهم ألا تكتب له السلامة فى عودته من « فرنسا » حيث هو الآن ، بل يدعون الله أن يقيضه اليه وأن يدفن فى مقابر الكفرة . لقد شكا الى البقال الذى أتعامل معه لأنهم شقوا فى القاهرة طريقا واسعا على هيئة شوارع « باريس » وذلك على أساس تجميلها . لكنهم استولوا على أملاك أصحاب البيوت

على جانبى الشارع من غير تعويض الا لأولئك الذين هدمت نصـف بيوتهم ، فقد أعطوهم مالا وألزموهم بأن يكملوا به واجبات بيوتهم على النمط الافرنجى ، ثم هم لا يستطيعون بعد ذلك أن يسكنوا بيوتهم ولا أن يبيعوها » (ص ٣٢٩) .

وتكتب بعد ذلك بشهر الى زوجها : « حصل هياج كبير هنا الآن فانه قد خفض من موظفى الحكومة خمس مرتباتهم ، وفصل من الخدمة نصفهم وأصبح على كل ذى حرفة أن يدفع خمسة وعشرين قرش تعريفة اذا طلب اذنا بالعمـل ، واستعيدت ضريبة الرءوس الكريهة ، ويقولون انه سيمتد العمل بها فيشمل النساء والأطفال ، ولم يتسلم الناس مليما واحدا من الحكومة فى التسعة الشهور الماضية ، ويسـير أفقر الموظفين فى أسمال بالية ، يكاد يودى بهم الجوع ، ويمتنع اليهود عن اقراض الأهلين حتى يؤدى هؤلاء لهم ما عليهم من الديون » . (ص ٣٣٥) .

ونلاحظ انها كتبت الخطابين الأخيرين من القاهرة ، وأن النغمة الباكية التى تسرى بينهما هى نفس النغمة الحزينة التى طالعتنا فى رسائلها من « الأقصر » فهل يكون ما تحدثت به عن فقر الناس ، وبؤس الموظفين مبالغا فيه ، أم هو فى حقيقة الأمر المظهر الأوضح من مظاهر الضائقة المالية التى كانت تأخذ بأكظام الناس فى مصر ريفها وحضرها ، وشماليها وجنوبيها ؟ .

وهذه السنة الحزينة نفسها شــهدت فترات حاولت فيها الترفيه عن نفسها • وفى أوائل مارس من تلك السنة ـ أى سنة ١٨٦٧ ـ تزورها ابنتها « جانيت » وزوج ابنتها « هنرى رس » ويقيمان فى « بيت فرنسا » ، ويرتحل الجميع الى « اسنا » و «أسوان» ، وفى انتظار ابنتها تكتب فى ٧ مارس أن «جانيت» لن تتحمل كثيرا « الشمس الكبيرة » ولن تميل اليها ، ولن تحبها كما مالت هى اليها وأحبتها • بل تقول « لوسى » : « اننى أنا التى أعبد « آمون رع » وأحب أن أحس به فى علياء مجده » •

وتكتب « جانيت » خطابا الى أبيهــا « الكسندر دف جوردون » تحكى قصة هذه الزيارة وما تبعها من رحلات • كان ذلك فى ١١ مارس سنة ١٨٦٧ : وفيما يلى هذه القصة :

« أكتب اليك الآن ونحن ننعم بالحديث الشــائق الذى تتحدث به الينا « ماما » ، وكل ما كنا نرجوه أن تكون أنت معنا أيضا • لقد وصلنا الى هنا الساعة الثامنة من صباح اليوم التاسع من شهر مارس ، وكانت الدنيا شديدة الحرارة ـ ولكن والدتى تجد فى ذلك الراحة كل الراحة ، وتعلن أن هذه الحرارة المحرقة تصلح من صحتها • ولست أستطيع أن أقول انها فى صحة جيدة ، بل يبدو على محياها آثار الكبر • ولا يخطر ببالك ما تتمتع به من القوة والنفوذ فى هــذا البــلد • فقد دهش

« هنرى » لذلك وهو العليم بأحوال الشرق . وحينما وقفت بنا الباخرة فى بدء الرحلة لتموينها بالفحم ولشراء حاجتنا من الطعام ، بدت لنا القرى وكأنها كانت مهجورة ، لم يظهر فيها الا غلمان صغار ، ونساء عجائز . وادعى هؤلاء أنه لم يكن فى القرية شيء يشترى فلا دجاج ولا لبن ولا خبز ، وأدرك «محمد» ــ وهو أحد رجالنا ــ أن الموقف يستدعى الحيلة . ذلك أننا كنا على احدى بواخر الحكومة : ومعنى هذا عند الأهلين أن الفحم والأطعمة ستؤخذ قسرا ، وأنهم سيتناولون ثمنا لها ضربات الكرباج بدلا من رنات القروش . وعلى ذلك فقد قفز « محمد » الى النهر وسبح الى منعطف منه واجتاز الحقول الى القرية التى كنا على أن نرسو عندها لنقضى فيها الليل ، وهناك أعلن أن القادمة على ظهر المركب هى بنت « الست الكبيرة » : وأنها مثل أمها تحب العرب . وأثر هذا فى الناس تأثير السحر . فلم تكن هناك بعد ذلك صعاب فى جمع الغذاء ، اذ أنهم ما ان سمعوا بذلك حتى ظهرت الأطعمة من لبن ودجاج وخراف ، وبيعت لنا بثمن بخس : وبعضها قدم لنا على سبيل الهدايا ــ وكنا ندفع لهم على رغمهم . والغريب أن الأنباء تنقل هنا سريعة عجلى ؛ وحينما قربنا من « الأقصر » وجدت الاهلين ينتظروننا بهدايا من الخبز واللبن والدجاج الى غير ذلك ــ فرجل منهم يذكر أن ستى « نور النور » قامت بعلاجه ، ورجل آخر سمحت له بالسفر على مركبها ، وثالث عطفت على ولده أثناء مرضه فسبقنا من

« قنا » الى « الأقصر » ليعلن مجيئنا . وأظهر العلماء ما عند المسلمين من تسامح فأخرجوا شاراتهم وأعلامهم الدينية ليزينوا بها منزل « ماما » تحية لنـا » (ص ٣١١) .

وتمضى « جانيت » فى خطابها الى والدها لتحكى كيف أنهم فى مساء يوم مقدمهم تناولوا العشاء عند « سليم افندى » ووصفت رحلتهم الى منزل مضيفهم وهم يسيرون بين الحقـول ووالدتها تركب حمارا ، وتقول هى أيضا ان المنظر كان يذكرها بما كانت قد قرأته فى الانجيل .

ثم تصف « بيت فرنسا » فتقول : « كم أود لو أستطيع أن أبنى نفقـا فى هـذا المنزل ! انه مبنى على سطح معبد كبير ، وتتكون أرضيته من كتل ضخمة هى نفسها سقف المعبد. ويستطيع الانسان ان ينظر من الشقوق فيرى ظلمة لا قرار لها. ولا أظن أن أجزاءه كلها سليمة ، بل يبدو أن بعضها خطر لايأمن لها الانسان . والواقع أنه قد تهدمت منه ثلاث أو أربع غرف فى السنة الماضية ، ولكن الجزء الذى تقيم فيه « ماما » لايزال سليما ، ويبدو أن جوانبه لاخطر منها . أما شرفتها التى تطـل على النيل فهى ساحرة ، ومناظر الشمس عند الغروب فخمة . سنذهب غدا الى « أسوان » ، وتظن « ماما » أن تغيير الجـو سوف يفيدها ، وكذلك سنرى معبد فيله » .

وفى ١٧ مارس تصـف رحلتهم الى « آسوان » فتقول :
« وقفنا عند « اسنا » ، وقضينا فيها ليلة ، ثم واصلنا رحلتنـا الى « أسوان » — وهى قرية صغيرة قذرة فى موقع جميل • حتى « ماما » قد استفادت وتحسنت صـحتها ، وأحسب أن طيب الكلام له هذا الأثر المحمود • وما أمتع كلامها !• أنا لا أظن أن أحدا يستطيع أن يتحدث كما تتحدث » •

وفى « أسوان » انتقلوا الى البر الغربى فى قـوارب ، وذهبوا الى جزيرة « الفانتين » وتخطوا الشلال فى قـارب عند فيله وكان المنظر الذى شهدوه رائعا •

وانما أفضنا فى هذا الحديث بعض الافاضة حتى نرى « لوسى دف جوردون » كما يتحدث عنها غيرها • ففى هـذين الخطابين اللذين ارسلتهما « جانيت » الى أبيها تلمح مدى قوة العزيمة التى كانت تتمتع بها هذه السيدة العظيمة ، ففى نفس الوقت الذى كانت فيه تتفجع لما يعانيه الناس من عسف وجور، وفى نفس الوقت الذى كانت فيه تذوى كما يذوى شجـر الخريف، كانت تريد أن تمتع نفسها بالارتحال والزيارة واستقبال « آمون رع » ، والنوم الى جانب « اوزيريس » ، ثم كانت ثرثارة تتحدث الى ابنتها عن كل شىء — وتلك شيمة ندركهـا من قراءة رسائلها •

ونستروح نفحة أخرى من الراحة اذ تكتب الى والدتها فى ٢٣ مايو تشكرها على أنها أرسلت اليها صندوقا فيه نظـــارة ومئزرا وبعض اللعب وتقول فى ذلك : « أشكرك شكرا جزيلا على كل ماارسلته فيه، وبخاصة على تلك النظارة، وقد اهتززت فرحا حينما رأيتها ولمستها ، وحينما وضعتها على عينى استطعت أن أرى رأس ذلك الطائر الجميل الأبيض الذى يلتمع من قمة شباك صغير الى جانب الغرفة ، وأتيح لى أن أضعها على عينى ثم أرفعها والقيها على المنضدة ، وكم اراحتنى هذه الحــركة، فقد جاءت كأنها احدى الرؤى • وزادت الرؤية اتضاحا حينمـا فى أفريقيا • وتقول متهكمة ان الرجل قد بلغ من الصلف مدى بأكملها » (ص ٣٢٤) •

ويمضى شهر مايو من تلك السنة فى « الأقصر » فتشغل نفسها بهموم الناس • وتستقبل « جعفر باشا » حاكم السودان فترى أنه بسيط لم يأت فى بطانة ولا حاشية ، وهو فى أدبه جنتلمان يمتاز بالخلق الكريم • وتستقبل شاعرا من شــعراء الصعيد يشدو بأعمالها ويسميها « زهرة العرب » ، ويدعو الناس الى الحج الى بيتها وأن يتخذوه مثابة لهم ، ويشيد بذات النورين التى أضفت على الصعيد نورا على نور • وفى آخر مايو ترحل من « الأقصر » الى « القاهرة » على ظهر مركبها « أورانيا » أو « العروسة الغالية » كما كان بحارتها يسمونها •

وعلى « أورانيا » كان كثير من الخلق . وكان يصاحبها في طول الطريق الطويل قوارب نحتمى فيها . كان على المركب فئات شتى من الناس : عجائز يقصدن القاهرة لزيارة أبنائهن ، وطلبة من المجاورين فى الأزهر ، وأكداس من اللحم والدقيق والخبز لتسليمها الى مجاورين آخرين فى « القاهرة » . وفى كل مكان مرت به كان النساء يأتين اليها سافرات يملأن جرارهن، ويتحدثن معها حديثا طويلا . وذبح بعض الأهلين لها شاة تحية لمقدمها ، وجاء اليها بعض المرضى يسألونها العلاج . (٣٢٧٨)

وتتوالى رسائلها من القاهرة الى أمها وزوجها خلال شهرى يولية وأغسطس من سنة ١٨٦٧ ، وقد وجدت نفسها فى قلب العاصمة التى تموج بالأجانب ومشاريعهم ، وتغص بأبناء البلد ومظاهر فقرهم . وتعود فتنحى باللائمة على « اسماعيل باشا » أيضا . لقد أصبح الآن « خديويا » فقد نال هذا اللقب فى نفس السنة ، واستطاع أن يجعل ميراث عرش مصر من حق ولده الأكبر فى السنة السابقة ، وكان توفيقه فى الناحيتين نتيجة للبذخ الذى أضفاه على السلطان « عبد العزيز » ، وبفضل الرشى والهدايا التى قدمها للسلطان نفسه ولبطانته . وكان « اسماعيل » فى تلك الفترة مع السلطان « عبد العزيز » فى « باريس » ولقى معه «لويس نابليون» ، ثم صحبه الى «لندن» ولقى معه الملكة « فكتوريا » وعلى الرغم من أن مقابلة السلطان

لهذين العاهلين قد أثلجت صدور المسلمين فى « مصر » ، الا أن « لوسى » رأت فيهما الجانب الزائف فى استقبال السلطان ، وفى موقف « الخديوى » فى اللقاءين ٠

ونقرأ فى الصحف الفرنسية التى تناولت « اسماعيل » بالمديح ، أن « الخديوى » قد أعلن أنه سيحارب تجارة الرقيق فى كل مكان ، وأنه سيضرب بيد من حديد على تجار الرقيق فى أفريقيا ٠ وتقول متهكمة أن الرجل قد بلغ من الصلف مدى لا حد له ، فهو يعلم وهو يعلن ذلك فى الصحافة الأوروبية أنه هو نفسه يملك ثلاثة آلاف جارية ، وانه يسخر فرقا وكتائب بأكملها من العبيد فى زراعات السكر التى يمتلكها !٠

★ ★ ★

ثم ! ثم كتبت خطابا لوالدتها فى اليوم الثامن من أغسطس ١٨٦٧ ــ كان آخر خطاب تكتبه لها لأن والدتها توفيت فى نفس اليوم الذى كتب فيه الخطاب ٠

كانت هذه أشد فاجعة ألمت بها فى هذه السنة الحزينة، اذ كانت وفاة والدتها « سارة أوستن » هى الضربة القاضية التى أكلت قلبها ، وأنذرتها بالموت المنتظر ٠ وأحسن ما كتبت « لوسى » من رسائل كان لهذه السيدة الفاضلة ٠ لقد كانت أمها ــ كما ذكرنا ــ فى القمة من الثقافة ، فهى التى استجابت لكل ما كتبه زوجها « جون أوستن » فأخرجت محاضراته عن

الفقه القانونى فى مجلدين لا يزالان مرجعا الى اليوم ، ثم هى التى نشرت رسائل ابنتها « لوسى » من « كيب تاون » ثم نشرت بعض رسائلها من « مصر » . وكان بينها وبين ابنتها « لوسى » أشد ما يكون التجاوب فى العاطفة والشعور والطباع . وقد توفيت هذه الأم الرءوم فى اليوم الثامن من أغسطس سنة ١٨٦٧ وفى الثانى عشر من أغسطس نعتها جريدة « التيمز » قائلة : « لقد جمعت مسز « أوستن » الجمال الشخصى الفاتن فى شبابها ، ورقة الشمائل التى لم تنتقص منها السنون ، الى جانب قوة فكر شبيهة بقوة فكر الرجال ، بالاضافة الى قلب كبير .. وكانت القوة التى تبسطها على المجتمع ترجع الى الصفات الأصيلة التى امتازت بها ، والى ما كانت تتحلى به من حكمة ومعرفة ، والى أسلوبها فى الكتابة ، وقد بلغ القمة من النقاء والسمو ، ثم الى ميزة تذكر لها قبل أية ميزة أخرى : وهى أنها كانت على استعداد لأن تزيد كل ما هو حسن حسنا ، وأن تسمو فى عملها بكل مبدأ خلقى ، وان تمديدها لكل من يسألها المعونة » (٣٣٥) .

تلقت « لوسى » هذا النبأ الفاجع فى التاسع عشر من ذلك الشهر ، ولم يمس مساء ذلك اليوم حتى كتبت لزوجها الخطاب التالى :

« أتى خطابك هذا الصباح ، وقد أحدث لى بالطبع هزة نفسية . لقد كنت أؤمن بما قاله الدكتور « باترسون » من أنه لم يكن أمام أمى الا بضعة شهور وتقضى نحبها ، ولكن لم يدر بخلدى أن الفاجعة كانت وشيكة الوقوع بهذا القدر . اننى أحمد العناية أن المرض لم يمهلها طويلا ، وذلك من أجلها بل ـ وأكثر من ذلك ـ من أجلك أنت يا أعز حبيب الى . كم كنت أشقى حينما كنت أذكر العبء الذى تحملته أنت من أجلى! وانى لأشكرك من أعمق أعماق قلبى لعطفك وحدبك عليها . لقد كتبت الى عند مرضها الأول : « ان زوجك الفاضل كان برا بى كما يكون الأبناء للامهات » . وترى من ذلك أنها كانت تحس فى دخيلة النفس بصبرك على العناية بها وحدبك عليها مهما أخذت منها العلة ، ومهما اعتلت عليها الكلمات حين كان ينحرف مزاجها » .

« تحياتى وحبى لوالدتك ، وقبل ولدى « موريس » من أجلى . وكم أود أن يكون مجدا فى عمله . انه لما يثقل قلبى أنه كسلان وأن عمله غير مرضى . لا أستطيع أن أواصل الكتابة اليوم لألحق بالبريد ، فانى أشعر بدوار يصحبه صداع شديد. وهذه علة جديدة لم أكن أشكو منها من قبل ، وأظن أن السبب فى ذلك هو أننى لا يمكننى أن أبكى كما يفعل الآخرون . أشكر لك مائة الف مرة عطفك على أمى المسكينة » .

وتكتب الى زوجها خطابا آخر فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٦٧ عن هذه الفاجعة فتقول : « ان أمى المسكينة لاتزال تثقل ذكراها فؤادى . قد أجد بعض أحيانا فترات من الراحة ، ولكن الألم يحز فى نفسى حزا لا أستطيع أن أعبر عنه ـ الا أنه عميق . أحمد الله على أنها لم تعش بعدى وذلك من أجلها ـ ومن أجلك أنت قبل كل شىء . وانما أقول كما يقول الناس هنا اذا أصابتهم مصيبة : « الحمد لله ! » على أن هذا الشعور فى نفسه يدعو الى الأسى لا الى التأساء . وأظن أنك تدرك ما أعنيه على الرغم من أن ما أقوله لا يبدو جميعه معقولا » .

« ويجد « عمر » عزائى فى قراءة القرآن . وقد تلى القرآن فى المركب من أجل أمى منذ أن جاءنا نبأ وفاتها . وبدىء بتلاوته فى الساعة الثالثة بعد الظهر من يوم الخميس ، ولم يختم الا فى فجر يوم الجمعة » .

ولعل فجيعتها فى والدتها نبهتها الى شواغل أخرى ، فقد كانت وفاة أمها ـ كما قلنا ـ نذيرا لها . فأخذت بعد ذلك تعد العدة للنهاية المحققة . فدبرت أمرها فيما يتصل بخادمها « عمر » ، وكتبت لزوجها فيما لعمر عليها من أجور ، وفيما يختطه لنفسه من بناء منزل له مستقل فى الاسكندرية ثم فيما أودعه من مدخرات فى أحد بنوك « لندن » هربا من تدليس البنوك الأوروبية فى « مصر » ، وفيما توصى به من الاحتفاظ

بسفينتها « أورانيا » على أن يكون عمر ربانها • وتنصح زوجها في خطاب لها في ٧ سبتمبر أن يحتفظ بأثاث منزل والدتها في « ويبردج » وان يتصرف في ميراثها وقد بلغ أربعين ألفا من الجنيهات • لكن جزءا من شغلها الشاغل كان عبدها « دارفور » فهي تكتب الى زوجها في نفس الخطاب : « اذا أنامت فعليك أن تأخذ هذا الزنجي الصغير في كنفك ، فهـــو روح مرحة واني متأكدة أنك ستحبه وقد أصبح الآن مخلوقا متمدنا ، وله مزاج ساحر • واني لأشفق عليه اذ انه طفل صغير وأخشى عليه إذا هو ترك وحيدا في هذا العالم » (ص ٣٣٦) •

لكن أفكارها جميعا كانت تنصرف الى ابنتها « أورانيا » وابنها « موريس » أما « أورانيا » فقد أوصـت بأن تقيم مع عمتها « شارلوت » ، وأما « موريس » فقد كان في سن الشباب وكانت قلقة ما تزال تفكر في مستقبله • ولعل ما استتبع تربية « موريس » من مشكلات كانت هي التي أقضت مضجعها خلال شهور الصيف من سنة ١٨٦٧ ، ثم كان مركزا لاهتمامها في السنة التالية • فلا تكاد رسائلها في تلك السنة تذكر الأحداث السياسية ولا الجدل الديني ، ولا بحوثها في عادات القوم وأخلاقهم ، بقدر ما تذكر ولدها « موريس » •

★ ★ ★

ومحنة أخرى كان مقدرا على « لوسى دف جوردون » أن

نصيبها وكانت نذيرا آخر لها ، تلك هى تهدم « بيت فرنسا » وكانت قد غادرت « الأقصر » الى القاهرة فى آخر مايو سنة ١٨٦٧ و « بيت فرنسا » • أو « قصر طيبة » متصدع يكاد ينهار ولم تكن تعلم حين خرجت منه ذلك اليوم أنها لن تدخله مرة أخرى • كتبت « جانيت » عنه أن جانبا منه قد انهار ، وتكتب هى الى زوجها فى ١٥ مايو من تلك السنة « ان منزلها قد تهدم وان ديكا روميا سقط فى شق من شقوقه وانها تخشى على كلب لها من هذا المصير • وتنتهى الرسالة بأن نقول : لا أستطيع أن أواصل الكتابة لأن فأرا أكلت جزءا من أصبعى السبابة أثناء الليـل » •

ويتهدم « بيت فرنسا » تهدما تاما فى غيبتها • وترجع الى « الأقصر » فتجده حطاما ، فهى تقـول فى رسالة لها الى زوجها فى ديسمبر سنة ١٨٦٧ :

« ان نصف البيت القديم فى « الاقصر » قد هوى الى قاع المعبد قبل أن أصل الى « الأقصر » بستة أيام فقط • وأظن أن هذه نهاية « بيت فرنسا » ، ولعله يمكن أن يعاد اصلاحه بنفقات قليلة ولكن لا أظن أن القنصل سيقبل ذلك ، ولا أظن أننى سأقوم بذلك الا اذا كنت أحتاج اليه ؛ ولم يبق قائما منه الا الغرف الصغيرة الثلاث على واجهته، والصالة الكبيرة والحجرتان

اللتان تنتهى بهما . لقد تقوض الجزء الذى كنت أسكنه جميعه، وكذلك السلم الذى يؤدى اليه ، فلا يمكن أحدا أن يدخله » (ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩) ورأت نفسها وولدها وأتباعها يقيمون فى المركب على صفحة النيل . وكان ذلك سببا فى تجوالها مرةأخرى بين « الأقصر ، واسنا ، وأسوان .

★ ★ ★

وكذلك انتهت هذه السنة الحزينة الأخـــرى فقد كانت « لوسى » تعانى من ضميرها . كانت نفسها تتحرق شفقة على الناس ورحمة بهم . وكانت حركة تريد أن تستروح نفحـات من الحياة قبل أن يدركها سكون الموت . وكانت صابرة مؤمنة أمام فجيعتها فى أمها الرءوم . وكانت سيئة الحظ حين تمنت أن ينشأ وحيدها على ما أملته من ثقافة . ثم كانت راضية حينمـا تقوضت أسطورة « بيت فرنسا » .

١١ـ ولدها موريس

حينما غادرت « لوسى » انجلتـــرا أول مرة كان ولدها « موريس رف جوردون » فى الثالثة عشرة من عمره : فى تلك السن الحرجة التى يحتاج فيها الناشى الى الرقابة الواعية • وقد أرسل ــ كغيره من أبناء الطبقة العليا فى انجلترا ــ الى مدرسة « ايتون » وهى احدى المدارس الخاصة باهظة التكاليف التى تسمى تأدبا « المدارس العامة » • وكانت آمال « لوسى » منعقدة على هذا النجل ، وأرادت به ألا يقتصر على ما يتلقاه من دروس بل ظنت فيه الفطنة والدأب على العمل ، وخالت أنه ربما التحق بالسلك السياسى كمئات الصبية الذين ذهبوا الى مثل هــذه المدرسة فأصبحوا هم بناة الامبراطورية • وارتأت أن تحمــله على اتقان اللغات الأجنبية ــ وبخاصة الفرنسية حتى يــكون

مؤهلالمثل هذا العمل • وورث من أحد أصدقاء العائلة ـ وهو «لورد لاندسداون» ـ خمسة آلاف من الجنيهات وبدا أن هذه الآمال غير بعيدة التحقق •

ولكن يبدو أن الآباء والأمهات طالما أخطأوا فى الذهاب وراء مثل تلك الآمال العريضة • وقد يكون الناشيء من هؤلاء غير مبالٍ لما يراد به من ثقافة أو سياسة • وبسبب هذا قلقا عند الوالدين ، كما يسبب بلبلة عند النشيء أنفسهم • وكذلك كانت الحال مع « موريس دف جوردون » • وكانت أمه تحسب أنه لا بد أن يرث عن أسرته الثقافة الواسعة والكد لادراك غايات الرجال ، ولكنها فى رسائلها الأولى تنعى عليه أنه لم يبلغ غاية من الغايات المرجوة ، بل لقد كان ـ فى نظرها ـ كسولا متلافا لا يعنى بالعمل • وفى ١٨ سبتمبر سنة ١٨٦٧ تتلقى خطابا من زوجها يقول فيه أن ابنها «موريس» سيصل اليها فى «القاهرة» مع مؤدب بلجيكى ، اتفق واياه على تأديب ولده ، اسمه مسيو « سوبر » •

ويصل الفتى الى القاهرة وهو الآن فى الثامنة عشرة ، وكان قد طوف فى صحبة مؤدبة بلجيكا وبعض بلاد أوروبا • ونعلم من خطاب لها الى زوجها فى ١٩ نوفمبر سنة ١٨٦٧ أن ابنها كان يشكو من مرض سرى خبيث وتعرضه على طبيبها دكتور « باترسون » فيقرر أن المرض قد أصابه من أربعة أو

خمسة أشهر خلت ، وأنه كان ينبغى أن يعرض على طبيب فى الوقت المناسب • وقامت على علاجه بالقاهرة ــ وهى كعادتها قوية الارادة متفائلة • ووجدت من أول الأمر أنه لم يكن من السوء مثل ما قدرت • وكتبت لزوجها فى نفس الخطاب : « وعدا ذلك فان « موريس » فى صحة جيدة جدا وسعيد جدا ، وكذلك أنا فانى أشعر كما لو كنت قد بدأت حياة جديدة ، اذ أن معى هذا الولد العزيز ، أجد فيه بجانبى ابنا طيبا ، عطوفا على وبرا بى » •

وكان مسيو «سوبر» شخصية حقيرة أخرى من شخصيات الأفرنج• وحينما وصل الى «القاهرة» اختلط بحثالة الأوروبيين فيها • ويبدو أنه كان بالقاهرة فى ذلك الوقت مواخير خاصة بالأفرنج وتكتب عنه لزوجها : « أما مسيو « سوبر » فقد بلغ به الشره بحيث أننى أضع أمامه كل ما هو مخزون عندى من أطيب المأكولات فيلتهمها التهاما ، وهذا يكلفنى كثيرا • وينبغى أن أسألك عن الاتفاق الذى عقدته بينك وبينه • حين أنبأتنى بأن « موريس » سيأتى بصحبة رجل بلجيكى كنت أنتظر أن أرى « مؤدبا ومعلما » فاضلا يتحلى بما يتحلى به المعلمون من خلق ، ولكن مسيو « سوبر » لا يفعل شيئا غير أن يجرى وراء ملذاته مع معارفه الذين تعرف بهم فى « القاهرة » ، ولا يعود الينا الا ليأكل وينام ويقحم نفسه علينا • ان تصرفاته لتثير

عندنا السخط ، ولا يرى « موريس » الا أن يركله من دبر ، ولن أدهش اذا أدت به الحال الى ذلك (ص ٣٤٣) .

وقد فرض نفسه عليها ذلك المخلوق ، وتصفه بأنه أمى، سوقى ، وحيوان . كل ذلك ولم يتعلم ولدها شيئا من الفرنسية ثم انها تخلصت منه لدى دخولها الى « الأقصر » فى منتصف ديسمبر من سنة ١٨٦٧ وألقت اليه بألف وخمسمائة فرنك ؛ وهكذا ردت اليها بعض الراحة . وكان « سوبر » وما صدر منه من أفعال حديث العائلة ومثار الاستهزاء والسخرية حتى عند « دارفور » الصغير .

أسفا عليها ! لم تكن هذه الحياة الجديدة التى استروحتها حينما سكنت الى ولدها وسكن ولدها اليها الا فترة عابرة ، أو قل انها كانت خفقة للسراج قبل أن ينطفىء . انها حين تدبرت الأمر تكشفت لها حقائق الحياة فى ولدها : ولم يكن قد جاوز الثامنة عشرة . ولا شك أن أباه كان حفيا به فأرسله الى أفضل المدارس حتى يكون أهلا ليرث القاب الأسرة ، وخصص لـه من ظن أنه خير المربين . لكن المدرسة لم تعلمه الا علوما قصرت عن تربيته وقصر هو عن ادراكها ، أما المربى فكان أسوأ صاحب: فقد كان زوجا لامرأة تحيط بهـا الظنون ، وكان قوادا أغرى بولدها فى الأماكن المظلمة من حياة « بروكسل » و « باريس » وأراد أن يغرى به فى مواخير « القاهرة » وأوكار « الاقصر »

.. وهنا تصطدم « لوسى » بأعوص مشكلات الآباء والأمهات فى تربية أبنائهم • فهل يجب النصح لولدها فى هذه الحـال؟ وهل يصيخ هو لداعى الحكمة ، أم تشترى له جارية ؟ أم هل يمكن أن تمهد له سبيل اللذة بأن تدله على بنات الهـوى من الراقصات العربيات النظيفات ؟ لقد اعتدنا فى رسائلها الصراحة، وكانت هذه الأفكار الصريحة من بين ما عالجته فى رسائلها • نعم ! لقد اعتدنا فى رسـائلها الصراحة المطلقة ولكنهـا كانت فى علاجها هذا الموقف الحرج أصرح ما تكون امرأة • فهى تكتب فى آخر سنة ١٨٦٧ شيئا يدعو الى الحيرة • تكتب عن موقفها فى معالجة الشهوة الجنسية عند ولدها : « قد ترامى الى سمعى الحديث بينها ـ أى بين « موريس » ومسيو « سوبر » ـ وهما يتناولان الغداء بينما كنت أنا طـريحة الفراش فى مقصورتى • وقد أبلغت « موريس » فى صراحة أننى أخشى عليه من أشد الأمراض خطرا وأنه اذا رأى أنه يجب أن يرفه عن نفسه فسوف أعطيه جنيها أو جنيهين من حين لآخر ليتخذ فتاة من الراقصات الطيبات بدلا من أن يذهب الى كثير من النسـاء الساقطات لقاء دريهمات معدودات • انى أخشى ألا يكون هذا من حسن الخلق فى شىء ، لكن كانت النتيجة طيبة فبدت عليه الآن علائم الصحة وأشرق وجهه كأنه وردة مزدهرة وهو يزداد سمنا لأنه ينام مبكرا ويصحو مبكرا » •

ويدعوها شيخ « العبابدة » الى زيارة « النوبة » فتكون هذه الرحلة من بين الأسفار القليلة التى تمتعت بها وهى فى هذا الضعف . لقد كتبت الى زوجها أنها بلغت من الهزال حدا لا تستطيع معه السير على قدميها : وتسأله أن يرسل اليها كرسيا ذا مسندين يمكن أن يحملها عليه الرجال فى غدواتها وروحاتها. لكن وصفها لرحلة « النوبة » قصير ، فهى قد تمتعت بسفرتها هذه وتمنت لو أنها تعيش فى بيت رأس من رءوس هــذه القبائل .

وفى ابريل سنة ١٨٦٨ تكتب الى زوجها من « الأقصر »: « لقد كنت ضعيفة الى حد أننى لم أستطع الكتابة . هبطت علينا الحرارة منذ أيام ثلاثة وتلاشى معها سعالى وأنا الآن أحسن حالا . ولا يزال «موريس» يزدهر فى هذا الجو الحار ويعترض على سفرنا .. انه يتكلم الآن قدرا كبيرا من اللغة العربية وأصبح صديقا لكل انسان : والسلام عليكم يا « موريس » ينهال عليه من كل جانب .. انه يمكنه الآن أن يقرأ الحروف وأرجو أن يقرأ أكثر وأكثر فى القريب العاجل ، احسبك سوف تسر عندما ترى وجنتيه الورديتين وصدره العريض وجسمه القوى.. اننى لم أر فى حياتى تغيرا مثل هذا الى ما هو أحسن فى أى كائن انسانى آخر وما يزال « عمر » يؤدى خدماته بأن يصرفه عن مواطن الزلل ويعلمه كيف يكون حريصا على المال (ص ٣٥٠)

وتزمع الرحيل الى «القاهرة» وترسل الى زوجها خطابا من « المنيا » وتنسى قليلا الكتابة عن ولدها « موريس » وتكتب هذه المرة عن أشياء طالما شغلتها ، ومنها تحول بعض الأقباط عن المذهب الاورثوذكسى الى المذاهب البروتستانتية بفعل المبشرين الأمريكيين :

« لقد رأيت رجلا فى « قنا » أثار اهتمامى الشديد : قبطيا اسمه « فام » : تحول الى المذهب « البرزبيتيرى » ، واستطاع أن يحض مائة آخرين فى قومه ليفعلوا مثل فعلته والقسيس الذى يرأسهم مبشر أمريكى . وكان قد أرسل « فام » الى السودان بفضل البطرق لكنه عاد ثانية . وهو رجل فخم متقدم فى السن ، وكنت أشعر وأنا أتفحص معارف وجهه أننى أمام شهيد مسيحى — وهو منظر غريب فى القرن التاسع عشر .. فالوجه الهادىء الذى لا يعرف الوجل ، والطابع السحرى الذى يبين على ملامحه : كل ذلك كان يذكرنى بالصور الايطالية النبيلة التى انحدرت الينا من القدم . ثم لم يكن من طبعه أن يتكلف التقوى ، وكان ذلك دليلا على ايمانه الواعى . وقد ظل هو والمفتى — وهو رجل نبيل أيضا — يتطارحان الحديث عن الدين فى دعابة وصداقة لا يمكن أن يدركهما رجال الدين فى « اكسترهول » . وحينما غادرنا « فام » قال المفتى : آه ! اننا نحمد لهم انهم رجال صدق على الرغم من أنهم لا يعرفون كثيرا

عن الاسلام : فهم رجال يميلون الى الخير ، ويسيرون على هدى، ويموتون فى سبيل دينهم . ان حياتهم مضرب الأمثال . ونحمد الله من أجلهم » . (ص ٢٥٢) .

ولكن ما تليث مشكلة ابنها « موريس » أن تبرز أمامها مرة أخرى كأنما كانت حلما مخيفا . وفى ١٤ يونية سنة ١٨٦٨ تكتب من « القاهرة » رسالة تعبر فيها لزوجها عن القلق الدفين الذى يساورها من أجل ولدهما . فتقول انها استأجرت لتعليمه « زنجيا » فاضلا يعلمه العربية ، ويقوم على تربيته . وتطالعها « ايتون » بكل مساوئها « انه لا يعرف شـــيئا والتربية التى تلقاها ستمنعه من أن يتعلم شيئا فى المستقبل . لقد أشرب فى قلبه أن القراءة والمعرفة ليست الا من عمل القوم الذين يتطلعون الى مراكز السادة وليسوا هم بالسادة ، وليس فى الحياة شىء يستحق أن يعيش من أجله الانسان الا اللذائذ الحيوانية . ولا يمكن أن يتغير شىء فى الوجود . ويأخذ على اننى استحيى من أن أقول اننى من الطبقة العليا . « انك تختلطين بالحكام هنا ــ والحكام أنفسهم يقولون انك كسيدة من سيدات الحكم؟ » وعلى الرغم من ذلك فهو ولد عزيز وأرجو أن تستغل أحسن ما فيه من خصال . (ص ٤٥٢) .

ولبثت فى « القاهرة » شهورا لكنها لا تكتب لزوجها الا قليلا . وينتقل طبيبها ليكون مديرا لمستشفى بجوار «اسطنبول»

وينصحها بأن تنتقل الى الشام لعل الهواء الطيب هناك يفيـدها وتمضي صيف ١٨٦٨ في « بيروت » لكن الجو هناك كاد يقضى عليها . فلا يأتى الشتاء حتى نراها قد ارتدت الى «الاسكندرية» ثم الى «القاهرة» . وفى ٢٢ أكتوبر سـنة ١٨٦٨ تكتب الى زوجها : « ان هذه الرحلة العاثرة الحظ الى « سوريا » كادت تكلفنى حياتى . فقد كان الجو سما زعافا لمرضى«السل» . وبعد عشرة أيام من وصولى أنبـأنى الطبيب أنه لم يكن أمامى الا أيام قلائل أقضى بعدها نحبى وأن شفائى من المستحيل » .

وتنقطع الرسائل بعد نوفمبر سنة ١٨٦٨ ، ولا ندرى ما فعل الزمن بهذه الرفات التى كانت تسير وتعمل وتفكر . ولكن ما تقبل سنة ١٨٦٩ حتى نلقاها ثانيـة فى « الأقصر » : مودعة أهلها . وكان الجميع اذ يودعونها يعلمون فى دخيلة النفس أنهم انما يودعون قطعة من المجتمع الذى عاشت فيه ـ كانوا يودعون « البشوشة » و « نور على نور » : بل كانوا يودعون المـرأة الغريبة التى أضفت عليهم من روحها الطيبة نفحة من القداسـة والحب والتقدير .

١٢ـ رسائلها الأخيرة

أسوان فى ٢٢ يناير سنة ١٨٦٩

عزيزتى « جانيت »

نحن هنا فى « أسوان » • وأجد الجو أحسن ما يكون ، ولكننى أشعر بأن مرضى أسوأ مما قد تظنين • لست أريد أن يحمل أبوك هما على همومه ، ولكنى أقول لك أنت وحدك انه ليس من الممكن أن أعيش طويلا بعد اليوم • ولست أدرى متى ينتهى بى هذا المصير !! •

حينما يأتى ولى العهد سأستشير طبيبه الخاص وأرسل اليك ما ينتهى اليه من قرار • أظن أنه ينبغى أن يعود «موريس»

الى انجلترا بأسرع ما يمكن . لقد أصبح الآن فى غاية من الصحة وليس عندى ما أخشاه عليه من هذه الناحية ، وعليه الآن أن يعمل عملا يؤهله لأن يكون رجلا ، ولست أجد أن لدى أية سلطة عليه ، وأعتقد أنك أنت الوحيدة التى سوف ينصاع لها .

كم أود لو أستطيع أن أرى أى واحد منكم مرة أخرى! ولكنى لا أرى أنه يمكننى أن اذهب الى اوروبا . اننى أتألم عند التنفس آلاما مبرحة لا أطيق معها السير على قدمى حتى ولا بطول السفينة ، وأنا من الوهن والضعف بحيث لا أستطيع أن أعمل شيئا من غير أن يساعدنى أحد . و « عمر » يلتزم بصبر وعناية لا أحسب أن رجلا يستطيع أن يلتزم بهما من أجل القيام على حاجاتى ليكفينى التعب والارهاق . ولست أدرى ممن تعلم مثل هذا التمريض الدقيق فاذا أنا تخلصت من « مس ماثيوز » والضوضاء التى تحدثها فسوف أجد الراحة الكبرى، فلا تخشى على من شيء فسأكون موضعا للرعاية والعناية » .

اسوان فى ٢٥ يناير سنة ١٨٦٩

الأعز الك

مرت علينا أيام عشرة ونحن فى أسوان ، وأجد الهواء خير ما يلائمنى ، فان السعال الذى ينتابنى أخف من ذى قبل.

انما أجدنى ضعيفة خفيفة النفس والريس الذى يقود مركبى شاب صغير ممتاز جدا ، فهو بحار لكنه يغنى كما يغنى العنـدليب • والحق أنه لم يكن فى الأصل بحارا ، ولكنه مغن محترف جاء معى من « القاهرة » ليؤدى مهمة البحار لهوى فى نفسه • وهو يجتذب بصوته زرافات من الناس يطربون لسماعه • وفى «اسنا» دعاالمصلون فى المسجد ليجزينى الله على ما قدمت من فضـل عليهم ، ولو أن الدعوات تجدى لكنت خليقة بأن أشـفى سريعا من هذا الداء ، وفى « الأقصر » نحر « عمر » شاة كان قد نذرها أما « مصطفى ، ومحمد » فقد ذبح كل منهما « شاتين » فدية لحياتى ، وعقد كل « الدراويش » حلقتين للذكر فى خيمة وراء سفينتى ، وطبلوا بالطبول وانشدوا الأناشيد ، ليلتين متعاقبتين، داعين المولى أن يشفينى ، وصام كل من على المركب شـــهر رمضان صياما نقيا خالصا : يستوى فى ذلك « عمر » وأصـغر الصبيان وأظن أن « دارفور » كان أجدر واحد منهم بالثناء ، فانى أعلم أن شهيته للطعام لا يعادلها الا ما نسمعه عن شـهية « جارجانتوا » فيما رواه « رابليه » ، لكنه على الرغم من ذلك كان جلدا فصام أيام رمضان الثلاثين ، وحين كان يصلى كان جادا يحك أنفه فى التراب عند السجود •

ألك الأعز ! اذا أنا مت فانى أتوسل اليك أن تصنع شيئا من أجل «دارفور» انه أفضل أولادى ، وأكثرهم مرحا ، وانى

أحبه حبا جما • وهو ماهر وشجاع وأمين ، وهو بعد ذلك يحبنى ويعنى بى عناية تامة ، وفيه غرابة لا يمكن ادراكها • أما «عمر» فانه ـ كما كان دائما • خير ممرض لى وأفضل من ارتاح له ممن حولى ••

أسوان فى ٢٥ يناير سنة ١٨٦٩

كنت فى يوم عيد الميلاد فى « اسنا » وكان الجو دافئا نقيا ، وأقمت « فانتازيا » ، واستأجرت بعض البنات ليرقصن : زينب وهلالية وهما من خواص الغوازى اللائى يظهــرن فى الولاء ، وقد بذلتا أقصى جهدهما • كم أنا مشوقة لأنقل اليك هذا المنظر كى تراه رأى العين ! فقد كان « رمضان » يصدح بأغنية من أغانى الغرام ، ويضرب بنغماته على طبلة دقيقة ، بينما كانت « زينب » ترقص على ايقاعه كأنها صورة حية • ومن حول كل ذلك كان يجلس البحارة والفتيات وتجار محترمون حيثما اتفق على ظهر السفينة ، وكان اللاعب على « الربابة » يستخرج منها نوحا كأنما كان نواح « ايزيس » على فقيدها «أوزيريس» وفى هذا الجو الذى انتشى فيه حينما أكون فى هذه «الفانتازيا» المصرية الحقيقية فانى أسائل نفسى هل أعيش أنا فى تلك الساعة أم انتقلت الى ماض سحيق مقداره أربعة آلاف بل عشرة آلاف سنة •• ليس شىء يحيطنى بالقدم كما يحيطنى الغوازى ـ وهن

الفتيات الراقصات فى وجودهن نفسه ، اذ يعتمل فى نفوسهن وجد دينى من نوع غريب جدا لاشك عندى أنه موروث من الماضى السحيق . فلنسأل أولئك السادة الذين رجعوا من الهند كيف يفسرون ذلك ؟ — فهو فى الواقع شيء عجيب .

والآن وقد اشتدت على العلة فانى آسفة أن لم يتح لى أن أثابر على كتابة شيء عن العقائد فى « مصر » — ولو أنك كنت تخشى أن يقوم من العلماء من يدحض آرائى . أما الآن فانى أؤمن ايمانا راسخا انه ستموت معى تلك المعرفة التى اكتسبتها ولم يكتسبها مثلى الا القليلون . يجب أن تذكر أن العلماء يعرفون الكتب لكنى أعرف الرجال ، بل وأعرف النساء أيضا — وهو أمر فى نفسه أصعب من معرفة الرجال ...

وداعا يا ألك الأعز ! اغتفر لى هذه الكتابة الرديئة . فانى ضعيفة جدا . كل جسمى ضعيف ، حتى أصابعى لا تقوى على الكتابة . أبث حبى لابنتى العزيزة « رينى » . لقد كان على ثلاثة مراكب من حولى أطفال فى الخامسة والثامنة ، وكم كنت أغبطهم ! أعتقد أنه من الأفضل أن يعود « موريس » اليك فى انجلترا حين نصل الى « القاهرة » . يجب أن يفعل شيئا .

بولاق فى ١٥ يونيه سنة ١٨٦٩

ألك الأعز

لا تفكر فى المجيء الى هنا ، اذ الحق أن الفراق بينى

وبينك مرة أخرى سيكون مؤلما لنفسى . والحادث الآن هو أننى أنتظر نهايتى صابرة وسط قوم يشفقون على ويحبوننى فأشعر بينهم بالراحة ولكن لن أشعر عند فراقى عنهم ذلك الشعور الجارف الذى أشعر به عند الفراق بينى وبينك . كان سفرى من « الأقصر » منظرا يدعو الى الأسى ، فهم كانوا يعتقدون أنهم فى وداعى الأخير فلن يرونى مرة أخرى .

كان عطف الناس واشفاقهم على مما يمس شغاف القلوب : من القاضى الذى حفر لى قبرا ليدفننى بين أهله ، الى أفقر الفلاحين . أما « عمر » فانه يقدم لك شكره من صميم الفؤاد ، ويرجوك أن تظل السفينة مسجلة فى القنصلية باسمك ، وذلك لكى يستعملها ويستفيد منها . لقد عينه الأمير ترجمانا خاصا له ولكنه مسكين !! فان كل ما اقتناه لا يعزيه عن فقدانه الأم التى وجدها فى هذا العالم . وقد بكى « محمد » فى الأقصر بكاء مرا ، وقال لى وهو يقبل يدى بحرارة : « مسكين أنا ! مساكين كل أولادى ! بل مساكين كل من فى العالم » . أما الناس فى « اسنا » فقد استأذنوا ان يلمسونى حتى تحصل لهم البركة . وكل واحد من أولئك وهؤلاء كان يرسل الى خبزا لطيفا وخير ما عندهم من الزبد والخضر ولحم الضأن : وهم الآن أكثر ما يكونون عطفا على وأنا لا أستطيع أن أنفعهم فى شىء .

اذا أنا عشت حتى سبتمبر فسأذهب الى « اسنا » حيث

الهواء عليل وحيث أرجو أن يهدأ سعالى ، فانى أفضل أن أموت بين أهلى فى الصعيد عن أن أموت هنا .

يجب أن تغتفر لى هـذا الحظ الردىء يا أعز الأعزاء !
لا تفكر فى أن ترسل « موريس » الى خارج انجلترا مرة أخرى. يجب عليه أن يبدأ فى القيام بعمل ما والا فلن يكون صالحا لأى عمل .

هل لك أن تشكر الأمير ولى العهد لما فعله من أجل عمر !. أم ترى ان أكتب أنا اليه ؟ لقد كان حفيا بى وكريما معى ، وكذلك كانت الأميرة ، وأحسب انها أكثر الفتيات اللائى أعرفهن بساطة فى العقل ... (ص ٣٦٢) .

القاهرة ـ حلوان ـ امام البدرشين فى ٩ يوليه سنة ١٨٦٩
ألك الأعز

لا تبتئس ولا ترسل الى ممرضة . لقد ظهر أن « مس ماثيوز » شخصية ممتازة وأنا ألقى من التمريض ما هو فى الامكان . والريسان «رمضان» و «يوسف» قويان وعطوفان . أما « عمر » فهو كما كان دائما . لقد بلغ بى الألم الجثمانى مالا أود أن يشهده الآخرون ، وأسوأ ما فى الأمر أننى أشعر بالقوة بعض أحيـان ، وقد مثلت موتى منذ يومين كما يقوم الممثلون بتجربة أدوارهم فغبت عن الوعى ليلة بأكملها لكننى أفقت فى الصباح .

ومرة أخرى أقول انه لا يمكن أن يعتنى بى فى أى مكان آخر مثل ما يعتنى بى بحارتى . أبلغ « موريس » أنهم بكوا لفراقه ، وأن عبد الحليم قد أقلع عن تعاطى الخمر والحشيش . انه رجل طيب جدا . أما الريسان فانه لا أحد يدانيهما .

بارك الله فيك يا أعز الأحباب جميعا . كم هو من المؤسف أنك لم تتم ما كنت قد عزمت عليه من قدومك الى « فى رحلة على نهر النيل » .

قبل لى كل أحبائى و « تشــارلى » العزيزة ! اننى أشفق على عينيها ! أحسب أننى لا أجيد الكتابة فأنا مجهدة مسهدة فارقنى النوم ، وأختنق اختناقا لا يقف عند حد .

أغفر لى أخطائى ان كنت قد أسأت اليك . كم وددت لو أننى رأيت وجهك العزيز مرة أخرى ولكننى لست أود ذلك الآن — لست أريدك الآن هنا بأية حال من الأحوال .

★ ★ ★

وفى ١٣ يولية سنة ١٨٦٩ قبل أن يستلم « الكستدر دف جوردون » خطابها الأخير سألت « مس ماثيوز » أن تحضر اليها استمارة تلغراف وكتبت فيها الى زوجها نعيها بنفسها ، وتركت فراغا بين الأسطر لتاريخ الوفاة على أن تملأه « مس ماثيوز » عند وفاتها . وقالت انها لن تقوى على البقاء الى اليوم التالى .

انها ظلت اثنى عشر يوما مؤرقة لا تأوى الى فرشها لما كان يلقاها من ألم السعال والاختناق ، بل تبيت متكئة فى مقعد ذى مسندين .

وقرأت متأنية الخطاب الأخير الذى كانت قد تسلمته من ابنتها « رينى » فبكت بكاء مرا اذ ذكرت أنها لن تراها مرة أخرى ، ولكنها قالت بعد ذلك انه من الخطأ أن يشكو الانسان من مشيئة الله ، أو أن يكون سببا فى تألم الآخرين . وكان « عمر » و « دارفور » وكل البحارة ساهرين على ظهر المركب يصلون من أجلها فى ظلام النيل ، بينما كانت « اما ماثيوز » جالسة الى جانبها .

وعند منتصف الليل قالت انها كانت تحس ببرد شديد جدا ، فأحضرت لها بطانيات تدثرت بها ولكن لم يجد ذلك نفعا . وفى الساعة الثانية من الصباح طلبت قهوة باللبن ، وحينما أحضرت لها قالت « ما أجمل رائحتها ! انكم تعلمون ما سوف يأتى . لا تخافوا » ودخل « عمر » والبحارة الى مقصورتها ، وكان قد بقى لها من القوة ما أتاح لها أن تقبلهم وأن تحتضنهم واحدا واحدا وان تشكر لهم ما قدموه من أجلها من حدب وعطف . وقال واحد منهم انه يرجو أن تتحسن فأجابت « ليس من الرحمة بى أن يطول بى هذا الألم : انما أصلى من أجل نهايتى . ووقف الجميع وقد حطم الأسى قلوبهم بينما كان الفجر

يلقى بأشعته الأولى على النهر ، وجثا « عمر » الى جانب فراشها وقد تملكه البؤس عاجزا الآن عن أن يمد لها يد المعونة .

وكتبت « مس ماثيوز » : كانت رغبتها أن ترى زوجها ، ولكن حينما تبينت أن ذلك لن يكون استسلمت لأمر الله قائلة : « لتكن مشيئتك » وتوفيت وقد اقتربت الساعة من السابعة من صباح اليوم الرابع عشر من يولية فى سن الثمانية والأربعين ووصلت برقيتها الى « الكسندر » و « جانيت » فى « لندن » فى اللحظة التى كانا يعدان فيها للسفر اليها فى « مصر » .

رقم الايداع بدار الكتب ٢٥٣٢/١٩٧٦

ISBN ٩٧٧ ٧٠٥٩ ٠٤ ٣



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٥٥ قرشًا